بلاد التيجان السبعَة

ظلال الخرائط



رضا الحكيم الشعيري

رواية

بلاد التيجان السبعة

ظلال الخرائط

في عالمٍ ترسم التيجان حدوده،
تبدأ الحكاية بما أخفته الخرائط.

رضا الحكيم الشعيري

المقدمة

القارّة التي انكسرت

في البدء، لم يكن البحر في قلب القارّة.
كانت الأرض متصلة من جبال الشمال البيضاء إلى غابات الجنوب الدافئة، ومن صخور الغرب السوداء إلى سهول الشرق الذهبية. وكانت القوافل تستطيع أن تسير شهورًا من دون أن تركب سفينة، تعبر المدن والجسور والوديان، وتحمل معها الملح والحديد والحرير والحكايات.
ثم جاء اليوم الذي صار له في كتب التاريخ اسم واحد:
الانكسار العظيم.
لا تتفق الممالك على سبب وقوعه.
تقول بعض الكتب إن الأرض غضبت من البشر، وتقول أخرى إن السماء أسقطت نجمًا مشتعلًا فوق قلب القارّة. ويروي كهنة الشمال أن الملوك القدماء فتحوا بابًا كان ينبغي أن يبقى مغلقًا، بينما يقسم بحّارة الجنوب أنهم سمعوا، قبل الكارثة بليلة، صوتًا عظيمًا يصعد من أعماق الأرض، كأن شيئًا نائمًا منذ آلاف السنين قد استيقظ تحت أقدامهم.
لكن جميع الروايات تتفق على ما حدث بعد ذلك.
تشققت القارّة.
انفجرت الجبال من جوفها، وانقسمت السهول، وابتلعت الأرض مدنًا بكاملها. ارتفعت الأمواج فوق الأبراج، وسقطت الجسور التي ظن الناس أنها ستبقى إلى الأبد. اختفت طرق القوافل، وتحوّلت القرى الساحلية إلى جزر، والجزر الصغيرة إلى قمم وحيدة فوق ماء لا ينتهي.
وفي قلب العالم، حيث كانت تقوم أقدم الطرق وأعظم المدن، انفتحت هوّة هائلة واندفعت إليها مياه البحار من كل الجهات. ظلّت العواصف تدور فوقها أيامًا ولياليَ، حتى خمدت الرياح فجأة، وسكن الماء سكونًا مخيفًا.
ومنذ ذلك اليوم، سمّاه الناس:
بحر السكون.
لم يكن بحرًا عاديًا.

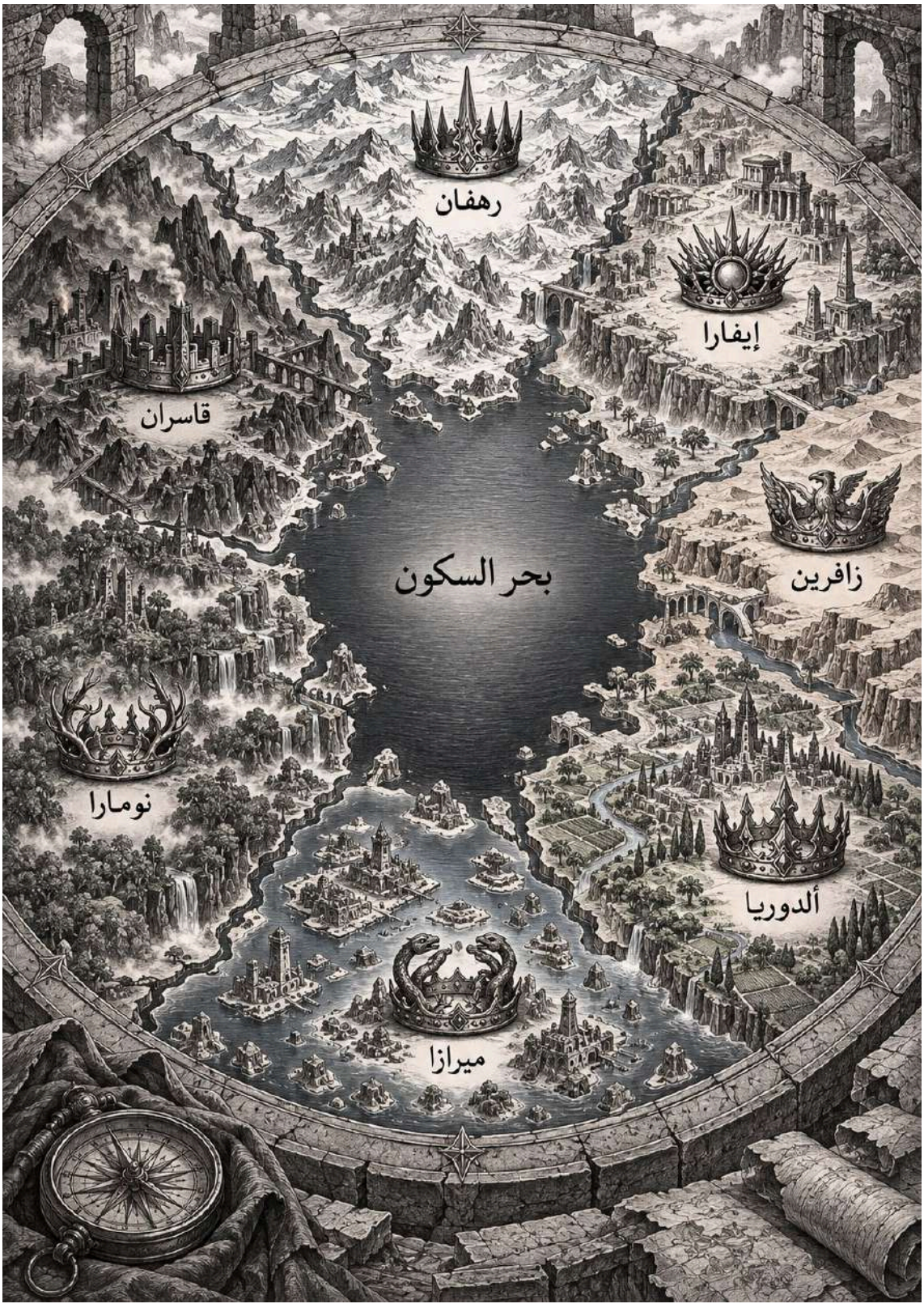
رهفان
إيفارا
قاسران
زافرين
بحر السكون
نومارا
ألدوريا
ميرازا

كانت مياهه تبدو هادئة حتى في أشد العواصف، ولا تعكس النجوم كما تفعل بقية البحار. السفن التي تقترب كثيرًا من قلبه تفقد اتجاهها، والبوصلة تدور فوق سطحه كأن الجهات نفسها قد نسيت مواقعها. أما البحّارة الذين عادوا منه، فقد عاد بعضهم بشَعر أبيض، وبعضهم بلا ذاكرة، وبعضهم يردد أسماء مدن لا توجد في أي خريطة.

ومع ذلك، لم يكن أمام الناجين وقت للخوف من البحر.

فحين انكسرت القارّة، انكسرت معها الممالك القديمة والقوانين والعهود. صار كل جبل حدودًا، وكل مضيق ساحة حرب، وكل جزيرة وطنًا يبحث عن اسم. خرج الناس من الخرائب جائعين وخائفين، والتفوا حول أقوى من استطاع حمايتهم.

وهكذا ارتفعت سبعة تيجان فوق أنقاض العالم.

سبعة تيجان، هكذا تقول الكتب.

◇

في الشمال، بين القمم التي لا يذوب عنها الثلج، قامت مملكة رهفان.

يروي أهلها أن مؤسسها صعد الجبل الأعلى أثناء الانكسار، وقاد الناجين عبر عاصفة أخفت الشمس سبعة أيام. ويقولون إنه شقّ لهم طريقًا بين الجليد بيديه، ثم بنى أول حصن فوق صخرة لم تستطع الزلازل كسرها.

ومن حول ذلك الحصن نشأت العاصمة هاروك، مدينة الأسوار البيضاء والأبراج الحادة، حيث تُقاس قيمة الرجال بقدرتهم على الوفاء، وتُحفظ العهود في قاعات من الحجر والجليد.

يؤمن أهل رهفان أن تاجهم هو أصل التيجان، لأن من احتمى بالجبال حين انهار العالم هو الأقدر على حكمه بعد نجاته.

◇

وإلى الشمال الشرقي، فوق هضاب عتيقة تملؤها الأعمدة والمعابد، قامت مملكة إيفارا.

تقول سجلاتها إن مؤسسها جمع العلماء والحكماء في الليلة التي سبقت الانكسار، فأنقذ كتب البشر ومعارفهم من النار والغرق. ولهذا يسمّي أهل إيفارا مملكتهم حافظة الذاكرة، ويرون أن الأمم التي لا تعرف تاريخها لا تستحق صناعة مستقبلها.

في عاصمتها تيرافا ترتفع المعابد الحجرية فوق الأرض الجافة، وتمتد السراديب تحتها كجذور شجرة لا ترى الشمس. هناك تُنسخ الكتب، وتُحفظ الأنساب، ويقرر الكهنة أي الروايات تستحق أن تبقى.

ويقول ملوك إيفارا إن الحق في الحكم لا يكون للأقوى، بل لمن يعرف الحقيقة.

غير أن الحقيقة في إيفارا لا تُمنح للجميع.

◇

وفي الشرق، حيث تشق الأنهار الزرقاء الصحارى الحمراء، نهضت مملكة زافرين.
يحكي أهلها أن الانكسار لم يفرّق الأرض وحدها، بل أضاع أسماء القرى وحدود الحقول وحقوق الماء، حتى صار كل من يحمل سيفًا قادرًا على اختراع حدوده. عندها جلس مؤسسهم أمام كتاب أسود وأخذ يكتب: أسماء العائلات، وطرق القوافل، وعهود الماء والأرض. ثم قاد من سجّل أسماءهم عبر الصحراء حتى بلغ الوادي الذي بُنيت عنده العاصمة سِجّال؛ مدينة الجسور العالية والأسواق الصاخبة والقصور المنحوتة في جدران الوادي.
كان أهل زافرين تجارًا ومحاربين ورحالة. فتحوا الطرق بين الجزر، وسيطروا على المعابر التي تمر منها القوافل، حتى صار الذهب يصل إلى خزائنهم قبل أن تصل الأخبار إلى قصور الآخرين.
ويقولون إن من يملك الطرق يملك العالم، وإن تاج زافرين لم يُصنع ليتبع تاجًا آخر.

◇

أما في الجنوب الشرقي، حيث الحقول الخضراء والأنهار الواسعة، فقد قامت مملكة ألدوريا.
تروي أناشيدها أن الناجين لم يموتوا جوعًا لأن الأرض عقمت، بل لأن الأقوياء أغلقوا المخازن وحبسوا الماء عن القرى التي رفضت طاعتهم. فجاء مؤسسها ففتح الأبواب، وقسّم الماء بين الحقول، ونقش على لوح من الحجر سبعة قوانين لا يستطيع ملك أن يغيرها وحده. وحول أول مخزن فتحه نشأت العاصمة سولان.
كبرت سولان بين الحدائق والقنوات والقصور المضيئة، وصارت مخازن ألدوريا تطعم مدنًا كثيرة في سنوات القحط. ولذلك يرى أهلها أن من يطعم الشعوب أحق بحكمها ممن يخيفها بالسيوف.
لكن حبوب ألدوريا لم تكن تُمنح بلا ثمن، وكل رغيف خرج من مخازنها كان يترك خلفه دَينًا لا تنساه سجلات القصر.

◇

وفي أقصى الجنوب، تناثرت آلاف الجزر فوق الماء كحبات عقد انقطع خيطه. هناك وُلدت مملكة ميرازا.
يقول بحّارتها إن حيّة بحرية عظيمة خرجت من الأعماق بعد الانكسار، وأخذت تحطم كل سفينة تحاول جمع الناجين من الصخور. فلم تنتظر مؤسستها هدوء البحر، بل نزلت إلى الأعماق وحدها، وروّضت الحيّة، واستخرجت من قلبها لؤلؤة زرقاء تضيء في الظلام. وبنور تلك اللؤلؤة رسمت الطرق الآمنة بين الجزر، وحيث انتهى أول طريق رسمته نشأت العاصمة سيلمارا؛ مدينة المرافئ الزرقاء والجسور الخشبية والأشرعة التي لا تنام.

لا يعترف أهل ميرازا بالحدود التي ترسمها اليابسة. فالبحر عندهم طريق، والسفينة بيت، والأفق وعد لا ينتهي. وهم يرون أن تاجهم هو الأحق بقيادة العالم، لأنهم وحدهم يستطيعون جمع ما فرّقه الانكسار.
غير أن للبحر ذاكرة، والبحر لا يعيد كل ما يأخذه.

◇

وفي الجنوب الغربي، حيث تغطي الغابات الجبال وتنحدر الشلالات بين الضباب، قامت مملكة نومارا.
تروي حكاياتها أن الانكسار لم يترك وراءه الخراب وحده، بل أحلامًا سرت بين الناجين كالحمّى، فصاروا يهاجمون بعضهم في الليل ويفرّون من أشياء لا يراها غيرهم. عندها دخلت مؤسستها الغابة التي كان الجميع يهربون منها، وعادت بعد ثلاث ليالٍ تحمل فانوسًا صغيرًا جمعت فيه تلك الأحلام، فعادت إلى الناس عقولهم. ثم قادتهم إلى الوديانً المخفية، وهناك بنوا إيلورا بين الأشجار والمياه.
يعيش أهل نومارا قريبين من الغابة، ويسلّمون فوانيسهم كل صباح إلى كتبة الأحلام، ويعتقدون أن ما يراه النائم لا يخصه وحده. ويقولون إن ملوكهم لم يرثوا التاج بالدم وحده، بل بما رأوه في منامهم قبل أن يجلسوا على العرش.
ولهذا لا يثقون كثيرًا بالمدن الحجرية، ولا بالرجال الذين يرسمون خطوطًا مستقيمة فوق أرض لم تكن مستقيمة قط.

◇

وفي الغرب، بين الجبال السوداء وفوهات النار، ارتفعت مملكة قاسران.
تقول ملاحمها إن القبائل الفارّة من حروب ما بعد الانكسار وجدت طريقها إلى الشرق مسدودًا بجبل لا يُعبر، فوقف مؤسسها أمامه ورفع مطرقته، وضربه حتى انشق نصفين. ومن قلب الجبل المشقوق أخرج الحديد، وبه أقام الناجون أول أسوار العاصمة دمهار.
كانت مدينة من الحديد والحجر، لا تُفتح أبوابها بسهولة ولا تُغلق مصانعها ليلًا. تعلّم أهل قاسران أن القوة وحدها تحمي ما تبقى، فصنعوا أفضل الأسلحة وأقسى الدروع، وربّوا أبناءهم على أن العالم لا يرحم الضعفاء.
ويقول ملوكهم إن التاج لا يستحقه من ورثه، بل من يستطيع الاحتفاظ به.

◇

وهكذا صار للعالم سبع ممالك، وسبعة عروش، وسبع حكايات عن البطولة.

وكانت كل سلالة تقسم أن دم مؤسسها هو أقدم الدماء، وأن تاجها هو التاج الأول، وأن بقية الملوك ليسوا إلا حكامًا مؤقتين ينتظرون اليوم الذي يعود فيه العالم إلى سيده الحقيقي.

بعد الانكسار بسنوات، اجتمع الملوك السبعة على جزيرة صغيرة عند أطراف بحر السكون. لا تذكر السجلات ما دار بينهم، ولا يعرف أحد لماذا استمر الاجتماع سبعة أيام أُطفئت خلالها النيران ومنعت السفن من الاقتراب.

لكنهم خرجوا منه بميثاق جديد.

قُسّمت البحار، ورُسمت الحدود، واعترفت كل مملكة بوجود الممالك الست الأخرى. وأمر الملوك بصناعة خريطة واحدة للعالم، تُنسخ عنها جميع الخرائط التي يستخدمها التجار والجنود والبحّارة.

سمّيت تلك الوثيقة خريطة التيجان السبعة.

ومنذ ذلك الوقت، صار رسم خريطة من دون ختم ملكي جريمة، وتغيير اسم جزيرة خيانة، وإضافة أرض لا تعترف بها الممالك هرطقة يعاقب عليها القانون.

كان رسّامو الخرائط يقفون أمام القضاة ويقسمون:

«أن يرسموا ما هو موجود، وألا يضيفوا ما لم تره التيجان، وألا يعيدوا إلى العالم ما قرر التاريخ نسيانه.»

لم يكن الناس يفكرون كثيرًا في كلمات القسم.

فالخرائط، في نظرهم، لم تكن سوى أوراق تحدد الطرق والموانئ والمسافات. ولم يسألوا لماذا تُحفظ النسخة الأولى من خريطة التيجان في غرفة مغلقة بسبعة أقفال، ولا لماذا يحمل كل ملك مفتاحًا مختلفًا، ولا لماذا لا يستطيع أي واحد منهم فتحها وحده.

مرّت القرون، وتحولت الشكوك إلى حكايات، والحكايات إلى خرافات يخيف بها البحّارة أبناءهم.

ازدهرت مدن وسقطت أخرى. تعاقب الملوك، واشتعلت الحروب، وعُقدت الزيجات بين السلالات ثم نُقضت. لكن شيئًا واحدًا بقي ثابتًا:

العالم هو ما تُظهره الخريطة.

وما لا يظهر عليها... لا وجود له.



كان الصباح في قصر تيرافا يبدأ دائمًا قبل أن تستيقظ المدينة.
تُفتح النوافذ العالية المطلة على الهضاب، وتُشعل مواقد البخور في الممرات، ثم يدخل الخدم الواحد بعد الآخر حاملين الماء والخبز والفاكهة ودفاتر اليوم. وعندما يرن الجرس النحاسي فوق البرج الشرقي للمرة الثالثة، يكون الملك أردان قد جلس إلى المائدة المستديرة في الغرفة الصغرى، حيث تُناقش الأمور التي لا تستحق اجتماع المجلس الكبير.
في ذلك الصباح، لم يكن أمامه ما يدعو إلى القلق.
انهار جزء صغير من قناة المياه الشمالية، وتشاجر تاجران حول ملكية مخزن في السوق، واشتكى قائد الحرس من تأخر الحدادين في تسليم الرماح الجديدة. أما معبد الساعات، فقد طلب اثني عشر لوحًا من خشب السرو لترميم أبوابه قبل موسم الرياح.
قال الملك وهو يضع الخاتم فوق إحدى الرسائل:
— أعطوا المعبد ستة ألواح. إذا صمدت أبوابه مئتي سنة بما فيها، فلن تسقط لأننا حرمناها من الستة الأخرى.
كان صوته هادئًا، كأن القرار لا يتجاوز أبوابًا خشبية فعلًا. رفع الكاتب ريشته وسجّل الأمر من دون تعليق.
جلست الأميرة سيراي إلى يمين أبيها، تقلب تقريرًا عن المدارس التابعة للمعابد. كانت في الخامسة والعشرين، ترتدي ثوبًا رماديًا بسيطًا يخلو من الذهب، ولا تحمل من علامات وراثة العرش إلا خاتمًا ضيقًا في إصبعها الأوسط.
قالت من دون أن ترفع عينيها عن التقرير:
— المعبد طلب اثني عشر لوحًا في العام الماضي أيضًا.
نظر الملك إليها.
— وهل حصل عليها؟
— حصل على عشرة. وسجلات المخزن تقول إنه استخدم أربعة.
توقف الكاتب عن الكتابة، بينما أخفى قائد الحرس ابتسامة سريعة خلف يده.
قال أردان:
— أرسلوا إليهم لوحين إذن، واطلبوا معرفة ما فعلوه بالستة الباقية.
صحح الكاتب الرقم، ثم انتقل إلى الورقة التالية.
في الجهة المقابلة جلس مِهراز، حافظ الأرشيف الملكي. كان أنحف من أن يملأ ثوبه الأسود، وأطول لحية من أن تبقى ساكنة عندما يتنفس. لم يكن يحضر الاجتماعات الصباحية عادة، لكنه جاء ليطلب عمّالًا لترميم المخزن الغربي بعدما تسربت مياه الأمطار إلى جدرانه.
قال وهو يزيح كأسه بعيدًا عن حافة إحدى الوثائق:

— الكتب تنجو من الحروب، يا مولاي، لكنها لا تنجو من الرطوبة.
قال الملك:
— كل عام تطلب مالًا أكثر لحماية الكتب.
— لأن الكتب تزداد، والمال لا يفعل.
رفعت سيراي نظرها إليه وقالت:
— ربما لو سمحت للطلاب بقراءة بعضها، لخفَّ وزن الرفوف.
لم يبتسم مِهراز، لكنه أمال رأسه قليلًا، وكانت تلك أقرب حركة عنده إلى الضحك.
مدّ الكاتب يده إلى التقرير الأخير، غير أن طرقًا مترددًا جاء من خلف الباب.
نظر الملك إلى قائد الحرس، فأشار الأخير إلى أحد الجنود. فُتح الباب بقدر يسمح بظهور وجه شاب يرتدي ثوب العاملين في الأرشيف. كان الغبار يغطي شعره وكتفيه، وبين يديه أسطوانة طويلة ملفوفة بقطعة قماش بنية.
قال الجندي:
— عامل من المخزن الغربي، يا مولاي. يقول إن الأمر لا يحتمل الانتظار.
بدا الانزعاج على وجه الملك.
— كل شيء في الأرشيف لا يحتمل الانتظار عند مِهراز.
لكن حافظ الأرشيف لم يرد. كان ينظر إلى الأسطوانة بين يدي الشاب.
قال:
— دعه يدخل.
تقدم العامل حتى بلغ طرف المائدة، ثم انحنى مرتبكًا.
— اسمي رائف، يا مولاي. نعمل على إزالة الخشب المتعفن من الجدار الداخلي للمخزن، وعندما نزعنا اللوح الأخير وجدنا تجويفًا خلفه. كانت هذه في داخله.
أشار الملك إلى الأسطوانة.
— كتاب؟
— ظننا ذلك في البداية.
فك رائف القماش ووضع ما يحمله فوق المائدة. ظهر أنبوب من خشب داكن، مسوّد الأطراف كأنه نجا من حريق قديم. لم تكن عليه كتابة، لكن غطاءه حمل ختمًا دائريًا محيت معظم خطوطه عمدًا.
لم يتحرك مِهراز لحظة رآه.
سأل بصوت خافت:

— من فتحه؟
— أنا ورئيس المخزن.
— ومن غيركما رآه؟
— لا أحد، سيدي.
مدّ مِهراز يده، ثم توقف قبل أن يلمس الأنبوب.
لاحظت سيراي تردده. وضعت التقرير جانبًا واقتربت قليلًا من المائدة.
قال الملك:
— افتحه.
رفع رائف الغطاء وأخرج لفافة سميكة صفراء الأطراف. بسطها بحذر، وثبت زواياها بأربعة أكواب حتى لا تعود إلى الالتفاف.
كانت خريطة.
ظهرت عليها جبال وأنهار وسواحل لا تشبه ما يعرفه أي بحّار في إيفارا. بدت اليابسة متصلة في مواضع تقطعها البحار الآن، وامتدت الطرق عبر مناطق لا توجد فيها اليوم إلا الجزر والمضائق.
اقترب مِهراز خطوة.
لم يكن وجه الملك قد تغير بعد. نظر إلى الخريطة كما ينظر إلى وثيقة قديمة تحتاج إلى تاريخ وتصنيف، ثم أشار إلى جانبها الشرقي.
— هذه القارة قبل الانكسار.
قال رائف:
— هذا ما ظنناه، يا مولاي. لكن الأمر ليس في شكل القارة.
وأشار بإصبعه إلى قلب الخريطة.
كان هناك خط رفيع بلون أزرق باهت يبدأ عند الساحل الغربي، ويمتد عبر اليابسة حتى يبلغ دائرة صغيرة في الوسط. لم يكن الخط مستقيمًا تمامًا، بدا كأنه رُسم فوق الخريطة بعد اكتمالها بسنوات طويلة.
قال العامل:
— عندما فتحناها لم يكن هذا الخط موجودًا.
ساد الصمت.
تابع رائف، وقد ظن أن أحدًا لم يفهمه:
— ظهر بعدما وضعناها فوق الطاولة. بدأ من هنا، ثم امتد ببطء حتى وصل إلى الدائرة. حاول رئيس المخزن مسحه، لكنه لم يستطع. لذلك جئت بها فورًا.
توقفت يد الملك فوق خاتمه.

انخفض اللون من وجه سيراي، وانزلقت حافة الكأس من بين أصابعها فاصطدمت بالمائدة.
أما مِهراز، فظل يحدق في الخط الأزرق كأنه يرى شيئًا عاد من قبر قديم.
رفع رائف عينيه بينهم، وانتقل ارتباكه من وجه إلى آخر.
قال الملك:
— اخرجوا جميعًا.
تردد الكاتب.
— التقارير، يا مولاي...
— اتركوها.
نهض الكاتب وقائد الحرس والخدم. أشار الملك إلى الجندي الواقف عند الباب، ثم أضاف:
— يبقى العامل في الغرفة المجاورة. لا يتحدث إليه أحد، ولا يغادر القصر حتى آذن بذلك.
اتسعت عينا رائف.
— يا مولاي، أنا لم أفعل...
قالت سيراي بهدوء:
— لم يتهمك أحد بشيء. أجب عن الأسئلة التي ستُطرح عليك، وستعود إلى عملك.
لم تُطمئنه كلماتها كثيرًا، لكنه انحنى وغادر بين جنديين. أُغلق الباب، ثم دار المفتاح في القفل.
بقي الثلاثة حول المائدة.
نظر الملك إلى مِهراز.
— قل إنها إضافة متأخرة.
لم يجب حافظ الأرشيف.
— قل إن حبرًا قديمًا ظهر بسبب الهواء أو الرطوبة.
ظل مِهراز صامتًا.
ضرب أردان الخاتم فوق الخشب.
— قل شيئًا.
رفع الرجل العجوز عينيه أخيرًا.
— عاد الطريق إلى رسم نفسه.
استدارت سيراي نحو الخريطة. كانت تعرف تلك العبارة. سمعتها أول مرة في الغرفة التي لا نوافذ لها، ليلة بلغت السادسة عشرة وأُدخلت إلى سر ورثة القسم. يومها جلس أبوها ومِهراز أمامها، وأقسماها على ألا تكرر ما تسمعه ولو بقيت آخر إنسان حي في إيفارا.

قالت:

— كان ينبغي ألا يحدث هذا في زمننا.

أجاب مِهراز:

— قال كل ملك سبق أباك الجملة نفسها.

قال أردان:

— انتظر أبي العلامة أربعين عامًا ولم تظهر. وانتظرها جدي قبله. ربما كانت النبوءة وصفًا لشيء وقع وانتهى، أو تحذيرًا أسيء فهمه.

مرر مِهراز إصبعه فوق الخط من دون أن يلمسه.

— الخط لم يكن هنا هذا الصباح، ثم ظهر. ما الذي بقي لنسيء فهمه؟

رفعت سيراي طرف الخريطة، فرأت في زاويتها شكلًا صغيرًا أفسده الحكّ المتعمد. بقيت منه سبعة رؤوس واضحة تحيط بمركز فارغ، وبين الرأس الأول والأخير أثر باهت لرأس ثامن أزيل بآلة حادة.

تركت الخريطة ببطء.

— إذا كانت هذه العلامة الأولى...

ولم تكمل.

لم تكن مضطرة إلى ذلك.

قال الملك بعد صمت:

— فهذا يعني أن صاحب العلامة موجود.

رد مِهراز:

— أو أنه بدأ يقترب.

مشى أردان نحو النافذة. في الأسفل كانت تيرافا تستيقظ؛ الباعة يفتحون الدكاكين، وطلاب المعابد يصعدون الأدراج الطويلة، وعربات الخبز تعبر الساحة أمام القصر. لم يكن أحد منهم يعرف أن خريطة ظهرت خلف جدار رطب، ولا أن ثلاثة أشخاص في غرفة صغيرة توقفوا عن التفكير في القنوات والرماح وأبواب المعابد.

سأل الملك:

— هل ستظهر العلامات في الممالك الأخرى؟

— إن كانت النصوص صحيحة، فلن تبقى الأسرار نائمة في مكان واحد.

قالت سيراي:

— وعندما يراها الآخرون، سيبحثون عنه.

استدار أردان إليهما.

— ونحن أيضًا.

طوى مِهراز الخريطة بعناية.

— لا نعرف عمّن نبحث.

— إذن نبحث عن كل ما لا ينبغي أن يكون موجودًا: طفل بلا نسب، مسافر بلا موطن، خريطة بلا ختم، أو سفينة تعود من طريق مغلق. ضاعفوا العيون في الموانئ، لكن من دون أوامر مكتوبة. ولا تذكروا النبوءة لأحد.

نظر إلى الباب الذي خرج منه رائف.

— ماذا عن العامل؟

قالت سيراي قبل مِهراز:

— إذا اختفى بعد دخوله القصر، فسيعرف كل من في الأرشيف أنه وجد شيئًا خطيرًا. دعه يعود عند المساء، وأخبروه أن الخريطة نسخة دينية قديمة أفسدتها الرطوبة.

نظر إليها أبوها لحظة، ثم أومأ.

أعاد مِهراز اللفافة إلى أنبوبها، لكن الخط الأزرق ظل ظاهرًا للحظة من خلال الشق قبل أن يغلق الغطاء.

وفي الخارج، رن الجرس الرابع.

استأنفت المدينة يومها كأن شيئًا لم يقع. فُتحت أبواب السوق، وامتلأت الساحات، وغادرت أولى العربات تيرافا محملة بالدقيق والزيت والرسائل. وفوق أبراج القصر حلّقت أسراب الطيور، ثم تفرقت في الجهات الأربع.



وعلى ساحل بعيد لا تذكره رسائل الملوك إلا عند حساب الضرائب، كانت قرية صغيرة تستيقظ على صوت ماعز وجد طريقه إلى سطح أحد البيوت.

مدّ الماعز رأسه من النافذة المفتوحة، وأخذ يمضغ طرف غطاء خشن ملقى فوق فتى نائم.

فتح الفتى عينيه، جذب الغطاء نحوه، وجذبه الماعز إلى الجهة الأخرى.

قال وهو لم يستيقظ تمامًا:

— اتركه... ابحث عن فطورك في بيت آخر.

جذبه الماعز مرة ثانية، فسقط الفتى من فراشه ومعه الغطاء.

وفي اللحظة نفسها جاء صوت أمه من أسفل الدرج:

— نائل! إذا كنت لا تزال نائمًا، فسأرسل الخبز إلى أوران مع الماعز!
جلس نائل فوق الأرض، وشعره يغطي نصف وجهه، ونظر إلى الحيوان الواقف عند النافذة.
قال له:
— أرأيت؟ حتى هي تثق بك أكثر مني.
جاء صوت أمه مرة أخرى:
— هل استيقظت أم أرسل الماعز ليرتدي ثيابك أيضًا؟
نهض نائل، وأبعد شعره عن عينيه، ثم أخرج رأسه من النافذة.
— استيقظت منذ زمن.
كانت أمه واقفة في الساحة الصغيرة خلف البيت، ترفع الأرغفة من فوق لوح خشبي وتضعها داخل سلة من القش. لم تنظر إليه، لكنها قالت:
— لا بد أن الزمن في غرفتك يسير بطريقة مختلفة عن بقية العالم.
— هذا محتمل.
— انزل.
ارتدى قميصه على عجل، ثم بحث عن حذائه تحت الفراش. وجد واحدًا، أما الآخر فكان الماعز قد سبقه إليه وحمله إلى طرف السطح.
مد نائل يده نحوه.
— أعطني إياه.
تراجع الماعز خطوة.
— لن آكلك. أريد حذائي فقط.
تراجع الحيوان مرة أخرى، ثم استدار وقفز إلى سطح البيت المجاور.
وصل نائل إلى الساحة بعد دقائق مرتديًا حذاءً واحدًا، بينما كانت أمه تغطي السلة بقطعة قماش بيضاء.
ناولته قطعة خبز صغيرة وقالت:
— كُل في الطريق.
نظر إلى السلة.
— قلت إنني سأحمل الخبز إلى أوران، ولم تقولي إن عليّ أن أذهب إليه جائعًا.
— القطعة في يدك تكفيك حتى تصل.
— إذا بقي منها شيء بعد أن أشم ما في السلة.

رفعت ليارا رأسها إليه. كان في عينيها ذلك الهدوء الذي يسبق عادة تكليفه بعمل إضافي، فأخذ نائل القطعة ووضعها في فمه قبل أن تمنحه فرصة للكلام.

قالت:

— أعطِ أوران أرغفته، ثم اذهب إلى الميناء واسأل العم هازم إن كان يحتاج إلى مساعدة في إصلاحِ الشباك.

— وعدتُ يامن أن أخرج معه إلى الصخور.

— تستطيع الصخور الانتظار.

— لكنها لا تبقى في مكانها عند المد.

— إذن انتظر حتى تعود.

حمل السلة، ثم توقف عند الباب.

— وإذا احتاج أوران إلى مساعدتي؟

— أوران يحتاج إلى ترتيب دكانه منذ ثلاثين عامًا، وقد قرر خلال تلك المدة أن الفوضى جزء من علم الخرائط. أعطه الخبز ولا تسمح له بإقناعك بأن حمل الصناديق تدريب على اكتشاف العالم.

ابتسم نائل.

— لكنه يقول إن كل رحلة عظيمة بدأت بصندوق.

— وكل ألم في الظهر بدأ بالطريقة نفسها.

خرج إلى الطريق قبل أن تجد له عملًا آخر.

كانت القرية قد استيقظت تمامًا. فُتحت النوافذ الخشبية، وانتشرت رائحة الخبز والسمك والدخان بين البيوت المتقاربة. جلس صيادون أمام أحد المخازن يصلحون شبكة واسعة، بينما كان طفلان يطاردان دجاجة سرقت قطعة فاكهة من السوق.

عبر نائل الساحة بخطوات سريعة. لوّح له بائع السمك من بعيد، ثم أشار إلى قدمه التي لا تحمل حذاء.

قال نائل:

— الموضة الجديدة وصلت إليّ قبلكم.

رد الرجل:

— إذا وصلت إلى القدم الأخرى، أخبرنا.

كان دكان أوران عند آخر الطريق، قريبًا من التلة المطلة على البحر. بدا من الخارج أصغر من البيوت المجاورة، لكن الداخل كان يمتد في غرف وممرات ضيقة أضافها العجوز واحدًا بعد آخر كلما ضاق المكان بصناديقه.

لم يكن فوق الباب اسم ولا علامة. علّق أوران بدلًا منه بوصلة قديمة، صدئت إبرتها وتوقفت منذ سنوات عن الإشارة إلى الشمال. وكان يقول لمن يسأله إن الرجل الذي يحتاج إلى لافتة ليجد رسّام خرائط، لن تنفعه الخريطة إذا دخل.

دفع نائل الباب بكتفه.

رن جرس صغير في الداخل، ثم سقط شيء معدني وتدحرج فوق الأرض.

قال نائل:

— أحضرت الخبز.

جاء صوت أوران من الغرفة الخلفية:

— ضعه بعيدًا عن الخرائط.

نظر نائل حوله. كانت الخرائط تغطي الطاولة والجدران والرفوف، وبعضها يتدلى من السقف.

— لا يوجد مكان بعيد عن الخرائط.

خرج أوران وهو يحمل عدسة صغيرة في يد وقطعة قماش في الأخرى. كان شعره الأبيض مربوطًا خلف رأسه، وثوبه البني يحمل بقع حبر أكثر مما يحمل خيوطًا سليمة.

أشار إلى كرسي قرب النافذة.

— ضعه هناك.

رفع نائل كومة من الأوراق عن الكرسي.

— وهذه؟

— على الصندوق.

كان الصندوق مغطى بلفافتين وبوصلة مكسورة.

— وأين أضع هذه؟

نظر أوران إليه بضيق.

— أعطني السلة.

أخذها منه ووضعها فوق الأرض.

قال نائل:

— أمي قالت ألا تضع الخبز قرب الخرائط.

— أمك لا تدير هذا الدكان.

— لهذا ما زال دكانها يسمح للناس بالمشي داخله.

أبعد أوران إحدى اللفافات بقدمه وصنع لنفسه طريقًا إلى الطاولة. تبعه نائل، وأخذ يتفحص الأدوات المنتشرة فوقها: مساطر من عظام مصقولة، قوارير حبر، أحجار صغيرة منقوشة، وبوصلات بأحجام مختلفة.

كانت هناك ورقة جديدة مثبتة تحت قطعة زجاج. لم تحمل أنهارًا أو مدنًا، بل خطوطًا متقاطعة تحيط بدائرة فارغة.

مد نائل إصبعه نحوها.

وضع أوران قطعة القماش فوق الورقة قبل أن يلمسها.

— ألم تقل إنك ستذهب إلى الميناء؟

— لم أقل أنا ذلك. قالت أمي.

— وهذا في العادة يعني أنك ستذهب.

تناول نائل بوصلة صغيرة من فوق الرف. كانت إبرتها ترتجف ولا تستقر على جهة.

— هذه مكسورة أيضًا.

أخذها أوران منه بسرعة أكبر مما توقع.

— لم أقل إنها للبيع.

— لم أقل إنني سأشتريها.

— وهذا ما يقلقني.

أعاد أوران البوصلة إلى الطاولة، لكن الإبرة تحركت فجأة نحو الشمال وتوقفت. حدق فيها لحظة، ثم رفع عينيه إلى البوصلة المعلقة فوق الباب.

كانت إبرتها الصدئة قد تحركت هي الأخرى.

لم ينتبه نائل إلى وجه العجوز. كان قد وجد في إحدى السلال كومة من الأوراق المهملة وبدأ يقلبها.

— هل أستطيع أخذ هذه؟

— لماذا؟

— أحتاج إلى أشرعة.

— أنت تحتاج إلى عمل.

— القارب أصبح جاهزًا تقريبًا.

— قلت ذلك عن القارب السابق.

— كان جاهزًا. البحر هو الذي لم يكن مستعدًا له.

سحب أوران الأوراق من يده، اختار منها ثلاثًا، ثم أعاد البقية إلى السلة.

— خذ هذه فقط. ولا تقترب من الصندوق الأسود.
نظر نائل إلى آخر الغرفة. كان الصندوق موضوعًا تحت رف منخفض، ومغلقًا بقفلين.
— لم أكن أعرف أن لديك صندوقًا أسود.
أغمض أوران عينيه لحظة، كأنه ندم على ذكره.
— والآن تعرف أنك لن تقترب منه.
أخذ نائل الأوراق الثلاث، ولفها داخل قميصه.
— إذا سألتني أمي، فقد حملت لك صندوقين ورتبت نصف الدكان.
— وإذا سألتني أمك، سأخبرها أنك أكلت أحد أرغفتي.
توقف نائل عند الباب.
— هل ستخبرها الحقيقة بهذه السهولة؟
نظر أوران إلى السلة، فوجد قطعة صغيرة مفقودة من أحد الأرغفة.
— اخرج.
ضحك نائل وقفز إلى الطريق قبل أن تصل إليه قطعة القماش التي رماها العجوز.
ظل أوران واقفًا حتى ابتعدت خطواته، ثم أغلق الباب ووضع العارضة الخشبية خلفه. عاد إلى الطاولة، وأخرج الورقة من تحت قطعة القماش.
كان الخط الذي يحيط بالدائرة الفارغة أكثر وضوحًا مما كان عليه عند الفجر.
فتح أحد الأدراج وأخرج مفتاحًا صغيرًا. اتجه إلى الصندوق الأسود، ثم توقف عندما سمع خشخشة خفيفة فوق رأسه.
نظر إلى البوصلة المعلقة عند الباب.
ظلت إبرتها تشير إلى الشمال.
وفي الساعة نفسها، عند الحدود الشمالية لمملكة رهفان، كان حارس وحيد يعبر الممر المحفور فوق الجدار الجليدي القديم.
توقف عندما شعر باهتزاز تحت قدميه.
ظن في البداية أن الريح هي التي تحرك الجسر، ثم سمع صوتًا عميقًا يأتي من داخل الجليد، صوتًا لم يسمعه أحد هناك منذ مئات السنين.
كان الجدار يتشقق.
تراجع الحارس خطوة، وارتفع طرف رمحه من غير قصد. لم يكن الصوت عاليًا، لكنه كان عميقًا بما يكفي ليشعر به تحت قدميه، كأن الجبل أطلق أنينًا ظل محبوسًا في جوفه زمنًا طويلًا.

ثبت عينيه على الشق الرفيع الممتد وسط الجليد. كان قد عبر هذا الموضع مئات المرات، في الليالي الصافية والعواصف التي تحجب الطريق، ولم ير الجدار يتغير قط. حتى في أشد فصول الصيف ظل سطحه أملس، أبيض مزرقًا، لا يعلق به غبار ولا تترك فيه المعاول أثرًا.

جاء الصوت ثانية.

امتد الشق إلى أعلى، ثم انحرف كغصن أسود داخل الجليد. تساقطت منه حبيبات صغيرة، أعقبها جزء بحجم قبضة اليد. ارتطم بالأرض وتفتت عند قدمي الحارس.

أراد أن ينادي رفيقه في برج المراقبة، لكنه لم يجد صوته.

انفصلت كتلة أخرى، أكبر هذه المرة، وسقطت وهي تدور على جانبها. اندفع الحارس إلى الخلف قبل أن ترتطم بالممر الضيق وتنفجر إلى شظايا لامعة. رفع ذراعه أمام وجهه، وحين أنزلها كان في الجدار ثقب أسود.

لم يكن خلفه جليد.

اقترب بحذر، وقد أمسك رمحه بكلتا يديه. خرج من الفتحة هواء دافئ لامس وجهه كأنفاس شيء نائم. اتسعت عيناه. لم تكن الحرارة قوية، لكنها كانت مستحيلة في ذلك المرتفع الذي يتجمد فيه الماء داخل القرب إذا تُرك ساعة واحدة خارج المعسكر.

رفع المصباح من حزامه ومده أمام الفتحة.

ظهر حجر أسود مقطوع الحواف، لا يشبه صخور الجبل الخشنة. وبعده انحدرت درجات ضيقة إلى مكان لم يصل إليه ضوء المصباح. كانت على أولها خطوط محفورة، بعضها مستقيم وبعضها ملتف حول الآخر، غطاها الجليد قرونًا وبقيت واضحة كأن اليد التي نقشتها رحلت في الصباح.

صدر من الأعماق صوت يشبه احتكاك حجر بحجر.

ترك الحارس رمحه يسقط.

ركض نحو برج المراقبة، ولم يلتفت حين بدأ الجزء المحيط بالفتحة ينهار خلفه.



وصل الخبر إلى حصن الشمال قبل طلوع الشمس. ولم يسمح قائد الحصن للرسول أن يستريح. أُعطي حصاناً آخر ورسالة مختومة بالشمع الرمادي، ثم أُرسل عبر الطريق الجبلي إلى هاروك. استغرق وصوله يومين.

في صباح اليوم الثالث كان الملك فاريك يقف في الساحة الداخلية للقصر، يتابع تبديل حرس البوابة. لم يكن يحب مشاهدة التدريبات من الشرفات؛ كان يقول إن أخطاء الجنود لا تظهر من فوق. ارتدى معطفًا داكنًا بلا تطريز، وتدلت من كتفه مشبكة فضية على هيئة ذئب مطأطئ الرأس.

توقفت الأميرة نيرفا إلى جواره وهي تشد قفازها الجلدي.

قالت وهي تراقب جنديًا أخطأ في تثبيت درعه:

— لو فعل ذلك عند حدود قاسران، لما وجد وقتًا ليصحح وقفته.

أجاب فاريك:

— لهذا يتعلم هنا، لا هناك.

— كان ينبغي أن يتعلم قبل أن يحمل شعار المملكة.

نظر إليها الملك، فرأى في عينيها ذلك الضيق الذي يعود كلما ورد ذكر الحدود الجنوبية.

— لم تصلنا تقارير جديدة عن قاسران منذ عشرة أيام.

قالت نيرفا:

— وهذا وحده تقرير سيئ.

قبل أن يجيبها، فُتح باب الساحة ودخل قائد الحرس مسرعًا. توقف على بعد خطوات، وانحنى وهو يحمل بين يديه أنبوبًا جلديًا مغطى بغبار الطريق.

— رسالة عاجلة من حصن الشمال، يا مولاي.

أخذها فاريك، وكسر ختمها. لم يتغير وجهه وهو يقرأ السطر الأول، لكن أصابعه ثبتت على الرقعة ولم تتحرك.

لاحظت نيرفا ذلك.

— ماذا حدث؟

أعاد قراءة الرسالة حتى نهايتها، ثم طواها ببطء.

— الجدار الجليدي انشق.

ساد الصمت بينهما، فيما استمر الجنود في الطرف الآخر من الساحة بتبديل مواقعهم، غير مدركين أن شيئًا ظل ثابتًا منذ ليلة الانكسار قد تغير.

قالت نيرفا:

— أي جزء منه؟

— الممر الشرقي، تحت برج المراقبة القديم.
— انهيار طبيعي؟
رفع فاريك نظره إليها.
لم تعد السؤال.
أمر الملك قائد الحرس بإيقاف التدريب وإخلاء الساحة، ثم قال:
— أحضر أوسان إلى قاعة الشتاء. ولا تخبره بسبب الاستدعاء.
قال قائد الحرس:
— إنه في دار السجلات، يا مولاي.
— إذن سيصل سريعًا.
حين دخلا قاعة الشتاء، كانت النار مشتعلة في الموقد الحجري رغم اعتدال الجو. لم تكن القاعة تُستخدم لاستقبال السفراء ولا لعقد المجالس العامة. جدرانها عارية إلا من سبعة مسامير حديدية قديمة، بقي أحدها بلا راية منذ أن اعتلى فاريك العرش.
وصل أوسان بعد قليل، يسير مستندًا إلى عصا قصيرة. كان نحيلًا، منحني الظهر، وقد تلونت أطراف أصابعه بالحبر. توقف أمام الملك، ثم نظر إلى نيرفا.
— حين يستدعيني الملك وقائدة حصونه معًا، أعرف أن أحدًا خالف قسمًا كبيرًا.
قال فاريك:
— هذه المرة لم يخالفه أحد.
مد إليه الرسالة.
قرأها أوسان واقفًا. ومع كل سطر كانت يده تنخفض قليلًا، حتى كادت الرقعة تلامس طرف عصاه. وعندما انتهى، لم يطوها.
قالت نيرفا:
— أنت تعرف شيئًا.
رفع الشيخ رأسه.
— أعرف كلمات لم أكن أرجو أن أعيش حتى أسمع صداها.
تقدم نحو الموقد، وبقي لحظة يراقب النار. ثم قال بصوت خافت:
— حين ينكسر الجدار الذي لم تبنه يد، ويظهر الطريق الذي لا تصله الشمس...
أكمل فاريك:
— يكون حامل الخريطة قد بدأ مسيره.

التفتت نيرفا إلى أخيها. لم يظهر الذهول على وجهها؛ ظهر الغضب أولًا، كأن النبوءة ارتكبت إهانة شخصية بإصرارها على البقاء حية.

— قلت لي إن هذه الكلمات من أناشيد الحدادين القدماء.

قال الملك:

— قلت لك ما كان يجب أن يعرفه قادة الحصون.

— وأنا لست قائدة حصن فحسب.

— لهذا أنت هنا الآن.

وضعت نيرفا كفيها على الطاولة الحجرية.

— إذا وصل الخبر إلى الجنود، فسيصل إلى التجار. ومن التجار سيصل إلى قاسران قبل أن تصل فرقة منا إلى الجدار.

قال أوسان:

— الخطر ليس في وصول الخبر وحده.

نظر إليه فاريك.

أشار الشيخ إلى السطر الذي يصف الحجارة السوداء والدرجات المنحدرة.

— هذا الطريق أقدم من المملكة. وربما أقدم من الجدار نفسه. بعض العلامات التي وصفها الحارس وردت في ألواح القسم الأول.

— هل تستطيع قراءتها؟ سألت نيرفا.

— إن كانت كما وصفها، أستطيع قراءة بعضها. أما البقية فقد كُشطت من السجلات منذ زمن لا يعرفه إلا الموتى.

أخذ فاريك الرسالة من يده، ثم توجه إلى النافذة الضيقة المطلة على أسطح هاروك الرمادية. كانت المدينة تبدأ يومها بصورة عادية؛ أبواب الدكاكين تُفتح، والدخان يرتفع من المداخن، وعربات الخشب تتحرك نحو السوق.

قال من دون أن يلتفت:

— يُغلق الممر الشرقي. لا يدخل إليه جندي ولا عامل منجم، ولا يقترب أحد من الفتحة حتى تصلي أنتِ.

رفعت نيرفا حاجبها.

— أنا؟

— ستغادرين قبل الغروب ومعك اثنا عشر فارسًا ممن نثقين بهم. بلا رايات، وبلا إعلان من القصر.

قال أوسان:

— سأرافقها.
التفت الملك إليه.
— الطريق قاسٍ.
— والطريق الذي ظهر تحت الجليد أقسى من أن يُقرأ على يد جندي مستعجل.
هز فاريك رأسه موافقًا، ثم أضاف:
— ضاعفوا المراقبة على حدود قاسران، ولكن لا تحركوا القوات. إن كانوا قد رأوا علامة تخصهم، فسيراقبوننا كما نراقبهم.
قالت نيرفا:
— وإن لم يروا شيئًا؟
أجاب الملك:
— سيتحركون حين يعرفون أننا رأينا.
اتجهت نحو الباب، ثم توقفت.
— عندما أصل إلى الجدار، هل تريد مني أن أفتح الطريق؟
نظر فاريك إلى أوسان، وبقي الشيخ صامتًا.
قال الملك:
— أريدك أن تعرفي إلى أين يقود.
— هذا ليس جوابًا.
— لأنه لا يوجد جواب بعد.
خرجت نيرفا، وتبعها قائد الحرس لتنفيذ الأوامر. بقي أوسان أمام النار، يفرك بإبهامه بقعة حبر على سبابته.
قال فاريك:
— كنت تظن أن الجدار لن ينكسر في حياتك.
— كنت آمل ذلك.
— وأنا كنت أظن أن الحكايات القديمة تبقى خطرة ما دام الناس يصدقونها فقط.
رفع أوسان عينيه إليه.
— الحكايات القديمة لا تحتاج إلى من يصدقها، يا مولاي. يكفي أن يحين وقتها.
في الشمال، كان الهواء الدافئ لا يزال يخرج من الشق المفتوح.
وكان الجليد يذوب للمرة الأولى حول باب لم يعرف أحد أنه موجود.



وعلى الجهة الأخرى من الحدود، حيث تنتهي جبال رهفان وتبدأ هضاب قاسران الصخرية، لم يكن أحد ينتظر خبرًا من الشمال.

كانت العاصمة دمهار تستيقظ تحت سماء خالية من الغيوم. ارتفعت أسوارها الحمراء فوق الأرض الجافة، وازدحمت بواباتها بعربات الحديد والحبوب القادمة من المقاطعات الشرقية. في الأسواق، تنازع التجار على أماكن الظل، ودق الحدادون مطارقهم قبل أن يشتد حر النهار، بينما تحركت سرايا الحرس في الشوارع وفق مواعيد لا تتأخر ولا تتقدم.

داخل القصر، جلست الملكة ميرافا أمام مائدة طويلة غُطيت بلفائف الحسابات.

لم يكن مجلسًا للحرب، بل اجتماعًا أسبوعيًا لمراجعة مخازن المملكة. جلس إلى يسارها ثلاثة من مسؤولي الضرائب، وإلى يمينها قائد حرس العاصمة، بينما وقف كاتب شاب عند طرف المائدة يسجل الأرقام التي تُلقى أمامه.

قال مسؤول المخازن:

— تكفي الحبوب في المقاطعات الشمالية لخمسة أشهر إذا بقي الاستهلاك على حاله.

سألته ميرافا:

— وإذا أُغلقت طرق التجارة؟

تردد الرجل قبل أن يجيب:

— ثلاثة أشهر، وربما أقل.

— لماذا؟

قلب بعض الرقاع أمامه.

— الحامية الغربية أخذت حصتها مبكرًا هذا العام، وأرسلنا أربعين عربة إلى القرى التي تضررت آبارها.

قالت الملكة:

— الحامية الغربية لم تطلب حبوبًا إضافية.

خفض الرجل عينيه.

— قائدها قال إن الطلب قد يتأخر في الطريق، فرأى أن يحتاط.

وضعت ميرافا يدها فوق أحد الدفاتر.

— حين يبدأ القادة بالاحتياط من دون أوامر، تنتهي المملكة وهي تملك عشرين جيشًا ولا تملك جيشًا واحدًا.

نظرت إلى الكاتب.

— يُنقل قائد الحامية الغربية إلى دمهار لمراجعة الحسابات. ويتولى نائبه القيادة حتى إشعار آخر.

رفع مسؤول المخازن رأسه.

— يا مولاتي، قد يُفهم استدعاؤه على أنه عقوبة.
— هذا لأنه عقوبة.
سجل الكاتب الأمر.
كان سايرن واقفًا عند النافذة، يراقب ساحة القصر من خلف ستارة خفيفة. لم يرتد ثياب المجلس، بل معطف سفر بنيًا لا يحمل شارة العائلة الحاكمة. وصل إلى العاصمة قبل ساعة واحدة، ولم يسأل أحد أين أمضى الأيام السابقة.
قال من مكانه:
— نائب القائد أكثر طموحًا منه.
أجابته ميرافا:
— الطموح لا يزعجني ما دام صاحبه يعرف من يملك السلم الذي يصعد عليه.
ابتسم مسؤول الضرائب الأول ظنًا منه أن الملكة تمزح، لكنه أخفى ابتسامته عندما وجد أن أحدًا غيره لم يفعل.
انتقلت ميرافا إلى الرقعة التالية.
— وعربات الحديد؟
قال المسؤول الثاني:
— وصلت منها اثنتان وثلاثون هذا الأسبوع.
— كان ينبغي أن تصل أربعون.
— انهار جسر صغير على الطريق الشرقي.
رفع سايرن الستارة قليلًا، وقال:
— الجسر لم ينهَر. أُحرق.
توجهت الأنظار إليه.
سأل قائد الحرس:
— ومن أحرقه؟
ترك سايرن الستارة تعود إلى مكانها.
— رجال ادعوا أنهم لصوص، ثم أخذوا ثمانية أحمال من الحديد وتركوا الطعام والخيول.
قالت ميرافا:
— اللص الذي يترك حصانًا ويأخذ الحديد لا يعيش من السرقة.
— لهذا لا أظن أنهم لصوصًا.
— رهفان؟

هز سايرن رأسه.
— لا. أهل رهفان يتركون آثارًا أقل، ويأخذون الخيول قبل الحديد.
رفعت الملكة أحد الأختام وقلبته بين أصابعها.
— ابحث عمّن اشترى ثمانية أحمال من غير أن يمر بالسوق. لا تعتقل أحدًا حتى نعرف إلى أين ستصل.
انحنى سايرن قليلًا.
كان الاجتماع على وشك الانتقال إلى حسابات الضرائب حين سُمع اضطراب خلف الباب. ارتفعت أصوات في الرواق، ثم جاء طرق سريع لم ينتظر صاحبه الإذن كاملًا قبل أن يُفتح الباب.
دخل قائد خدم القصر، يتبعه رجل تغطي الأتربة ثوبه وذراعيه. كان الأخير يلهث، وعلى جبينه خدش ينزف بخفة.
قطب قائد الحرس حاجبيه.
— كيف دخل بهذا الشكل؟
قال رئيس الخدم:
— جاء من الساحة القديمة، يا سيدي. قال إن الأمر يتعلق بالقصر نفسه.
نظرت ميرافا إلى الرجل.
— اسمك؟
— هارون، يا مولاتي. أنا مشرف البنّائين.
— وما الذي حدث للقصر؟
فتح الرجل فمه، لكنه نظر إلى الحاضرين حول المائدة ولم يعرف كيف يصف ما رآه.
قالت الملكة:
— إذا كنت قد دخلت عليّ مغطى بالتراب، فلا تجعلني أنتظر حتى يجف.
ابتلع هارون ريقه.
— الأرض انهارت في ساحة القسم.
تبادل مسؤولو الضرائب النظرات.
أما سايرن، فقد استدار عن النافذة للمرة الأولى.
سألت ميرافا:
— أي جزء منها؟
— الوسط، يا مولاتي. عند القرص الحجري.

تحرك قائد الحرس في مقعده.
— ذلك الحجر لم يُمس منذ تأسيس القصر.
— لم نمسه، سيدي. كنا نصلح القناة الممتدة قرب الجدار. سمعنا صوتًا تحت الأرض، ثم انشق القرص وسقط.
قالت الملكة:
— هل أُصيب أحد؟
— عامل واحد سقط عند الحافة، لكنه حي. سحبناه قبل أن تنهار بقية الحجارة.
— وما تحت القرص؟
نظر الرجل إليها بعينين مضطربتين.
— لا نعرف.
— بئر؟
— لو كانت بئرًا لرأينا قاعها.
وقف سايرن أمامه.
— ماذا رأيتم؟
— حفرة، سيدي. دائرية كأنها حُفرت بأداة، لكن جدرانها سوداء وملساء. أنزلنا مصباحًا بحبل طويل، ولم يبلغ القاع.
— ربما القاع أعمق من الحبل.
— ربما.
توقف هارون، ثم أضاف:
— لكن المصباح عاد مطفأ، وكان الحبل باردًا كأنه أُخرج من الثلج.
ساد صمت قصير.
قالت ميرافا لمسؤوليها:
— انتهى الاجتماع. تُرسل الحسابات الباقية إلى جناحي قبل المساء.
نهض الرجال وجمعوا رقاعهم، بينما أشار قائد الحرس إلى هارون ليتبعهم. وقبل أن يبلغ الباب، قالت الملكة:
— أنت تبقى.
توقف الرجل.
قالت لقائد الحرس:

— أخلِ الساحة القديمة، وأغلق الممرات المؤدية إليها. من يسأل، قُل له إن قناة الماء انهارت وأضعفت الأرض.

— أمرك يا مولاتي.

— وأحضر إيلدار.

تغير وجه قائد الحرس للحظة، لكنه انحنى وغادر.

لاحظ هارون النظرة المتبادلة بين الملكة وأخيها.

قال بتردد:

— يا مولاتي، هناك شيء آخر.

— تكلم.

— خرج رماد من الحفرة.

سأل سايرن:

— هل رأيتم نارًا؟

— لا، سيدي. لم تكن هناك رائحة احتراق ولا دخان. صعد الرماد ببطء، كأن ريحًا تدفعه من الأسفل، لكنه لم ينتشر في الساحة.

— أين ذهب؟

مسح هارون العرق عن جبينه.

— تجمع حول الحفرة.

غادرت ميرافا الغرفة من دون أن تأمره بمتابعتها. لحق بها سايرن، ثم أسرع هارون خلفهما حين أشار إليه رئيس الخدم.

كانت ساحة القسم تقع في الجناح الأقدم من القصر. أحاطت بها أعمدة قصيرة تآكلت نقوشها، وظلت مغلقة معظم العام إلا أمام البنّائين والخدم. لم تُقم فيها احتفالات، ولم يعرف سكان دمهار سبب تسميتها. كان المرشدون يقولون إنها المكان الذي أقسم فيه مؤسس قاسران على حماية المملكة، ثم يمرون سريعًا إلى القاعات الأحدث والأكثر جمالًا.

عند وصول الملكة، كان الحرس يدفعون آخر العمال نحو الممر الخارجي. تُركت أدواتهم قرب الجدار، وبقيت عربة صغيرة مائلة بعدما انكسرت إحدى عجلاتها.

أما القرص الحجري في وسط الساحة، فقد اختفى.

اقتربت ميرافا من الحفرة حتى بلغ طرف ثوبها أول الشقوق. مد سايرن ذراعه أمامها، لكنها تجاوزته وتوقفت عند الحافة.

لم تستطع رؤية القاع.

كانت جدران الحفرة سوداء، لا تشبه التربة ولا صخور دمهار الحمراء. بدت ملساء تمامًا، تنزل في دائرة منتظمة إلى ظلام ابتلع ضوء النهار بعد أمتار قليلة.

قال سايرن لهارون:

— أين الرماد؟

أشار الرجل إلى الأرض.

في البداية لم ير سايرن سوى غبار رمادي حول الحفرة. ثم انحنى، وأبعد بيده بعض التراب. ظهرت تحته خطوط دقيقة.

تقدم على امتداد الحافة، كاشفًا المزيد منها. لم يكن الرماد متجمعًا بعشوائية، بل استقر داخل نقوش قديمة ظلت مخفية تحت طبقة من الحجر والتراب. ظهرت أشكال متجاورة، لكل واحد منها قاعدة وثلاثة نتوءات في أعلاه.

قال هارون:

— ظنناها تيجانًا.

لم تجبه الملكة.

كان عددها سبعة.

انتظمت حول الحفرة كأنها تحرسها، أو كأن الحفرة نفسها كانت يومًا في مركزها. وبين التاج الأول والأخير بقي فراغ واسع لا يحمل شيئًا.

وصل إيلدار يتبعه جنديان. كان قد ارتدى عباءته على عجل، وبقي أحد أزرارها مفتوحًا عند كتفه. بدا أكبر من سنه وهو يعبر الساحة مستندًا إلى عصا سوداء، لكن خطواته تسارعت عندما رأى الحفرة.

توقف بعيدًا عنها.

قالت ميرافا:

— اقترب.

لم يتحرك.

— سمعتك، قال سايرن.

أجاب إيلدار وهو يحدق في الأرض:

— ليست المسافة ما يمنعني.

أشارت الملكة إلى هارون.

— أخبره بما رأيت.

روى البنّاء ما حدث، منذ الصوت الأول حتى عودة المصباح والحبل البارد. ظل إيلدار صامتًا، ثم تقدم ووضع عصاه قرب أحد التيجان السبعة.

قال:

— أبعدوا التراب عن الفراغ.

أمر سايرن هارون بذلك. جثا الرجل واستخدم قطعة خشب صغيرة حتى لا يلمس النقش بيده. أزاح التراب ببطء، ولم يجد تحته سوى الحجر.

قال:

— لا يوجد شيء.

رد إيلدار:

— تابع.

واصل هارون الحك، ثم توقف عندما تحركت ذرات رمادية عند حافة الحفرة.

ارتفع خيط رفيع من الرماد الأسود.

لم تأتِ معه حرارة ولا دخان. صعد في الهواء حتى بلغ مستوى ركبتي الملكة، ثم انحنى كأنه وجد طريقًا لا يراه أحد. انسابت الذرات فوق الحجر ودخلت الفراغ بين التاجين.

تراجع هارون مذعورًا.

أخذ الرماد يرسم خطًا صغيرًا، ثم خطًا ثانيًا وثالثًا. وبعد لحظات ظهر تاج ثامن، أغمق من التيجان المحيطة به.

فقد وجه إيلدار لونه.

ثبت سايرن عينيه على النقش الجديد، ثم نظر إلى أخته. لم تتراجع ميرافا، لكن يدها انغلقت ببطء حول الخاتم في إصبعها.

قالت:

— أغلقوا أبواب الساحة.

كان قائد الحرس واقفًا في الممر، فأصدر أوامره فورًا. خرج الجنود، ثم أُغلقت الأبواب الثقيلة من الداخل.

نظرت الملكة إلى هارون.

— كم عاملًا رأى هذا؟

— ستة، يا مولاتي.

— ستعود إليهم وتخبرهم أنكم وجدتم بئرًا قديمة انهار غطاؤها. من يذكر الرماد أو النقوش سيُتهم بنشر الخوف داخل العاصمة.

ارتجف الرجل.

قالت ميرافا:

— افعل ما أمرتك به، ولن يحدث لك شيء.

انحنى هارون وغادر بصحبة جندي.
بقيت الملكة وسايرن وإيلدار وحدهم أمام الحفرة، بينما وقف قائد الحرس بعيدًا عند الباب لا يسمع ما يقولونه.
سأل سايرن:
— هل تعرف هذه العلامة؟
قال الشيخ:
— أعرفها منذ كنت أصغر منك.
— ولم ترها من قبل؟
— لو رأيتها من قبل، لما بقيت المملكة كما تعرفها.
دارت ميرافا حول الحفرة ببطء.
— قل الكلمات.
خفض إيلدار رأسه.
— ليست كلمات تُقال في ساحة مفتوحة.
— الساحة مغلقة.
— لكنها ليست آمنة.
توقفت الملكة أمامه.
— الحجر الذي أخفى هذا قرونًا انهار، والرماد يرسم تاجًا مُحي من النقوش، ثم تحدثني عن أمان الساحة؟
رفع إيلدار عينيه إليها. بدا الخوف فيهما، لكنه لم يكن خوف رجل على حياته.
قال بصوت منخفض:
— حين تنفتح الأرض التي أُقسم ألا تُفتح، ويصعد الرماد من غير نار، يعرف السابع أن الثامن قد وجد طريقه.
نظر سايرن إلى التيجان.
— الثامن.
لم يجب الشيخ.
قالت ميرافا:
— كنت تقول إن الجزء الأخير يمكن أن يعني شخصًا أو مكانًا.
— ما زلت أقول ذلك.

— لا. كنت تقوله حين كانت الحفرة مغلقة والتاج مطموسًا. أما الآن، فأريد ما تعرفه، لا ما كنت تستعمله لتهدئة الملوك.

ضرب إيلدار طرف عصاه بالأرض.

— النبوءة ناقصة. كل مملكة حفظت جزءًا منها، ولا يملك أحد النص كاملًا.

— لكن الأسر السبع تعرف ما يكفي لتخاف.

— الخوف هو ما جعلها تخفيه.

قال سايرن:

— أو ما جعلها تستعد له.

نظر إلى الملكة.

— انقطعت أخبارنا من رهفان منذ عشرة أيام كما أمرتِ. لكن أحد رجالنا رأى رسولًا يدخل هاروك عند الفجر قبل يومين. جاء من حصن الشمال، وخرجت بعده أوامر أرسلت بلا أختام ملكية.

سألته ميرافا:

— إلى أين؟

— إلى الحصون الحدودية، وإلى دار السجلات.

تحركت عينا إيلدار نحو الحفرة.

قال سايرن:

— إن كانوا قد رأوا علامتهم، فسيحاولون إخفاءها.

— وكذلك إيفارا، قالت الملكة.

— موانئ إيفارا مفتوحة، والأخبار فيها أكثر صعوبة في الدفن. أستطيع إرسال رجال قبل حلول الليل.

قال إيلدار:

— لا ينبغي أن ترسلي أحدًا.

التفتا إليه.

تابع الشيخ:

— إن بدأت العلامات في الظهور، فكل حركة نقوم بها ستجعل الآخرين يتحركون. سبع ممالك تخشى الشيء نفسه، وكل واحدة منها ستظن أن الأخرى وجدته قبلها. يكفي خطأ واحد لتبدأ حرب لا يعرف الناس سببها.

قالت ميرافا:

— الحروب لا تبدأ لأن الملوك يتحركون. تبدأ لأن أحدهم يتحرك متأخرًا.

— هذه ليست أرضًا متنازعًا عليها ولا منجم حديد.
— لا. إنها قوة تستطيع إعادة أرض مُحيت من العالم.
أجاب إيلدار:
— أو محو ما بقي منه.
استقر الصمت بينهم، بينما ارتفع من الحفرة صوت خافت كتنفس بعيد.
اقترب الشيخ من الملكة، وخفض صوته أكثر.
— إذا كان حامل الخريطة قد ظهر فعلًا، فعلينا أن نجده قبل الآخرين.
قال سايرن:
— لن نختلف في ذلك.
نظر إيلدار إليه، ثم أعاد بصره إلى ميرافا.
— وأن نقتله.
لم يتغير وجه الملكة.
واصل الشيخ:
— لا نعرف من يكون ولا ماذا يريد، لكن ظهوره يعيد فتح أمر دُفن قبل مئات السنين. إذا بلغ المملكة المخفية، فلن تبقى الحدود كما هي. وربما لن تبقى الممالك السبع نفسها.
قالت ميرافا:
— أتطلب مني أن أقتل شخصًا يستطيع إعادة أرض أزالتها سبعة عروش؟
— أطلب منك أن تمنعيه من استعمال ذلك.
— وأنا أريد أن أعرف كيف يفعله.
— بعض الأسرار لا تُمتلك.
نظرت الملكة إلى التاج الثامن.
— كل سر عرفه الناس امتلكه أحد قبلهم.
ابتعدت عن الحفرة، ثم خاطبت سايرن:
— أرسل رجالًا إلى إيفارا، ورجلين إلى هاروك. لا أريد تقارير عن الجيوش فقط. أريد معرفة من يدخل القصور، ومن يغادرها، وما الذي يُنقل ليلًا بدل النهار.
— والحدود؟
— تبدأ الحامية الجنوبية تدريباتها الشتوية مبكرًا.
رفع سايرن حاجبه.
— نحن في آخر الصيف.

— لهذا لن يتوقع أحد أن تكون استعدادًا للحرب.
ابتسم ابتسامة خفيفة.
— وعدد الجنود؟
— العدد المعتاد في السجلات. أما في الميدان، فضاعفه.
قال إيلدار:
— إذا علمت رهفان بذلك، فستحرك قواتها.
— أريدها أن تنظر إلى الحدود، لا إلى الطرق التي سيمر منها رجال سايرن.
ثم أشارت إلى الحفرة.
— قبل حلول المساء، أريد منصة وحبالًا تكفي لإنزال عشرة رجال.
قال الشيخ بسرعة:
— لا تعرفين ما يوجد في الأسفل.
— لهذا سننزل.
— قد لا يعودون.
— إذن سيربطون أولهم بحبل جيد.
تقدم إيلدار خطوة.
— اسمعيني يا ميرافا. ما أُغلق تحت هذه الساحة لم يغلقه البناؤون، ولم يُترك لنا كي نفتحه عندما نشعر بالفضول.
نظرت إليه الملكة طويلًا.
لم يكن كثيرون في قاسران يجرؤون على مناداتها باسمها، لكن إيلدار فعل ذلك منذ كانت طفلة تقف أمام باب غرفته وتسأله لماذا مُنعت من دخول الأرشيف السفلي.
قالت:
— طوال عمري أخبرتموني أن قاسران ورثت قسمًا عظيمًا، ثم منعتموني من معرفة ما يحرسه ذلك القسم. الآن انفتح الباب وحده، وتريد مني أن أشيح بوجهي.
— أريدك أن تفهمي الثمن قبل أن تدفعيه.
— الثمن يدفعه من يصل متأخرًا.
اتجهت نحو باب الساحة، ثم توقفت إلى جانب سايرن.
— ابحث عن حامل الخريطة، لكن لا ترسل صورته ولا وصفه في رسائل مكتوبة.
— وإذا وجدناه؟
نظرت ميرافا إلى الحفرة.

كان الرماد لا يزال يتحرك فوق الحجر، يملأ خطوط التاج الثامن ويجعله أكثر وضوحًا من التيجان السبعة القديمة.

قالت:

— إذا كان يستطيع إعادة أرض مُحيت من العالم، فلن أقتله.

رفع إيلدار رأسه إليها.

أضافت الملكة:

— سأجعله يعيد رسم العالم كما أريده.

خرجت من الساحة، وتبعها سايرن.

بقي إيلدار وحده عند الحافة. أنصت إلى ذلك الصوت الصاعد من الأعماق، ثم نظر إلى التاج الجديد.

وبعد لحظات، تحرك الرماد مرة أخرى.

خرج من قاعدة التاج الثامن خط رفيع، أخذ يمتد فوق الحجر ببطء، متجهًا نحو الشمال.

وفي القرية، كان نائل يحاول إقناع العم هازم بأن إصلاح شباك الصيد لا يحتاج إلى حذاءين.

جلس الصياد العجوز فوق صندوق مقلوب قرب الميناء، وبين ركبتيه شبكة واسعة تشابكت خيوطها حول قطع من الخشب والأعشاب البحرية. رفع عينيه إلى قدم نائل الحافية، ثم نظر إلى القدم الأخرى التي ما زالت ترتدي حذاءها.

— لم أقل إن الشبكة تحتاج إلى حذاءين. قلت إن قدمك تحتاج إليهما.

أمسك نائل طرف الشبكة وجلس على الرصيف.

— القدم الثانية أكثر خبرة في الأرض.

— والأولى؟

— لا تزال تتعلم.

كان يامن جالسًا فوق قارب صغير مرفوع إلى اليابسة، يقضم تفاحة ويراقبهما. أشار إلى قدم نائل وقال:

— رأيت الماعز فوق سطح بيتنا وفي فمه شيء يشبه حذاءك.

رد نائل:

— ليس حذائي.

— كان فيه ثقب عند الإصبع.

نظر نائل إلى حذائه الوحيد، وكان يحمل ثقبًا مماثلًا.

— لهذا أعرف أنه ليس حذائي. لا يمكن أن أملك حذاءين بالثقب نفسه.

ضحك يامن، بينما هز العم هازم رأسه واستمر في فك عقد الشبكة.
كان الميناء صغيرًا، لا يتسع إلا لقوارب القرية وبعض السفن التجارية التي تتوقف للحصول على الماء والطعام. امتد الرصيف الحجري داخل الخليج مثل إصبع قصيرة، وعلى جانبيه تمايلت القوارب مع حركة الموج.
ناول هازم نائل إبرة خشبية عريضة.
— أصلح هذا الجزء.
أخذها نائل وحدق في الخيوط المقطوعة.
— لم أفعل ذلك من قبل.
— لهذا ستتعلمه.
— وإذا أفسدتها؟
— سأعطيك شبكة أخرى حتى تتعلم.
— وكم شبكة لديك؟
— أكثر مما لديك من أعذار.
بدأ نائل يمرر الخيط كما رآه يفعل. كانت عقدته الأولى واسعة، والثانية أشد من اللازم، أما الثالثة فبدت مقبولة إذا نظر إليها المرء من مسافة بعيدة.
راقبه هازم لحظة، ثم مد يده وفك ما صنعه.
— العقدة الجيدة تمسك السمك، ولا تخنق الشبكة.
قال نائل:
— السمك نفسه لا يعرف الفرق.
— الصياد يعرفه عندما تتزق شبكته في البحر.
جلس يامن إلى جوارهما، وألقى قلب التفاحة في الماء.
— قلت إننا سنذهب إلى الصخور.
قال نائل:
— سنذهب.
أشار هازم إلى الشبكة الممدودة بينهما.
— بعد أن تنتهيا من هذه.
اتسعت عينا يامن.
— أنا لم أقل إنني سأساعد.
رد الصياد:

— جلست قريبًا بما يكفي لأسمعك، وهذا في الميناء يُعد موافقة.
ناولَه إبرة ثانية.
عملا تحت الشمس حتى بدأت أصابعهما تؤلمهما. كان هازم يصلح ثلاث عقد في الوقت الذي يحتاج فيه نائل إلى إصلاح واحدة، لكنه توقف بعد فترة عن فك ما يصنعه.
عند الظهيرة اقترب قارب صيد من مدخل الخليج. كان شراعه مطويًا، ورجلان يجدفان به بصعوبة بينما وقف ثالث عند مقدمته يلوح بقطعة قماش.
نهض هازم.
— إنهم يعودون مبكرًا.
تجمع بعض الصيادين عند طرف الرصيف. وحين اقترب القارب، ظهر أن شباكه الخلفية كانت فارغة وممزقة من جانبها، وأن الماء تجمع في قاعه حتى بلغ كعوب الرجال.
صاح أحدهم:
— اصطدمنا بالصخور الغريبة!
قال هازم:
— الصخور الغريبة ظاهرة حتى للأطفال.
أجاب الرجل:
— لم تكن التي نعرفها. انحرف التيار بالقارب نحوها.
رُبط الحبل، وساعدهم الواقفون على سحب القارب إلى جانب الرصيف. انحنى هازم ليتفحص الشق في هيكله.
قال الصياد:
— تغير التيار منذ الصباح. رمينا الشبكة قرب الخليج الصغير، فوجدنا الماء يسحبها نحو الشمال.
قال رجل آخر:
— لا يتحول التيار بهذه السرعة من غير عاصفة.
نظروا إلى البحر. كانت السماء صافية، والموج هادئًا، ولا شيء في الأفق يدل على تغير الطقس.
اقترب نائل من حافة الرصيف.
كانت قطع الأعشاب وقشور الخشب تطفو قرب القوارب. راقبها تتحرك، ثم انتقل إلى الجانب الآخر من الرصيف. التقط حجرًا صغيرًا وألقاه في الماء، وظل يتابع الدوائر التي اتسعت حوله.
سأله يامن:
— ماذا تفعل؟
— أنظر إلى الماء.

— نحن جميعًا ننظر إليه.
— أنتم تنظرون إلى سطحه.
مشى نائل حتى نهاية الرصيف، ثم عاد مسرعًا إلى الشبكة. أخذ واحدة من الأوراق التي أعطاه إياها أوران، وبسطها فوق صندوق السمك.
قال هازم:
— لا تقل إنك ستصلح القارب بورقة.
— لا. سأرسم المكان الذي انكسر فيه.
أخذ قطعة فحم من قرب موقد صغير، ورسم خطًا منحنيا يمثل الساحل. أضاف الرصيف والخليج والصخور الغربية، ثم رسم خطوطًا قصيرة حولها.
اقترب الصياد صاحب القارب.
— الصخور ليست بهذا القرب من المدخل.
— التي تعرفونها ليست قريبة.
— لا توجد صخور أخرى.
سأله نائل:
— أين تمزقت الشبكة؟
أشار الرجل إلى موضع في الرسم.
— هنا تقريبًا.
— وأين بدأ القارب ينحرف؟
أشار إلى موضع أبعد.
رسم نائل خطًا يمتد بين المكانين، ثم أضاف خطًا ثانيًا يأتي من الجنوب ويلتف قرب الصخور.
قال هازم:
— التيار المعتاد يمر من الجهة الأخرى.
— أعرف.
— إذن لماذا رسمته هكذا؟
— لأن الأعشاب دخلت الميناء من هنا، لكنها خرجت من هناك.
أشار إلى جانبي الرصيف، ثم رسم دائرة صغيرة في الماء.
— هناك تياران. أحدهما فوق الآخر، أو بجانبه. القارب دخل بينهما، فدار قبل أن يشعروا.
نظر الصيادون إلى الورقة. لم يقتنع بعضهم، لكن هازم أخذها واقترب من حافة الرصيف. راقب الماء طويلًا، ثم أمر رجلين بإحضار قارب خفيف وحبل طويل.

قال نائل:
— سأذهب معكم.
أجابه هازم:
— ستبقى هنا.
— لكنني رسمت الطريق.
— ولهذا ستبقى حيًا حتى تخبرنا إن أخطأنا.
ركب هازم مع الصيادين، وأخذ معه الرسم. دفعوا القارب إلى الماء، وساروا بمحاذاة الساحل بدل الاتجاه مباشرة نحو الصخور.
جلس نائل عند طرف الرصيف يراقبهم، بينما وقف يامن إلى جواره يحجب الشمس بيده.
قال يامن:
— ماذا سيحدث إذا كانت خريطتك خاطئة؟
— سيعود العم هازم ويجعلني أصلح كل شباك القرية.
— وإذا كانت صحيحة؟
فكر نائل قليلًا.
— سيجعلني أصلحها أيضًا، لكنه سيتوقف عن القول إنني أضيع الورق.
استغرق غياب القارب أكثر من ساعة.
عندما ظهر من جديد، كان الرجال يسحبون خلفهم جزءًا كبيرًا من الشبكة المفقودة. رفع هازم الورقة بيد، ولوّح بها من بعيد.
ابتسم نائل.
قال يامن:
— لقد صدقت.
— بالطبع.
— لم تكن واثقًا.
— كنت واثقًا بما يكفي لأبقى على الرصيف.
وصل القارب، وقفز هازم إلى اليابسة. كانت الورقة قد ابتلت عند أطرافها، وسال الفحم فوق بعض الخطوط، لكنه وضعها في يد نائل.
— التيار يمر كما رسمت.
أخذها نائل وحاول إخفاء فرحته.
قال الصياد الذي تحطم قاربه:

— من علّمك قراءة الماء؟
— لم أقرأه. رأيت إلى أين يذهب.
قال هازم:
— وهذا هو الفرق بين من ينظر إلى البحر ومن يراه.
ثم أشار إلى الشبكة.
— أكمل عملك.
تلاشت ابتسامة نائل.
— أظن أن اكتشاف طريق جديد يستحق راحة قصيرة.
— حين يصبح الطريق قادرًا على إصلاح العقد، سأعطيه إبرتك.
عاد نائل ويامن إلى الشبكة، لكنهما لم يعملا طويلًا. ما إن انشغل هازم بفحص القارب المتضرر حتى أخذا الورقتين الباقيتين وفرّا نحو الصخور.
جلسا في خليج صغير تحجبه التلال عن القرية. صنع يامن من إحدى الورقتين قاربًا، بينما استخدم نائل الأخرى شراعًا صغيرًا ثبته في قطعة خشب.
قال يامن:
— أوران سيغضب عندما يعرف أنك حولت أوراقه إلى قوارب.
— قال إنني أستطيع أخذها.
— لم يقل إنك تستطيع إغراقها.
وضعا القاربين في الماء. دار قارب يامن قرب الشاطئ، ثم عاد إليهما مع الموج. أما قارب نائل، فحمله التيار بعيدًا عن الصخور.
ركض نائل بمحاذاة الساحل ليتبعه. ارتطمت قدمه الحافية بالحجارة، لكنه لم يتوقف. وصل إلى نتوء صخري ومد ذراعه، غير أن القارب مر بعيدًا عن يده.
أخذ الشراع الورقي يميل، ثم ابتل نصفه وسقط فوق الخشب.
ظهرت على الورقة خطوط باهتة لم تكن مرئية من قبل.
لم ينتبه نائل إليها في البداية. التقط غصنًا طويلًا، واستطاع بعد محاولتين أن يسحب القارب نحوه. أخذ الورقة المبتلة وبسطها فوق الصخرة.
اقترب يامن.
— هل كانت مرسومة؟
— لا.
تحت الخطوط التي رسمها نائل بالفحم ظهرت علامات رفيعة بلون بني باهت. بدت كجزء من ساحل ودائرة صغيرة بعيدة عنه، لكن الماء أفسد معظمها.

قال يامن:
— ربما كانت إحدى خرائط أوران القديمة.
قلب نائل الورقة.
— لو كانت خريطة، لماذا أعطاني إياها؟
— لأنه عجوز.
— هذا ليس جوابًا.
— إنه جواب عن أشياء كثيرة.
وضع نائل الورقة تحت الشمس، ثم أخذ قطعة الفحم ورسم إلى جانب الساحل الباهت جزيرة صغيرة.
سأله يامن:
— هل رأيتها من قبل؟
— لا.
— إذن لماذا رسمتها؟
نظر نائل إلى الدائرة التي ظهرت بفعل الماء، ثم إلى البحر الخالي أمامهما.
— لأن المكان هنا يبدو ناقصًا من دونها.
جاءهما صوت أوران من أعلى الصخور:
— المكان لا يصبح ناقصًا لأنك لم تجد ما ترسمه فيه.
التفتا إليه مذعورين.
كان العجوز واقفًا فوق الممر، يلهث من الصعود، وقد وضع يدًا على ركبته. نظر إلى الورقة الممدودة تحت الشمس، ثم نزل إليهما بحذر.
قال نائل:
— جئت في الوقت المناسب. كنا على وشك العودة.
قال يامن:
— لم نكن كذلك.
حدق فيه نائل.
اقترب أوران ومد يده.
— أعطني الورقة.
— قلت إنني أستطيع أخذها.
— ظننتها فارغة.

— لم تكن فارغة.
— أرى ذلك.
تناولها العجوز من يده. لم يهتم بالخطوط القديمة التي كشفها الماء أولًا، بل توقف عند الجزيرة الصغيرة التي أضافها نائل بالفحم.
سأل:
— لماذا رسمت هذه؟
— قلت ليامن إن المكان يبدو ناقصًا من دونها.
— هل حلمت بها؟
ضحك نائل.
— أنا لا أحلم بالجزر.
لم يضحك أوران.
طوى الورقة بعناية ووضعها داخل ثوبه.
قال نائل:
— إنها لي.
— سأعطيك بدلًا منها عشر أوراق.
— عشر أوراق فارغة؟
— أنظف من هذه.
— إذن أريد خمس عشرة.
— عشرًا.
— وأريد أن تعلمني كيف أخفي الرسم حتى يظهر عندما يبتل.
نظر أوران إلى البحر قبل أن يجيبه.
— لم أخفِ أنا ذلك الرسم.
توقف نائل عن الابتسام.
سأل يامن:
— فمن أخفاه؟
أعاد أوران تثبيت الورقة داخل ثوبه.
— شخص مات منذ زمن طويل.
ثم نظر إلى نائل وقال:

— عُد إلى بيتك قبل أن تكتشف أمك أنك فقدت حذاءك وضيعت نهارك وصنعت قاربًا من أوراقي في يوم واحد.

قال نائل:

— الحذاء لم يضع. أعرف مكانه.

— أين؟

أشار نحو أسطح القرية.

— مع الماعز.

استدار أوران نحو الطريق.

— هذا لا يجعل الأمر أفضل.

تبعه الفتيان، وظلا يتجادلان حول من سيستعيد الحذاء. أما العجوز، فمشى صامتًا ويده مثبتة فوق الورقة المخفية داخل ثوبه.

لم تكن الدائرة التي ظهرت عليها جزيرة.

كانت موضعًا تُرك فارغًا في جميع الخرائط التي رُسمت بعد الانكسار.

لكن الجزيرة التي أضافها نائل من خياله جاءت في مركزه تمامًا.

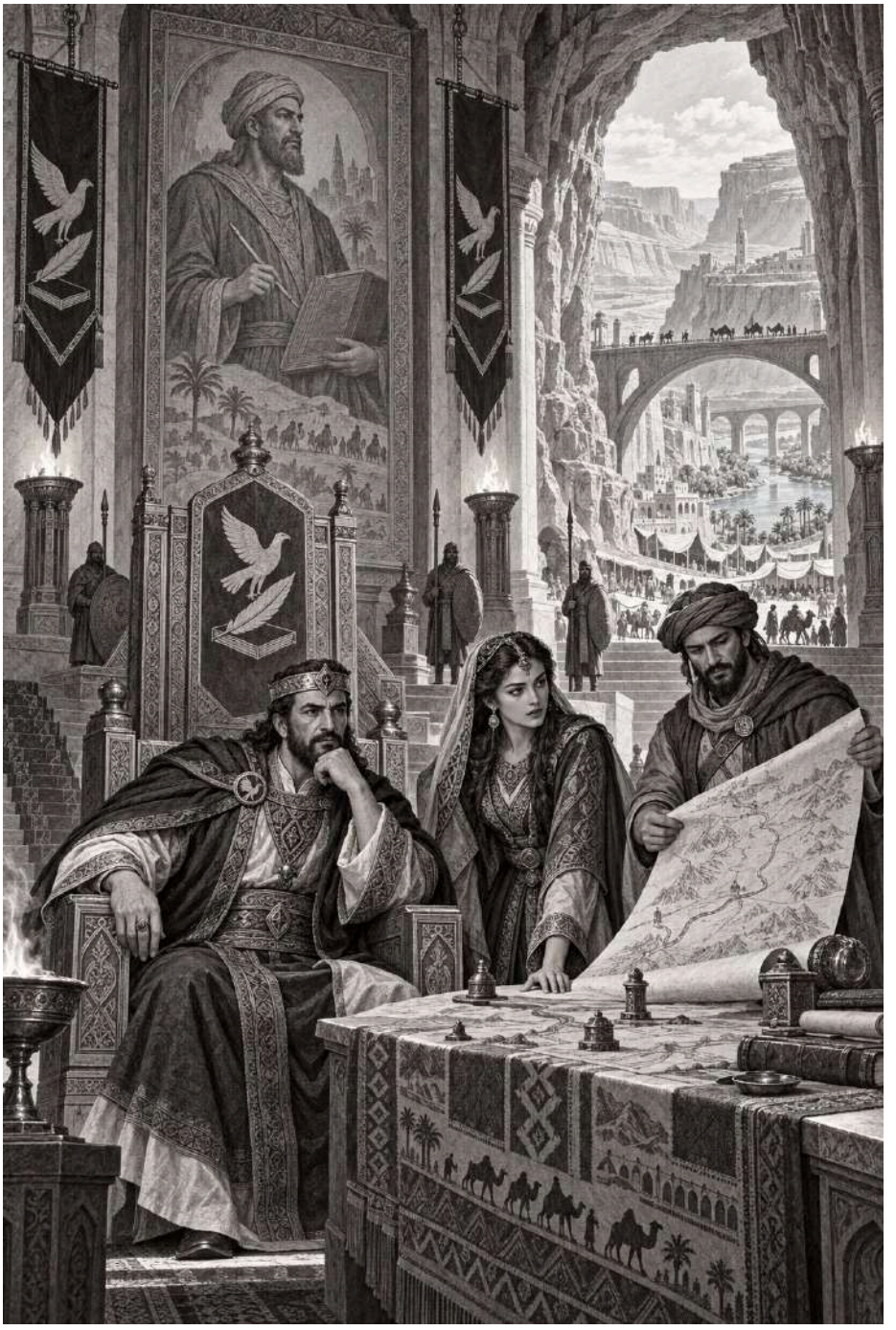

وفي صباح اليوم التالي، كانت القوافل تدخل سِجّال قبل أن تصل إليها الشمس.
بُنيت عاصمة زافرين بين جانبي وادٍ عميق، فامتدت أحياؤها فوق المنحدرات، وربطت بينها جسور حجرية عالية. في أسفل الواديِ جرى النهر الأزرق بين الصخور الحمراء، بينما ارتفعت فوقه الأسواق والمخازن ودور الصيارفة، حتى بدا صوت المدينة في الصباح خليطًا من صرير العجلات وصياح التجار ورنين الأجراس المعلقة في أعناق الدواب.
عند البوابة الشرقية، امتد صف العربات حتى بلغ أول منعطف في الطريق. جاءت توابل من الجنوب، وأقمشة من إيفارا، وخشب من نومارا، وحديد من مناجم قاسران. وكان كل شيء يدخل زافرين يُوزن ويُسجل وتُؤخذ منه حصة قبل أن يُسمح له بعبور المدينة.
جلس الملك جروان في قاعة المعابر، أمام مائدة مستطيلة غطتها دفاتر سميكة وأختام نحاسية. لم تكن القاعة جزءًا من مجلس العرش، بل غرفة عملية ضيقة تطل نوافذها على الجسر الشرقي، ويجتمع فيها الملك مرة كل عشرة أيام مع أصحاب القوافل ورؤساء الأسواق.
وقف أمامه تاجران يتجادلان حول سبع عربات من القمح توقفت عند الحدود.
قال الأول:
— دفعت الرسوم في معبر الرمال، ثم طلبوا مني دفعها مرة أخرى عند دخول العاصمة.
قال الثاني:
— لأنها لم تعد عرباته عندما وصلت إلى سِجّال. باعها لشريكي عند الوادي، وشريكي لم يدفع شيئًا.
رفع الملك إحدى الرقاع.
— بعتها؟
أجاب التاجر الأول:
— بعت الحمولة، لا العربات.
قال الثاني:
— الحمولة هي التي تُفرض عليها الرسوم.
— الرسوم دُفعت عليها بالفعل.
— باسمك، لا باسم المشتري.
استمر الجدال حتى رفع جروان إصبعًا واحدًا، فسكت الرجلان.
كان الملك قد تجاوز الخمسين، لكنه بدا أصغر حين يجلس أمام الحسابات. ارتدى ثوبًا داكنًا خاليًا من الأحجار، ووضع تاجه فوق رف قريب بدل أن يحمله على رأسه. كان يقول إن الذهب يزيد وزن الأفكار ولا يجعلها أفضل.
قلب الرقعة، ثم قال:

— الرسوم فُرضت على القمح لأنه دخل المملكة، لا على الاسم المكتوب في الدفتر. إذا أخذناها مرتين، فلن يعود صاحب القافلة إلى طرقنا. وإذا تركنا البيع بلا تسجيل، فسيصبح كل تاجر في سِجّال شخصين عند دفع الضريبة.

نظر إلى الكاتب الجالس إلى جانبه.

— يدفع المشتري رسم نقلِ الملكية فقط. أما مسؤول المعبر الذي طلب الضريبة كاملة مرة ثانية، فيعيد ما أخذه ويعمل شهرًا في عدّ أكياس الحبوب بدل عدّ النقود.

احتج التاجر الثاني:

— لكنه حاول إخفاء البيع.

قال الملك:

— ولهذا سيدفع غرامة.

ابتسم التاجر الأول، لكن جروان أضاف:

— تعادل ربحه من الصفقة.

اختفت ابتسامته.

أشار الملك إلى الحرس، فخرج الرجلان وهما يتجادلان بصوت أخفض مما دخلا به.

كانت الأميرة أزال تقف عند النافذة تتابع صفوف القوافل. ارتدت سترة سفر بلون الرمل، وربطت شعرها خلف رأسها، وعلى المائدة قربها تراكمت رسائل وصلت من المعابر الغربية.

قالت:

— لو أغلقنا الطريق يومين، لدفع الاثنان ضعف الرسوم من غير جدال.

أجاب جروان وهو يفتح دفترًا آخر:

— وفي اليوم الثالث سيبحثان عن طريق لا يمر بنا.

— لا يوجد طريق أقصر.

— اليوم.

التفتت إليه.

— الطرق لا تنمو في الليل.

— لكنها تتغير عندما يصبح ثمن المرور فيها أعلى من ثمن الضياع.

أخذت أزال رسالة من أعلى الكومة.

— قافلتان من قاسران اشترتا كل الفحم الموجود في سوق تامار، وثلاث سفن من إيفارا طلبت مضاعفة حمولتها من الورق والزيت. وفي رهفان، أُغلق ممر شرقي أمام التجار من دون تفسير.

توقف جروان عن تقليب الصفحات.

– في كم يوم وقع هذا؟
– ثلاثة.
– وهل ارتفعت الأسعار؟
– ليس بعد.
– سترتفع.
قالت أزال:
– لهذا طلبت من وكلائنا شراء الحديد قبل أن يعرف السوق أنه يحتاج إليه.
رفع الملك عينيه إليها.
– كم اشتريتِ؟
– ما يكفي لصناعة أربعة آلاف رمح.
– نحن لا نحتاج أربعة آلاف رمح.
– لا. لكن مملكة أخرى ستحتاج إليها.
بقي ينظر إليها لحظة، ثم أغلق الدفتر.
– لا تبيعيها بسرعة.
– لم أكن أنوي ذلك.
دخل أحد موظفي القصر يحمل سجل الجسر، وانحنى أمام المائدة.
– انتهى عدّ القوافل الصباحية، يا مولاي. عبرت مئتان وثلاث عشرة عربة من جسر المؤسس.
سألته أزال:
– والمتوقفة عند المدخل؟
– سبع وأربعون. حدث ازدحام عند القوس الرابع.
– لماذا؟
– انكسرت عجلة عربة محملة بالنحاس.
قال الملك:
– أرسِل عمّال الجسر. كل ساعة تقف فيها العربات تكلف السوق أكثر من ثمن العجلة.
دوّن الموظف الأمر، لكنه لم يغادر.
لاحظ جروان تردده.
– هناك شيء آخر؟
نظر الرجل نحو النافذة، ثم قال:
– طلب قائد الجسر حضور الأميرة.

سألته أزال:
— ألم أقل له إنني في اجتماع؟
— قال إن الأمر لا يمكن وصفه في رسالة.
— كل قائد يعجز عن الكتابة يقول ذلك.
قال الموظف:
— أرسل معي شاهدًا.
أشار إلى الباب. دخل فتى من عمال النهر، لا يتجاوز الخامسة عشرة، وثوبه مبتل حتى خصره. حمل بين يديه قطعة خشبية صغيرة، وظل يضمها إلى صدره كأنها تحميه.
قالت أزال:
— ماذا رأيت؟
نظر الفتى إلى الملك، ثم إلى النوافذ العالية.
— كنت تحت الجسر، يا مولاتي. ننظف الحبال العالقة حول الدعامات كل صباح قبل أن يزداد جريان الماء.
— وماذا حدث؟
— ظننت أنني أخطأت في العد.
قال جروان:
— عدّ ماذا؟
— الأقواس.
نظرت أزال إلى أبيها، ثم عادت إلى الفتى.
— لجسر المؤسس سبعة أقواس.
— أعرف، يا مولاتي. كل طفل في سِجّال يعرف ذلك.
— وكم رأيت؟
أخفض الفتى قطعة الخشب من أمام صدره.
— ثمانية.
ساد الصمت في القاعة.
ابتسم أحد الكتبة في الطرف البعيد، ظانًا أن العامل ارتبك أو أراد لفت الانتباه. لكن الملك لم يبتسم.
سأل:
— أين القوس الثامن؟

— في الماء.
قالت أزال:
— تقصد انعكاسه؟
— نعم، يا مولاتي. نظرت إلى الجسر فوجدت سبعة، ونظرت إلى الماء فوجدت ثمانية. اقتربت منه.
— هل رأيته وحدك؟
— رآه بقية العمال، وقائد الجسر، وبعض أصحاب القوافل. لهذا أوقفوا العربات.
قال جروان لموظف القصر:
— كم شخصًا يوجد هناك الآن؟
— يتجمع الناس على ضفتي النهر، يا مولاي.
وقفت أزال وأخذت قفازيها من فوق المائدة.
— كان ينبغي لقائد الجسر أن يبعدهم.
قال الرجل:
— حاول، لكن الماء بدأ يجري في الاتجاه الآخر.
لم يتحرك أحد لحظة.
ثم أخذ جروان تاجه من فوق الرف، ولم يضعه على رأسه.
قال:
— أخلوا القاعة.
خرج الكتبة والتجار والموظفون، وبقيت أزال قرب الباب.
سألت:
— هل نستدعي ماردين؟
نظر الملك إلى النهر من خلف النافذة.
— أرسلتِ إليه قبل أن تسألي.
— نعم.
— أحسنتِ.
كان جسر المؤسس أقدم جسور سِجّال وأوسعها. امتد بين ضفتي الوادي فوق سبعة أقواس عالية، ونُقشت على حواجزه أسماء القوافل الأولى التي وصلت إلى المدينة بعد الانكسار.
عندما بلغ الملك وابنته الجسر، كان الحرس قد أوقفوا العبور من الجهتين. تجمعت العربات في الشوارع المؤدية إليه، وارتفعت أصوات التجار المطالبين بمعرفة سبب التأخير.

وقف قائد الجسر عند المدخل.
قالت أزال قبل أن ينحني:
— أبعد الناس عن الحواجز، وافتح لهم الطريق عبر الجسر الجنوبي.
— الجسر الجنوبي لا يحتمل العربات الثقيلة.
— تمر العربات الخفيفة، وتبقى الثقيلة في الساحة حتى يصدر أمر آخر.
أشار القائد إلى الحرس لتنفيذ التعليمات.
تقدم جروان نحو منتصف الجسر، ثم نظر إلى الأسفل.
كان النهر يتحرك عكس مجراه.
لم يكن اندفاعه قويًا، لكنه كان واضحًا. الأوراق وقطع الخشب التي اعتادت النزول نحو الجنوب أخذت تتحرك شمالًا، والماء عند الدعامات ارتفع في جانب وانخفض في الآخر كأن الوادي مال تحت المدينة.
ظهرت الأقواس السبعة فوقه.
وفي الماء، ظهرت ثمانية.
لم يكن القوس الزائد مشوهًا بفعل الموج، بل بدا أوضح من بقية الانعكاس. ظهر بين القوسين الثالث والرابع، رغم أن الحجر فوقه متصل ولا يحمل أي فتحة.
انحنت أزال فوق الحاجز.
— لا يمكن أن يعكس الماء شيئًا غير موجود.
قال جروان:
— لكنه يفعل.
وصل ماردين يتبعه خادمان يحمل أحدهما صندوقًا جلديًا. كان رجلًا طويلًا، نحيل الوجه، ويمشي بخطوات حذرة كأنه يقيس الأرض قبل أن يضع قدمه عليها. ارتدى عباءة زرقاء تحمل على أطرافها علامات الطرق الملكية.
توقف عند أول الجسر.
لم يحتج إلى أن يسأل عمّا حدث. نظر إلى الماء، فرأى القوس الثامن.
تغير وجهه.
لاحظت أزال ذلك.
— تعرف ما نراه.
أجاب ماردين:
— أعرف ما يشبهه.

قال الملك:

— لا أريد ما يشبهه.

اقترب الرجل من الحاجز، وأخرج من جيبه قطعة زجاج داكن. نظر من خلالها إلى النهر، ثم إلى الجسر الحقيقي.

— القوس ليس خداعًا للضوء.

قالت أزال:

— لم نحتج إليك لتخبرنا بذلك.

— لا. احتجتم إليّ لأخبركم أن القوس لم يظهر للمرة الأولى اليوم.

التفت جروان إليه.

فتح ماردين الصندوق الجلدي الذي حمله الخادم. أخرج لفافة صغيرة، وبسطها فوق الحاجز الحجري. كانت رسمًا قديمًا لجسر المؤسس، بهت حبره وتآكلت أطرافه.

أشار إلى المياه المرسومة تحته.

كانت تحمل ثمانية أقواس.

قالت أزال:

— متى رُسمت هذه؟

— قبل بناء سجّال بالشكل الذي نعرفه.

— لا يمكن أن يكون الرسم أقدم من الجسر.

— ربما لم يكن الرسام يرسم الجسر.

قبل أن تجيبه، صاح أحد العمال من أسفل الوادي.

تحرك الحرس إلى الحافة. كان عاملان يقفان في الطين قرب الضفة الشرقية، ويشيران إلى شيء ظهر مع انخفاض الماء.

نزلت أزال الدرج الحجري المؤدي إلى النهر، وتبعها الملك وماردين. كان الطريق زلقًا، ورائحة الطين قوية، بينما استمر الماء في الانحسار عن جزء لم يظهر منذ سنوات.

برز حجر أسود بين الصخور الحمراء.

بلغ ارتفاعه ركبة رجل، وله سطح مائل نُقش عليه سهم طويل. لم يكن الحجر يشبه صخور الوادي، ولم تغطِّه الطحالب رغم بقائه تحت الماء.

قال قائد الجسر:

— حاول العمال إخراجه، لكنه لا يتحرك.

اقتربت أزال منه.

كان السهم يشير نحو الغرب.
سألت:
— إلى أين يقود هذا الاتجاه؟
أجاب ماردين:
— إلى الطرق القديمة.
قال جروان:
— كل طرقنا الغربية معروفة.
— الطرق التي نستخدمها، نعم.
أمسكت أزال بجانب الحجر، وحاولت تحريكه. ساعدها قائد الجسر ورجلان من الحرس، فدار الحجر بصعوبة فوق قاعدته حتى أصبح السهم يشير إلى الجنوب.
تركوه.
بقي ثابتًا لحظة، ثم صدر من تحته صوت احتكاك خافت.
دار الحجر وحده.
عاد السهم إلى الغرب.
تراجع أحد الحرس.
قال جروان:
— أخرجوا الجميع من مجرى النهر.
رفع قائد الجسر صوته، فصعد العمال والحرس إلى الدرج. بقي الملك وأزال وماردين قرب الحجر.
أشار ماردين إلى طرف السهم.
— لا يشير إلى طريق داخل زافرين.
— إلى أين إذن؟ سألت أزال.
أخرج من الصندوق خريطة صغيرة للعالم المعروف، ووضعها فوق صخرة جافة. تتبع بإصبعه امتداد السهم من العاصمة حتى الساحل، ثم إلى المساحة الخالية في وسط البحار.
قال:
— إلى بحر السكون.
لم تقل أزال شيئًا.
أما جروان، فظل يراقب الحجر الأسود حتى عاد هدير الماء يعلو من خلفهم.
استعاد النهر اتجاهه فجأة.

اندفعت المياه نحو الجنوب، فغمرت الصخور والطين، وارتفعت حول أرجلهم. تراجعوا إلى الدرج، ثم اختفى الحجر تحت الماء كما ظهر.

رفع الملك عينيه إلى الجسر.

اختفى القوس الثامن من الانعكاس.

قالت أزال:

— كم شخصًا رأى الحجر؟

— العمال والحرس وبعض الواقفين فوق الجسر، قال قائد الجسر.

— والقوس؟

— نصف السوق على الأقل.

صعد جروان الدرج من دون أن يتحدث. وعندما بلغ الجسر، كانت العربات لا تزال متوقفة، والناس يتهامسون قرب الحواجز.

قال لقائد الحرس:

— أعلنوا أن تغير الماء كشف ضررًا في إحدى الدعامات، وأن القوس الذي رآه الناس كان ظل الشق تحتها.

سأل القائد:

— وهل نغلق الجسر؟

— إلى الغروب فقط. بعد ذلك يعود كل شيء كما كان.

قالت أزال:

— سيستمر الناس في الحديث.

أجاب الملك:

— الناس يصدقون ما يسمح لهم بالعودة إلى تجارتهم.

عاد الثلاثة إلى القصر عبر ممر جانبي لا يمر بالأسواق.

لم يتجه جروان إلى قاعة المعابر، بل نزل إلى الطابق السفلي حيث تقع غرفة الطرق. كانت جدرانها مغطاة بخرائط للممالك والموانئ والمعابر، وثُبتت فوقها خيوط ملونة تمثل حركة القوافل وأسعار السلع وأيام السفر.

أغلق ماردين الباب، ثم أخرج كتابًا صغيرًا من خزانة حديدية. كان غلافه رماديًا، ولا يحمل عنوانًا أو ختمًا.

وضعه أمام الملك.

قال جروان:

— اقرأها.

فتح ماردين الكتاب عند صفحة محفوظة بشريط أزرق.
قرأ:
— حين يمنح الماء للجسر قوسًا لم يبنه البناؤون، ويشير حجر الطريق إلى أرض بلا اسم، يكون الطريق المفقود قد عاد إلى العالم.
نظرت أزال إلى الخرائط المعلقة.
— إذن العلامة ظهرت.
قال ماردين:
— كما حُفظت في سجلات زافرين.
— والطريق المفقود يقود إلى بحر السكون.
— الحجر أشار إليه.
اقترب جروان من الخريطة الكبرى. كانت وسطها مساحة واسعة خالية، لا تحمل سوى اسم البحر وحدود الممالك المحيطة به.
— الأرض التي بلا اسم.
قال ماردين:
— أو الطريق إليها.
سألت أزال:
— إذا ظهر القوس هنا، فهل ظهرت علامات في الممالك الأخرى؟
— النص لا يقول.
قال جروان:
— لكنه لا يحتاج إلى أن يقول.
أشار إلى الرسائل التي أحضرتها ابنته من المعابر.
— رهفان تغلق ممرًا بلا تفسير. إيفارا تشتري الورق والزيت. قاسران تجمع الفحم والحديد. لم يتغير العالم في ثلاثة أيام، لكن الممالك بدأت تتصرف كأنه سيتغير.
قالت أزال:
— يمكننا إغلاق الطرق قبل أن تصل أخبارهم إلى بعضهم.
هز الملك رأسه.
— إذا أغلقناها، سيعرفون أننا خائفون.
— لسنا خائفين.
— لا يهم ما نحن عليه. المهم ما يظنونه.

حرك أحد الخيوط فوق الخريطة، فنقل مسارًا تجاريًا من الطريق الشمالي إلى معبر أصغر في الشرق.

— لا نغلق شيئًا. نبطئ بعض القوافل، ونسرع غيرها. تصل رسائلنا قبل رسائلهم، وتصل بضائعهم بعد أن نعرف من طلبها ولماذا.

قالت أزال:

— سأضاعف وكلاءنا في الموانئ.

— لا. الوكيل المضاعف يُرى. استخدمي أصحاب الديون؛ الرجل الذي يدين لنا بالمال يعمل أفضل من الجاسوس، لأنه يظن أنه يعمل لنفسه.

تقدم ماردين نحو الخريطة.

— الطريق الذي ظهر أقدم من جسور سِجّال ومن حدود المملكة. لا نعرف ما الذي سيحدث إذا حاولتم امتلاكه.

قالت أزال:

— كل طريق يمر بأرض، وكل أرض يحكمها تاج.

أجاب:

— لم تكن هناك سبعة تيجان عندما رُسمت الطرق الأولى.

نظر إليها جروان، ثم أعاد بصره إلى المساحة الخالية.

قال:

— ولهذا علينا الوصول إليها قبل أن يرسم الآخرون حدودهم فوقها.

فتح درجًا تحت الخريطة، وأخرج منه سجلًا جلديًا.

— اشتروا الحبوب من ألدوريا، لكن على دفعات صغيرة حتى لا يرتفع السعر. احجزوا سفنًا من ميرازا بأسماء تجار مستقلين. وأوقفوا بيع الحديد القادم من قاسران أسبوعين.

قالت أزال:

— سيعرفون أننا نحتفظ به.

— دعيهم يظنون أن تجار إيفارا اشتروه.

ابتسمت الأميرة.

— وعندما يسألون إيفارا؟

— ستنكر، ولن يصدقها أحد.

قال ماردين:

— أنتم تتحدثون عن الأسواق، بينما الطريق القديم يعود إلى العالم.

أغلق جروان السجل.
— الأسواق هي أول من يعرف أن العالم تغير، وآخر من يهتم بسبب تغيره.
سألت أزال:
— وماذا عن حجر الطريق؟
— عند منتصف الليل، ينزل رجالنا إلى النهر. يرسمونه، ويقيسون موضعه، ويحفرون حول قاعدته.
قال ماردين:
— حاولتم تحريكه فعاد إلى اتجاهه.
— لم أقل إننا سنحركه.
— وماذا تريد منه؟
— أن يخبرنا إلى أين يشير بالضبط.
نظر ماردين إلى الملك.
— إنه يشير إلى بحر السكون.
— البحر واسع. أنا أريد موضعًا تستطيع سفينة الوصول إليه.
قالت أزال:
— سأرسل ثلاث قوافل على الطرق الغربية غدًا.
— لماذا ثلاثًا؟
— واحدة تحمل التجار، وواحدة تحمل من يراقبهم، والثالثة يراها الناس حتى لا ينتبهوا إلى الاثنتين.
أومأ جروان.
— اختاري رجالًا لا يعرف بعضهم بعضًا.
ثم اتجه إلى الباب.
قالت أزال:
— إذا وجدنا الطريق، هل نعلنه لبقية الممالك؟
توقف الملك، لكنه لم يلتفت.
— سنعلن ما نحتاج إلى بيعه لهم.
— والأرض؟
نظر إلى الخريطة مرة أخيرة.
— الأرض التي لا يعرف الناس طريقها لا يملكها من يجلس فوقها. يملكها من يقرر من يصل إليها.

قال ماردين:
— بعض الطرق لا تقبل البوابات.
أجاب جروان:
— إذن سنبني البوابة قبل أن يصل الطريق.
غادر الغرفة، وتبعته ابنته. بقي ماردين أمام الخرائط، ثم أغلق الكتاب الرمادي وأعاده إلى الخزانة الحديدية.
في الأعلى، عادت القوافل إلى عبور جسر المؤسس. تحركت العربات، وارتفعت أصوات الباعة، وعاد النهر يجري نحو الجنوب كأنه لم يتغير قط.
لكن تحت الماء، ظل الحجر الأسود ثابتًا في قاع الوادي.
وظل سهمه يشير إلى أرض لا تحمل اسمًا.
وفي تلك الليلة، أغلق أوران باب دكانه قبل الموعد الذي اعتادته القرية.
ثبت العارضة الخشبية خلف الباب، وأسدل الستارة على النافذة، ثم حمل المصباح إلى الغرفة الخلفية. كانت الورقة التي ابتلت بماء البحر ممدودة فوق الطاولة، وقد ثبت أطرافها بأربعة أحجار صغيرة حتى لا تلتف أثناء جفافها.
جلس أمامها وأمال ضوء المصباح.
اختفت بعض الخطوط التي كشفها الماء، لكن خطوطًا أخرى بقيت ظاهرة تحت آثار الفحم. أخرج أوران عدسة صغيرة، وبدأ يقرأ من طرف الورقة إلى طرفها الآخر. تحركت عيناه ببطء، وتوقفتا أكثر من مرة عند كلمات بالكاد بقي منها نصف حرف.
تناول ورقة بيضاء، ثم رفع القلم.
بقيت يده فوقها لحظة، لكنه لم يكتب شيئًا.
أعاد القلم إلى مكانه، ونهض متجهًا إلى الصندوق الأسود الموضوع تحت الرف. أخرج من عنقه مفتاحًا صغيرًا، ثم أخرج مفتاحًا ثانيًا من تجويف مخفي أسفل الطاولة.
فتح القفلين.
لم يرفع الغطاء كاملًا، بل أدخل يده في الصندوق وأخرج قطعة ملفوفة بجلد داكن. وضعها بجانب الورقة، وفك الرباط المحيط بها.
ظهرت بوصلة قديمة.
كان غطاؤها النحاسي مسودًا، وحافتها مخدوشة كأنها انتقلت بين أيدٍ كثيرة. مرر أوران إبهامه فوق سطحها، فأزال طبقة رقيقة من الغبار.
ظهر تحتها رمز غريب.
دائرة غير مكتملة، يعبر وسطها خط متعرج ينتهي بنقطة صغيرة.

فتح البوصلة.
ظلت إبرتها ساكنة لحظات، ثم ارتجفت. دارت دورة كاملة، ثم ثانية، قبل أن تتوقف في اتجاه البحر.
أبعد أوران يده عنها.
بقي يراقبها في صمت، بينما تحرك لهب المصباح رغم أن أبواب الغرفة ونوافذها كانت مغلقة.
طوى الورقة التي رسم عليها نائل الجزيرة، ووضعها تحت البوصلة. ثم أعادهما معًا إلى الصندوق الأسود، وأغلق القفلين.
قبل أن يطفئ المصباح، نظر مرة أخيرة إلى الغطاء النحاسي.
كان الرمز الغريب قد اختفى تحت طبقة السواد من جديد.
وعلى مسافة بعيدة من القرية، كانت شمس الصباح تنعكس فوق قنوات ألدوريا، فتحولها إلى خطوط ذهبية تمتد بين الحقول.



أُقيمت العاصمة سولان وسط سهل أخضر تحيط به سبعة أنهار صغيرة، تتفرع منها مئات القنوات التي تمر بين البساتين والقرى قبل أن تعود إلى النهر الكبير. لم تكن أسوارها أعلى أسوار الممالك، ولا قصورها أشدها تحصينًا، لكن مخازنها الحجرية كانت تكفي لإطعام مدن كاملة إذا غاب المطر عامًا أو عامين.

في ذلك الصباح، لم يكن الملك إيلان في قاعة العرش.

كان يسير داخل مخزن الحبوب الشرقي، وبين يديه حفنة من القمح يقلبها بأصابعه. امتدت أمامه صفوف من الأكياس حتى نهاية القاعة، وقد كُتب فوق كل صف اسم المقاطعة التي جاءت منها الحبوب وتاريخ وصولها.

تذوق الملك حبة، ثم أخرجها من فمه.

— رطبة.

قال الوزير نيرام:

— وصلت القافلة بعد يومين من المطر.

— والمخزن؟

— جاف.

أخذ الملك حبة أخرى وكسرها بين أظفاره.

— إذن وُضعت في الأكياس قبل أن تجف.

التفت نيرام إلى مشرف المخزن.

كان الوزير رجلاً في منتصف الأربعين، عريض الكتفين، ويرتدي ثوبًا بنيًا بسيطًا لا يختلف كثيرًا عن ثياب كتبة الحسابات. حمل تحت ذراعه دفترًا سميكًا، وثبت خلف أذنه قلمًا قصيرًا.

سأل المشرف:

— كم كيسًا في هذه الدفعة؟

— أربعمئة وعشرون، يا سيدي.

— افصلوها عن بقية الحبوب وافتحوا الأكياس قبل الظهيرة. إذا بقيت مغلقة ثلاثة أيام، فسيفسد نصفها.

قال المشرف:

— سنحتاج إلى جميع العمال.

أجابه نيرام:

— لهذا تدفع لهم المملكة.

مشى الملك إلى الصف التالي. غرس يده في أحد الأكياس، ثم أشار إلى الكاتب المرافق لهم.

— اكتبوا إلى حاكم المقاطعة. في المرة الأولى نعلّمه كيف يجفف القمح، وفي الثانية نرسل شخصًا يعرف.

قال نيرام:

— أرسلت إليه التعليمات في العام الماضي.

نظر إليه إيلان.

— إذن هذه هي المرة الثانية.

دوّن الكاتب الأمر، بينما انخفض وجه مشرف المخزن. لم يكن هو المسؤول عن حصاد المقاطعة، لكنه عرف أن خبر استبدال حاكمها سيصل إلى سولان قبل غروب الشمس.

غادروا القاعة إلى الساحة الخلفية للمخازن. كانت العربات تدخل من البوابة الشمالية وتخرج من الجنوبية بعد تفريغ حمولتها، فيما عمل الرجال على وزن الأكياس وختمها بعلامة التاج.

ناول نيرام الملك رقعة من دفتره.

— وصلت طلبات جديدة من قاسران.

قرأ إيلان الأرقام.

— هذا ضعف ما يشترونه عادة.

— يقولون إن بعض مناجمهم ستغلق في الشتاء، ويريدون ضمان طعام العمال.

— وهل أُغلقت المناجم؟

— لم يصلني خبر بذلك.

أعاد الملك الرقعة.

— لا ترفض الطلب، ولا توافق عليه. اطلب منهم تحديد المناجم وعدد العمال.

قال نيرام:

— سيعرفون أننا نشك فيهم.

— من يطلب ضعف حاجته يعرف أننا سنسأل.

أخرج الوزير رقعة ثانية.

— وزافرين تريد شراء محصول الشعير القادم كاملًا.

ابتسم إيلان ابتسامة قصيرة.

— زافرين لا تشتري محصولًا كاملًا لأنها جائعة.

— تقول إن أسواقها تستعد لفصل جاف.

— إذا كان تجارها يعرفون الجفاف قبل الغيوم، فعليهم أن يبيعونا السماء أيضًا.

أعاد إليه الرقعة.

— نعطيهم الربع بالسعر المعتاد. إذا أصروا على الباقي، يرتفع السعر مع كل ربع إضافي.
قال نيرام:
— قد يشترونه رغم ذلك.
— عندها نعرف أن ما يخشونه أغلى من الحبوب.
انتقلا إلى ساحة أخرى، حيث وقف عدد من أصحاب المطاحن ينتظرون توقيع أوامر توزيع القمح. لم يكن عمل الملك يقتضي حضوره إلى المخازن كل أسبوع، لكنه اعتاد أن يأتي من غير موعد مرتين في الشهر. وكان يقول إن الأرقام داخل القصر نظيفة أكثر مما ينبغي، أما الحقيقة فتلتصق بالأحذية في ساحات العمل.
تقدم رجل مسن يحمل قبعة بين يديه.
— يا مولاي، قريتنا لم تحصل على حصتها كاملة.
فتح نيرام دفتره.
— اسم القرية؟
— ميرال، عند القناة الجنوبية.
مرر الوزير إصبعه فوق الصفوف.
— استلمتم مئتي كيس قبل اثني عشر يومًا.
— وصل مئة وسبعون.
رفع نيرام عينيه إلى مشرف العربات.
قال الرجل بسرعة:
— سجل البوابة يحمل ختم القرية.
سأل الملك صاحب المطحنة:
— من ختم السجل؟
— كبير القرية.
— وهل عدّ الأكياس؟
تردد الرجل.
— قال إن الجنود كانوا مستعجلين.
أغلق نيرام دفتره.
— ثلاثون كيسًا لا تضيع بسبب الاستعجال.
قال إيلان:
— أرسلوا عربة إلى ميرال اليوم. تصلهم حصتهم قبل أن يبدأ التحقيق، لا بعده.

ثم نظر إلى مشرف العربات.

— وحتى نعرف أين ذهبت الأكياس، لا تخرج عربة من هذه الساحة بختم واحد. نريد ختم المخزن وختم السائق معًا.

انحنى الرجل.

قبل أن ينتقل الملك إلى الطلب التالي، فُتح باب ضيق في الجدار الخلفي وخرج منه حارس مسرعًا. كان وجهه شاحبًا، وعلى كم ثوبه مسحوق أبيض يشبه غبار الحجر.

اقترب منه قائد الحرس، لكن الرجل قال:

— أحتاج إلى الوزير نيرام.

سمعه الملك.

— الوزير أمامك.

توقف الحارس عندما رأى إيلان، ثم انحنى.

قال نيرام:

— ماذا حدث؟

نظر الحارس إلى العمال والتجار الموجودين في الساحة.

— في المخزن السفلي، يا سيدي.

قال الملك:

— تكلم.

— سمعنا صوتًا خلف باب الحصاد الأول.

تغيرت ملامح نيرام، لكنه حافظ على صوته هادئًا.

— هل فُتح الباب؟

— لا. الأختام ما زالت في مكانها.

— إذن ما الصوت؟

— كسر شيء من الداخل.

قال إيلان لقائد الحرس:

— أخرج التجار من الساحة، وأوقف دخول العربات حتى ننتهي من التفتيش.

رفع أحد أصحاب المطاحن صوته:

— يا مولاي، ننتظر منذ الفجر.

أجابه الملك:

— لهذا لن يضرك أن تنتظر قليلًا آخر.

أشار نيرام إلى الحارس ليتقدم أمامهما.
كان مدخل المخزن السفلي خلف صف من الرفوف الخشبية. نزلوا اثنتين وعشرين درجة حتى بلغوا ممراً بارداً حُفرت جدرانه في الصخر. لم تُحفظ هناك الحبوب التي يأكلها الناس، بل سجلات المواسم ونماذج البذور التي تُقارن بها المحاصيل عند ظهور مرض أو فساد.
في نهاية الممر وقف باب حجري قصير، ثُبتت فوقه ثلاثة أختام من الشمع الأخضر.
كانت جميعها سليمة.
اقترب نيرام ووضع يده فوق الباب.
— متى دخل أحد إلى الغرفة آخر مرة؟
قال الحارس:
— منذ عام، عند تجديد السجل.
— ومن كان حاضرًا؟
— الوزير السابق، وحارس البذور، وثلاثة كتبة.
جاء من خلف الباب صوت خافت.
لم يكن صوت حجر يسقط، بل صوت شيء صلب ينضغط ببطء حتى ينكسر.
تراجع الحارس خطوة.
انحنى الملك نحو أسفل الباب.
خرج من الشق الضيق شيء أبيض رفيع.
ظنه في البداية خيطًا سقط من ثوب أحدهم، لكنه تحرك فوق الحجر، ثم امتد مقدار إصبع.
جثا نيرام ولمسه بطرف القلم.
كان جذرًا.
قال الحارس:
— ظهر قبل أن أذهب لاستدعائكم. قطعت طرفه بسكيني.
نظر نيرام إليه.
— قطعته؟
— نعم، يا سيدي.
أشار الرجل إلى قطعة صغيرة ملقاة قرب الجدار. كانت جافة ومنكمشة.
أما الجذر الخارج من تحت الباب، فكان أطول مما وصف.
قال إيلان:
— أرسلوا إلى أمار. لا تخبروه بما وجدتم.

غادر جندي لتنفيذ الأمر.
ظل الملك واقفًا أمام الباب، يراقب الجذر وهو يتقدم فوق الأرض. لم يكن سريعًا، لكن حركته كانت واضحة لمن ثبت عينيه عليه.
قال نيرام:
— لا توجد تربة خلف هذا الباب.
— أعرف.
— ولا ماء.
— أعرف ذلك أيضًا.
وصل أمار بعد وقت قصير، يرتدي عباءة خضراء واسعة ويحمل حقيبة صغيرة من الجلد. كان شيخًا ممتلئ الجسد، يمشي من دون عصا رغم عمره، وقد علقت في لحيته أوراق يابسة لم ينتبه إليها.
توقف عندما رأى الملك في الممر.
— عندما يستدعيني القصر إلى مخزن البذور، أتوقع أن أجد مرضًا في المحصول، لا ملكًا تحت الأرض.
قال إيلان:
— اليوم ستجد الاثنين إذا ظللت تتحدث.
ابتسم أمار، ثم رأى الجذر.
اختفت ابتسامته.
اقترب منه ببطء، وجثا أمام الباب. لم يلمسه، بل وضع أذنه على الحجر.
قال نيرام:
— هل تسمع شيئًا؟
— نعم.
— ماذا؟
رفع أمار رأسه.
— شيئًا ينمو.
نهض ونظر إلى الأختام الثلاثة.
— من يملك مفاتيح الغرفة؟
أخرج نيرام مفتاحًا من حزامه.
قال أمار:
— هذا واحد.

نظر الوزير إلى الملك.
أخرج إيلان من عنقه مفتاحًا ثانيًا صغيرًا.
أما المفتاح الثالث فكان مع أمار، مخفيًا داخل حقيبته.
كسروا الأختام، وأدخل كل واحد منهم مفتاحه في موضع مختلف من الباب. أداروها معًا، فتحرك الحجر إلى الداخل بصوت ثقيل.
خرج هواء بارد من الغرفة.
رفع الحارس مصباحه، فظهرت صفوف من الجرار الحجرية فوق قواعد منخفضة. حملت كل جرة رقمًا واسم موسم يعود إلى السنوات الأولى بعد الانكسار.
كانت الجرة الموضوعة في وسط الغرفة مكسورة.
انشقت إلى نصفين، وتناثرت قطعها فوق الأرض. خرج من داخلها ساق أبيض قصير، تعلوه ورقتان خضراوان. أما جذوره فامتدت بين الشقوق، ثم عبر أحدها الغرفة حتى خرج من تحت الباب.
دخل أمار أولًا.
وقف أمام النبتة ولم يتحرك.
سأله الملك:
— ما الذي كان داخل الجرة؟
أجاب الشيخ:
— بذرة من الحصاد الأول.
قال نيرام:
— عمرها مئات السنين.
— لهذا حُفظت ولم تُزرع.
— هل يمكن لبذرة أن تبقى حية كل هذا الزمن؟
لم يجب أمار.
اقترب إيلان من قاعدة الجرة. لم يجد ترابًا داخلها، ولا قطرة ماء. لم تكن هناك إلا قشور بذرة سوداء انفتحت من وسطها.
قال:
— ربما دخلت الرطوبة من الجدار.
وضع نيرام يده على الصخر.
— الجدار جاف.

أشار أمار إلى الجذر الممتد خارج الجرة.
— والرطوبة لا تعلم الجذور كيف تكسر الحجر.
كان جذر آخر يشق طريقه تحت إحدى الجرار المجاورة. صدر صوت خافت، ثم ظهر شرخ صغير في الأرضية.
قال الملك للحارس:
— أغلق الممر. لا يدخل أحد ولا يخرج إلا بأمري.
انحنى الحارس وغادر، وأُغلق الباب الحجري خلفه.
بقي الرجال الثلاثة حول النبتة.
قال إيلان:
— قل ما تعرفه.
رفع أمار إحدى قطع الجرة، ومسح الغبار عن سطحها. ظهرت عليها خطوط دقيقة لم تكن ظاهرة وهي كاملة.
— كنت أتمنى أن تبقى هذه الكلمات حكاية يرددها حرّاس البذور.
قال نيرام:
— أي كلمات؟
أعاد الشيخ قطعة الحجر إلى مكانها.
ثم قال:
— حين تنبت البذرة التي ماتت في غير تراب، وتشُق الجذور حجر الملوك، تعرف الأرض أن الغارس المفقود قد بدأ طريقه.
نظر نيرام إلى النبتة.
— الغارس المفقود.
قال الملك:
— هل هو شخص؟
أجاب أمار:
— ربما. وربما اسم أعطاه القدماء لمن يعيد ما اقتُلع.
— اقتُلع من أين؟
رفع الشيخ عينيه إليه.
— من العالم.
استقر الصمت في الغرفة.

واصل أحد الجذور تقدمه فوق الحجر، ومر بين قدمي نيرام قبل أن ينعطف نحو الجدار الغربي.
قال الوزير:
— إذا كانت هذه هي العلامة، فقد تظهر علامات أخرى.
— ربما ظهرت بالفعل، قال أمار.
أخرج نيرام من داخل ثوبه رقاع الطلبات التي وصلت من الممالك.
— قاسران تطلب ضعف حاجتها من القمح. زافرين تريد محصول الشعير كاملًا. إذا رأوا شيئًا، فهم يستعدون.
قال إيلان:
— أو يريدون أن نستعد فنرفع الأسعار ونكشف خوفنا.
قال أمار:
— أنتما تنظران إلى البذرة وترَيان السوق.
رد الملك:
— لأن السوق هو المكان الذي سيجوع فيه الناس إذا أخطأنا.
تقدم إلى الجدار الغربي. كان الجذر قد بلغه وبدأ يدخل في شق ضيق بين حجرين.
— إلى أين يقع هذا الاتجاه؟
قال نيرام:
— نحو القناة الكبرى، ثم الساحل.
أضاف أمار:
— وبعد الساحل بحر السكون.
نظر الملك إليه.
— هل تعرف ذلك من النبوءة؟
— أعرفه من اتجاه الجذر.
قال نيرام:
— نستطيع اقتلاعه قبل أن يمتد أكثر.
انحنى أمار والتقط السكين التي تركها الحارس قرب الباب. قطع جزءًا صغيرًا من طرف أحد الجذور.
توقف الجذر لحظة.
ثم خرج من موضع القطع طرفان جديدان.
ترك أمار السكين فوق الأرض.

قال:

— نستطيع المحاولة.

ظل نيرام يراقب الطرفين وهما يطولان.

— كم شخصًا يعرف بوجود الغرفة؟

— كثيرون يعرفون أنها موجودة، قال أمار. قليلون يعرفون ما فيها.

قال الملك:

— ومن سمع الصوت؟

— الحراس الأربعة في الممر، قال نيرام. وربما بعض العمال في الأعلى.

— يُقال لهم إن إحدى الجرار سقطت بسبب تشقق في القاعدة. نغلق المخزن لإصلاحه.

سأل أمار:

— وإلى متى ستخفي نبتة لا تتوقف عن النمو؟

— إلى أن أعرف لماذا تنمو.

قال نيرام:

— والجذر؟

نظر الملك إلى الشق في الجدار.

— لا تقطعوه مرة أخرى. افتحوا الحجارة أمامه لنعرف إلى أين يتجه.

قال أمار:

— قد يصل إلى خارج القصر.

— عندها نبني حوله قبل أن يراه الناس.

اقترب نيرام من الملك.

— يجب أن نقرر ماذا سنفعل بطلبات الحبوب.

أومأ إيلان.

— لا تخرج من ألدوريا حمولة تزيد على المعتاد. تنفذ العقود القديمة، أما الطلبات الجديدة فتؤجل.

— سيحتج تجار زافرين.

— دعهم يحتجون.

— وقاسران؟

— نبيعهم ما يكفي لإطعام عمال المناجم الذين سمّوهم. لا كيسًا أكثر.

قال نيرام:

— إذا كانوا يجهزون جيشًا، سيبحثون عن الحبوب في مكان آخر.
— لن يجدوا مملكة تملك ما نملكه.
نظر الوزير إلى دفاتره، ثم قال:
— نستطيع رفع السعر.
— ليس الآن.
بدت المفاجأة على وجه نيرام.
قال الملك:
— إذا رفعناه اليوم، سيعرفون أننا رأينا ما رأوه. نترك السعر كما هو، ونقلل الكمية. سيظنون أن موسمنا أضعف مما أعلنا.
— ومحاصيل القرى؟
— تُشترى باسم المخازن المحلية، لا باسم التاج. أريد مخزونًا يكفي عامين.
قال أمار:
— تخاف الحرب.
أجاب إيلان:
— أخاف ما يأتي بعدها. الجندي يستطيع القتال جائعًا يومًا، أما المملكة فلا تستطيع الجوع شهرًا.
انحنى أمار قرب النبتة مرة أخرى. كانت الورقتان قد انفتحتا أكثر، وظهر في وسطهما برعم صغير.
— وإذا كانت عودة الأرض خيرًا؟
قال الملك:
— الخير الذي يجعل قاسران تجمع الحديد وزافرين تخفي القوافل يحتاج إلى حراسة.
— الأرض العائدة ستحتاج إلى بذور، قال أمار.
— وستحتاج إلى طعام حتى تنمو بذورها.
نظر نيرام إلى الملك.
— أتريد أن نصل إليها قبل الآخرين؟
لم يجبه إيلان مباشرة.
اقترب من إحدى الجرار السليمة، وقرأ اسم الموسم المحفور فوقها. كانت البذور المحفوظة داخل تلك الغرفة إرثًا لم يره معظم شعبه، لكنه عرف أن المملكة كلها قامت على ما تمثله.
قال:
— إذا ظهرت أرض جديدة، ستأتي إليها الجيوش أولًا. نحن نرسل إليها الخبز قبلهم.

قال أمار:
— ومن يطعمها أولًا سيقرر إلى أي تاج تنحاز؟
التفت الملك إليه.
— الطعام يصنع ولاءً لا تصنعه السيوف.
ابتسم الشيخ بحزن.
— الأرض لا تنحاز إلى من يطعمها، يا مولاي. تنحاز إلى من يعيد إليها اسمها.
تحرك البرعم في وسط النبتة، ثم انفتح ببطء.
ظهرت ورقة ثالثة، أصغر من سابقتيها، وكان لونها شاحبًا كأنها لم ترَ الشمس بعد.
قال نيرام:
— سأغلق المخازن السفلية وأضاعف الحراسة.
— من دون جنود إضافيين، قال الملك. زيادة الحرس تلفت الانتباه. استبدلهم برجال نثق بهم.
— وماذا عن الموانئ؟
— أرسل مراقبين إلى الساحل والقرى الواقعة قرب بحر السكون. لا يبحثون عن جيوش أو سفن. يبحثون عن أرض لم تكن موجودة، أو نبات ينمو في مكان لا ينبغي أن ينمو فيه.
قال أمار:
— وإذا وجدوا شيئًا؟
نظر إيلان إلى الجذر الذي اختفى داخل الجدار.
— يخبروننا قبل أن يقطفوه.
خرج نيرام لتنفيذ الأوامر، وبقي الملك وأمار داخل الغرفة.
سأل إيلان:
— هل احتفظ حرّاس البذور بجزء آخر من الكلمات؟
— احتفظ كل عهد بما ظن أنه يحتاج إليه.
— هذا ليس جوابًا.
— لكنه الجواب الوحيد الذي أستطيع إعطاءه الآن.
نظر الملك إليه طويلًا، ثم اتجه نحو الباب.
قال أمار قبل أن يخرج:
— يا مولاي.
توقف إيلان.
— إذا وصلت الجذور إلى الحقول، فلن تستطيع إخفاءها خلف باب حجري.

أجاب الملك:

— لهذا علينا أن نفهمها قبل أن تصل.

أُغلق الباب، وبقي أمار وحده أمام النبتة.

رفع المصباح وتفحص الجرة المكسورة. كانت على سطحها الداخلي كتابة دقيقة أخفاها الحجر قرونًا. مرر إصبعه فوقها، ثم غطى الكلمات بقطعة من الجرة قبل أن يعود الحرس.

تحت قدميه، واصلت الجذور شق طريقها بصمت.

امتدت عبر جدار المخزن، ثم عبرت التراب تحت القصر، متجهة نحو الغرب.

وفي الغرب، كانت غابة نومارا تستيقظ تحت الضباب.



تسللت خيوط الضوء بين الأغصان العالية، وسقطت فوق أسطح إيلورا الخشبية وعلى الجسور المعلقة التي ربطت بيوت العاصمة بعضها ببعض. لم تُبنَ المدينة حول الأشجار فقط، بل بينها وفوقها؛ ارتفعت بعض القاعات على جذوع عتيقة، وانحدرت السلالم بمحاذاة الشلالات، فيما مرت القنوات الصغيرة تحت البيوت قبل أن تختفي بين الجذور.

لم يكن في قصر إيلورا سور يفصله عن الغابة.

تكون القصر من سبع قاعات واسعة توزعت بين الأشجار، تربط بينها ممرات مسقوفة بألواح داكنة. وكان أكبرها مجلس الماء، حيث اجتمعت الملكة إيرانا ذلك الصباح بمشرفي القنوات والقرى.

وقف أمامها رجلان يحملان قطعة خشب متشققة.

قال الأول:

— لم يصمد الجسر الجديد شهرين، يا مولاتي.

قال الثاني:

— لأن أهل قريته حملوا عليه عربات أثقل مما اتفقنا.

رفع الأول صوته:

— عبرته ثلاث عربات فقط.

— محملة بالحجر.

— الحجر لبناء مدرسة.

— والجسر لا يعرف الفرق بين مدرسة وحصن.

جلست إيرانا على مقعد منخفض صُنع من جذع واحد، وأمامها مائدة غير مصقولة بقيت حوافها كما نمت في الشجرة. لم ترتد تاجًا، بل طوقًا فضيًا بسيطًا تتدلى منه ورقة خضراء صغيرة.

مدت يدها إلى قطعة الخشب.

— من أي شجرة قُطع هذا؟

قال مشرف الجسور:

— من الصنوبر الجنوبي.

مررت إصبعها فوق موضع الكسر.

— الصنوبر الجنوبي لا ينمو بهذه الحلقات المتقاربة.

تردد الرجل.

كانت الحلقات الظاهرة في الخشب ضيقة وغير منتظمة، وقد امتلأت الشقوق بمادة داكنة لإخفائها.

قالت الملكة:

— هذا خشب منحدرات الضباب. أرخص، وأضعف أمام الماء.
نظر الرجلان إلى بعضهما.
سألت إيرانا مشرف الجسور:
— من سلّمك الخشب؟
— تاجر من المعبر الغربي.
— وهل فحصته؟
— حمل ختم المخزن الملكي.
التفتت الملكة إلى الكاتب.
— يُغلق المخزن حتى يُعرف من وضع الختم. ويُعاد بناء الجسر من مال التاجر والمشرف معًا.
قال المشرف:
— يا مولاتي، لم أكن أعرف...
— كان عملك أن تعرف.
ثم نظرت إلى الرجل الآخر.
— حتى يُبنى الجسر، لا تمر عليه العربات. تُنقل الحجارة على دفعات صغيرة.
قال الرجل:
— سيتأخر بناء المدرسة.
— أفضل من أن تسقط المدرسة والجسر معًا في النهر.
انحنى الرجلان وغادرا.
كانت تيرن تقف قرب أحد الأعمدة، تحمل مجموعة من الرسائل مربوطة بخيط أخضر. كانت طويلة، ذات شعر داكن بدأ الشيب يظهر عند صدغيها، وترتدي معطفًا قصيرًا يناسب السير بين الأشجار أكثر مما يناسب قاعات القصر.
قالت:
— ختم ملكي على خشب فاسد. هذه ثالث مرة خلال شهر.
أجابتها إيرانا:
— لهذا أغلقنا المخزن.
— إغلاق الباب لا يكشف اليد التي فتحته.
— لكنه يمنعها من العودة حتى نجدها.
وضعت الرسائل فوق المائدة.

— ليست الأختام وحدها ما يزعجني. وصل تجار من زافرين إلى المعابر الثلاثة في يوم واحد، وكل واحد منهم يسأل عن كمية الخشب التي نستطيع بيعها قبل الشتاء.

— وماذا أجابهم الحرّاس؟

— ما أمرناهم به: لا شيء قبل تقدير احتياجات القرى.

فتحت إيرانا إحدى الرسائل.

— سيذهبون إلى تجار صغار ويعرضون ضعف السعر.

— فعلوا ذلك بالفعل.

— إذن اشتري الخشب منهم قبل أن يفعل تجار زافرين.

قالت تيرن:

— سنرفع السعر على أنفسنا.

— ونمنعهم من معرفة حاجتنا الحقيقية.

انتقلت إلى الرسالة التالية.

— هذه من الحدود الشمالية؟

— من مسلك الصخور. دورية رهفان لم تظهر في موعدها المعتاد، وقافلتان من قاسران عادتا إلى الغرب قبل أن تدخلا نومارا.

— ربما غيرتا طريقهما.

— قوافل قاسران لا تغير طريقها من دون سبب.

— ولا ترسل لك السبب مكتوبًا.

جلست تيرن في المقعد المقابل.

— الممالك تتحرك، يا إيرانا. زافرين تشتري الخشب والحديد، قاسران تجمع الطعام، وألدوريا تؤخر بيع الحبوب. حتى تجار إيفارا بدأوا يسألون عن النباتات التي تنمو قرب بحر السكون.

رفعت الملكة عينيها عن الرسالة.

— منذ متى يهتم تجار إيفارا بالنباتات؟

— منذ أن صاروا يدفعون ثلاثة أضعاف ثمنها.

قبل أن تجيبها، دوى صوت بوق قصير من خارج القاعة.

لم يكن بوق الحرس عند البوابات، بل نداء مسالك الغابة. ثلاث نغمات متقطعة، ثم نغمة طويلة.

وقفت تيرن فورًا.

دخل حارس شاب، وعلى كتفه ريشة بيضاء تدل على حراس الداخل. كان يتنفس بسرعة، وقد التصقت أوراق مبتلة بساقيه.

قال:

— رسالة من الحزام القديم.

سألته تيرن:

— أي موقع؟

— وادي السرو، قرب الغابة المحرمة.

— ماذا حدث؟

نظر الحارس إلى الملكة.

— خرجت الحيوانات.

قالت إيرانا:

— بسبب حريق؟

— لا يوجد دخان.

— صيادون؟

— لم نجد أحدًا.

قالت تيرن:

— أي حيوانات؟

— كلها.

قطبت حاجبيها.

تابع الحارس:

— الغزلان والخنازير والذئاب والطيور. حتى الأفاعي خرجت من الأعشاب. تقف الآن خارج الوادي.

سألته الملكة:

— تقف؟

— لا تهرب، يا مولاتي. تقف وتنظر إلى الأشجار.

نهضت إيرانا.

— كم حارسًا هناك؟

— اثنا عشر.

قالت تيرن:

— أرسل عشرين آخرين وأغلق المسالك المؤدية إلى الوادي.
أضافت الملكة:
— من دون أبواق أو جنود من المدينة. خذ حرّاس الداخل فقط.
اتجه الحارس إلى الباب، لكن إيرانا أوقفته.
— هل دخل أحد إلى الغابة بعد خروج الحيوانات؟
تردد.
— رجلان.
— وهل عادا؟
— أحدهما عاد.
ساد الصمت.
قالت تيرن:
— والآخر؟
— يقول رفيقه إنه كان يسير أمامه، ثم غطاه الضباب. ظل يسمع صوته فترة، لكنه كلما تقدم ابتعد الصوت.
سألت إيرانا:
— كم مضى على دخولهما؟
— أقل من ساعة.
أخذت تيرن سيفها من قرب العمود.
— سنذهب الآن.
قالت الملكة:
— أرسلي إلى لوما.
أجاب الحارس:
— كانت في طريقها إلى الوادي عندما غادرت.
تبادلت تيرن وإيرانا نظرة قصيرة.
قالت الملكة:
— إذن رأت شيئًا قبل حراسنا.
غادرتا إيلورا عبر المسلك الغربي. رافقهما ستة من حرّاس الداخل، يتحركون بخفة بين الجذوع من دون دروع معدنية أو رايات. ضاق الطريق كلما ابتعدوا عن العاصمة، وازدادت الأشجار ارتفاعًا حتى اختفت السماء وراء أوراقها.

وصلوا إلى وادي السرو قبل الظهيرة.
كانت الحيوانات هناك.
اصطفت الغزلان عند حافة الأشجار، وخلفها وقفت الخنازير البرية في مجموعات صغيرة.
جلست طيور سوداء فوق الأغصان المنخفضة من دون أن تصدر صوتًا، والتفت ذئبان عند وصول الحرس ثم أعادا النظر نحو الغابة.
لم يهاجم أحد الآخر.
قال أحد الجنود:
— لم أرَ ذئبًا يقف قرب غزال من دون أن يطارده.
أجابته تيرن:
— لأنهما ينظران إلى شيء يخيفهما أكثر من الجوع.
تقدمت الملكة بين الحيوانات. ابتعد بعضها عن طريقها، لكنها لم تهرب. كان الصمت شديدًا حتى إن صوت الماء المتساقط من الصخور البعيدة بدا أقرب مما هو عليه.
وجدت لوما عند أول الأشجار.
كانت امرأة مسنة، قصيرة القامة، ينسدل شعرها الأبيض في ضفيرتين فوق كتفيها. ارتدت ثوبًا أخضر داكنًا وحملت عصًا يلتف حولها نبات حي بأوراق صغيرة. جثت أمام بقعة من التراب وتفحصت آثار الحيوانات.
قالت إيرانا:
— وصلتِ قبلنا.
لم ترفع لوما رأسها.
— وصلت بعد الحيوانات.
سألت تيرن:
— أين الحارس المفقود؟
— داخل الغابة.
— أعرف ذلك.
نظرت إليها.
— لو كنتِ تعرفين أين هو، لما سألتِني.
تجاوزتها تيرن خطوتين، ثم توقفت.
أمامها امتد طريق لم يكن موجودًا.

بدأ بين شجرتين عظيمتين ابتعدت جذورهما عن بعضها كأنهما تحركتا من موضعهما. امتد الطريق مستقيمًا داخل الغابة، بعرض يكفي لعبور عربة كبيرة. لم تغطه أوراق ولا أعشاب، وبدت تربته داكنة وملساء رغم أن المطر لم يسقط منذ أيام.

تلاشت نهايته داخل ضباب أبيض.

قالت إيرانا:

— هل قطعت الأشجار؟

أجابت لوما:

— لو قُطعت، لرأيتِ جذوعها.

نظرت تيرن إلى جانبي الطريق. كانت الأشجار قائمة، لكن جذورها انحنت بعيدًا عنه، والأغصان ارتفعت فوقه تاركة ممرًا مفتوحًا.

انحنت وأخذت حفنة من التراب.

— لا آثار أقدام.

قال أحد الحراس:

— كانت هنا آثار الرجلين حين دخلا.

— أين هي الآن؟

— اختفت.

خرج رجل من بين الجنود. كان وجهه مغطى بالعرق رغم برودة الوادي.

قال:

— دخلت مع دارم، يا سيدتي. كما نراه أمامنا. الطريق كان واضحًا.

سألته تيرن:

— لماذا عدت وحدك؟

— سمعت الحراس ينادون خلفي، فالتفتُّ. عندما نظرت أمامي مرة أخرى لم أجده.

— هل خرج عن الطريق؟

— لا.

— هل كان الضباب كثيفًا؟

— لم يكن هناك ضباب في البداية.

قالت إيرانا:

— كم مشيتما؟

— لا أعرف. ربما عشر دقائق.

أشار أحد الحراس إلى حبل ملفوف قرب صخرة.
— كانا مربوطين بهذا.
أخذت تيرن الحبل. كان طرفه مقطوعًا بسطح أملس، لا يشبه أثر سكين ولا تمزقًا.
سألت:
— من قطع الحبل؟
قال الرجل:
— لم نقطعه. شعرت بأنه خفّ خلفي، وعندما سحبته عاد الطرف هكذا.
رفعت لوما العصا ومدتها فوق الطريق.
انحنت الأوراق الملتفة حولها نحو الضباب.
قالت الملكة:
— تعرفين هذه العلامة.
لم تجب لوما، بل مشت إلى شجيرة عند الحافة وقطعت غصنًا يابسًا. ألقته في وسط الطريق.
ما إن لامس الغصن التراب حتى تحرك وحده. انزلق إلى الجانب وعاد إلى الأعشاب.
التقطت تيرن الغصن وألقته مرة ثانية.
تكرر الأمر.
قالت:
— الأرض مائلة.
سكب أحد الحراس الماء من قربته فوق الطريق. لم يجرِ إلى أحد الجانبين، بل اختفى داخل التراب في موضعه.
قالت لوما:
— الأرض ليست مائلة.
أمرت تيرن الجنود بإحضار جذع صغير سقط قرب الوادي. حمله أربعة رجال ووضعوه عرضًا فوق الطريق.
ارتجفت الأغصان في الأعلى.
تحرك الجذع ببطء، ثم انزلق خارج الممر حتى استقر بين الأشجار.
وضع الحراس جذعًا ثانيًا أثقل من الأول.
أبعده الطريق هو الآخر.
قالت تيرن:
— أحضروا الزيت.

نظرت إليها الملكة.

— لماذا؟

— إذا لم نستطع إغلاقه، نحرق مدخله.

ضربت لوما الأرض بطرف عصاها.

ارتفعت جذور صغيرة من التراب، والتفت حول جرّة الزيت التي حملها أحد الجنود. انتزعتها من يده وأسقطتها بعيدًا عن الطريق من دون أن تكسرها.

وضعت تيرن يدها على مقبض سيفها.

قالت لوما:

— جرّبي أن تقطعي الجذر، وستجدين الغابة كلها فوقك قبل أن تُخرجي سيفك من غمده.

قالت:

— هناك رجل مفقود في الداخل.

— وإحراق الطريق سيعيده؟

— سيمنع آخرين من الاختفاء.

تدخلت إيرانا:

— لن يُشعل أحد نارًا.

نظرت إليها تيرن.

— لا نعرف إلى أين يقود.

— لهذا لن نحرقه قبل أن نعرف.

— ولا نستطيع تركه مفتوحًا.

قالت لوما:

— لم نفتحه نحن حتى نقرر إغلاقه.

اتجهت إلى شجرة سرو عتيقة عند بداية الممر، وأبعدت الطحالب عن لحائها. ظهرت تحته ثلاثة خطوط ملتوية نُقشت منذ زمن بعيد.

وضعت كفها عليها وأغمضت عينيها.

حرك الضباب أطراف ثوبها، مع أن الهواء خارج الطريق ظل ساكنًا.

قالت بصوت منخفض:

— حين تُنحى الأشجار من غير فأس، وتصمت الوحوش أمام طريق لم تصنعه قدم، تعرف الغابة أن من سُلب اسمه قد اقترب.

تغير وجه إيرانا.

أما تيرن، فنظرت إلى الحراس الواقفين خلفهن قبل أن تقول:
— أبعدوهم.
أشارت الملكة إلى قائدهم.
— يعود الجميع إلى حافة الوادي. لا يدخل أحد الطريق، ولا يتحدث أحد عما رآه.
انسحب الجنود، وأخذوا معهم الحارس العائد. بقيت إيرانا وتيرن ولوما أمام الممر.
سألت تيرن:
— هل هذه من كلمات العهد؟
— هي الكلمات التي حُفظت في نومارا، أجابت لوما.
قالت إيرانا:
— من الذي سُلب اسمه؟
— شيء حاول الملوك نسيانه.
— شخص أم أرض؟
رفعت لوما يدها عن الشجرة.
— حين يُمحى الاسم زمنًا طويلًا، يصبح الفرق بين صاحبه وأرضه صغيرًا.
قالت تيرن:
— هذه ليست إجابة.
— لأنكن تردن اسمًا تضعونه فوق باب أو رأسًا تعلقون عليه الخوف. الغابة لا تتحدث بهذه الطريقة.
أشارت إلى الطريق.
— الطريق يتحدث بوضوح. إنه يدخل مملكتنا، وأحد رجالي اختفى فيه.
خطت نحو الممر، لكن إيرانا أمسكت بذراعها.
— لن تدخلي.
— لا أستطيع أن أطلب من رجالي الوقوف عند شيء أخاف من السير فيه.
قالت لوما:
— تستطيعين إذا كان دخولك سيجعلهم يفقدون قائدتهم أيضًا.
حررت تيرن ذراعها برفق.
— إذن نرسل فريقًا بحبال أطول.
قالت الملكة:
— أرسل رجلين فقط. يثبت الحبل خارج الطريق، ولا يتجاوزان مئتي خطوة.

اختارت لوما حارسين من رجال الداخل، وربطت حول معصم كل واحد منهما خيطًا أخضر إلى جانب الحبل. قالت لهما ألا يتركا وسط الطريق مهما سمعا بين الأشجار.

دخل الرجلان.

ظهرا بوضوح في البداية، ثم أخذ الضباب يزداد حولهما. عدّت تيرن خطواتهما بصوت منخفض حتى بلغا المئة.

عند الخطوة المئة والعشرين، توقفا.

رفع أحدهما يده وأشار إلى الأمام، ثم انحنى كأنه يفحص شيئًا على الأرض.

قالت تيرن:

— ماذا وجدتما؟

وصل صوتها إليهما، لكن جوابهما جاء بعيدًا كأن بينهما واديًا آخر.

شدّت الحبل مرتين، وهي الإشارة المتفق عليها للعودة.

استدار الرجلان.

مضت دقائق قبل أن يخرجا من الضباب، مع أنهما لم يبتعدا أكثر من مئة وعشرين خطوة.

كان أحدهما يحمل حجرًا صغيرًا أملس.

سألته تيرن:

— ماذا رأيتما؟

قال الحارس:

— الطريق يستمر.

— إلى أين؟

— لا نعرف. كلما تقدمنا، بدا الضباب بعيدًا بالمسافة نفسها.

قالت إيرانا:

— والحجر؟

مده الحارس إليها.

كان أسود اللون، بخلاف صخور نومارا الرمادية، وعلى أحد جانبيه أثر خط مستقيم.

قال:

— وجدناه في وسط الطريق. لم يكن هناك عندما مررنا في المرة الأولى.

أخذته لوما وقربته من وجهها.

— هذا الحجر لا يأتي من جبالنا.

سألت تيرن:

— من أين يأتي؟
أعادت الحجر إلى الملكة.
— من مكان لم تعد الطرق تصل إليه.
نظر الثلاثة إلى الممر.
قالت إيرانا:
— يُغلق وادي السرو أمام الصيادين والتجار. أخبروا القرى أن الحيوانات خرجت بسبب مرض لا نريد انتقاله إلى قطعانهم.
قالت تيرن:
— سيعرفون أن الحيوانات ليست مريضة.
— ليس قبل أن يقتربوا منها، والحرس لن يسمحوا لهم بذلك.
— وماذا عن المسالك الغربية؟
— تُراقب ولا تُغلق. إذا أغلقناها جميعًا، ستعرف زافرين وقاسران أن شيئًا حدث.
قالت لوما:
— ستعرفان قريبًا، سواء أُغلقت الطرق أم تُركت.
سألتها الملكة:
— هل ظهرت العلامة في الممالك الأخرى؟
— إذا فتحت الغابة طريقها، فلا أظن أن البحر والجبل والأرض ظلّت صامتة.
قالت تيرن:
— علينا إرسال رجال إلى العواصم.
— لا، أجابت إيرانا. نرسلهم إلى الأسواق والمعابر. القصور تكذب، أما التجار فيكشفون خوف الملوك بما يشترونه.
نظرت إليها تيرن.
— ماذا نطلب منهم مراقبته؟
— الحديد المتجه إلى قاسران، والحبوب الخارجة من ألدوريا، والسفن التي تستأجرها زافرين. وأريد أن أعرف لماذا يبحث رجال إيفارا عن نباتات بحر السكون.
أومأت.
ثم أشارت إلى الطريق.
— ومن سيحرس هذا؟
قالت إيرانا:

— رجال لا يخافون الصمت.
قالت لوما:
— الصمت ليس ما ينبغي أن يخيفهم.
عاد صوت من عمق الطريق.
كان خافتًا ومشوّهًا، لكنه حمل اسم تيرن.
استلّت سيفها.
قالت الملكة:
— هل هو الحارس المفقود؟
أصغين.
جاء الصوت مرة أخرى، أقرب من السابق.
خطت تيرن إلى حافة الممر.
— دارم!
لم يجبها أحد.
تحرك الضباب في الداخل، وظهر ظل رجل على مسافة بعيدة. تقدم الظل خطوات، ثم توقف.
رفعت تيرن قدمها لتدخل.
غرست لوما عصاها أمامها.
— انتظري.
— إنه رجلي.
— ربما.
انحسر الضباب قليلًا.
خرج الحارس المفقود مترنحًا، وثوبه ممزق عند الكتف. أمسكته تيرن قبل أن يسقط، وساعده على الجلوس خارج الطريق.
سألته:
— أين كنت؟
نظر الرجل حوله كأنه لا يعرف المكان.
— كنت أمشي.
— طوال هذا الوقت؟
— لم يمض وقت طويل.

قالت إيرانا:

— مضت ساعات.

اتسعت عيناه.

— لم أبتعد عنكما إلا قليلًا.

سألته لوما:

— ماذا رأيت؟

ضغط على رأسه بكلتا يديه.

— أشجارًا.

— أي أشجار؟

— لم أرَ مثلها من قبل. كانت أطول من أشجارنا، وبينها مبانٍ مغطاة بالجذور.

انحنت نحوه.

— وهل رأيت أحدًا؟

فتح فمه، ثم توقف. نظر إلى الطريق، وعاد الخوف إلى وجهه.

— لا أتذكر.

قالت تيرن:

— خذوه إلى إيلورا. يبقى تحت الحراسة، ولا يسأله أحد غيرنا.

حمله رجلان من الحرس وابتعدا به.

وقفت الملكة عند حافة الطريق. بقيت الحيوانات في أماكنها، تراقب الممر كما لو كانت تنتظر شيئًا آخر.

قالت:

— إذا فتحت الغابة طريقًا، فلن أكون أول من يغلقه.

نظرت تيرن إليها.

أكملت:

— لكنني سأعرف لمن فتحته قبل أن أسمح له بالعبور.

قالت لوما:

— قد لا تطلب الغابة إذنك.

— إذن سأعرف لماذا لم تطلبه.

أمرت ببناء ثلاثة مواقع مراقبة بين الأشجار، بعيدة بما يكفي عن الطريق حتى لا تتحرك جذوره نحوها. بقيت تيرن حتى المساء تشرف على توزيع الحراس، بينما جلست لوما عند شجرة السرو تراقب الضباب.

عند الغروب، عادت بعض الطيور إلى الأغصان، لكن أي حيوان لم يعبر الطريق.

ومع حلول الليل، بدأ الضباب ينسحب ببطء إلى الداخل.

ظهر جزء جديد من الممر لم يكن مرئيًا من قبل.

وفي نهايته البعيدة، بين الأشجار التي لا تنتمي إلى غابات نومارا، اشتعل ضوء واحد ثم انطفأ.

وفي صباح اليوم التالي، وصل نائل إلى دكان أوران مرتديًا حذاءيه.

كان أحدهما يحمل آثار أسنان واضحة عند الكعب.

دفع الباب، فصدر رنين الجرس الصغير، لكنه لم يسمع سقوط شيء هذه المرة. توقف داخل الدكان ونظر حوله.

كانت الطاولة فارغة.

اختفت اللفائف المكدسة والقوارير والأدوات المكسورة، ونُقلت الصناديق إلى جانب الجدار. بقي فوق الخشب مسطرة طويلة وقلم وحجر فحم وخمس عشرة ورقة بيضاء.

قال نائل:

— هل تعرض الدكان للسرقة؟

خرج أوران من الغرفة الخلفية وهو يحمل إبريق ماء.

— لو تعرض للسرقة، لترك اللص المكان أكثر ترتيبًا.

أشار نائل إلى الأوراق.

— قلت عشرًا.

— قلت خمس عشرة.

— أنا الذي قلت خمس عشرة. أنت قلت عشرًا.

— إذن اتفقنا على خمس عشرة.

اقترب نائل من الطاولة وأمسك إحدى الأوراق.

— هل هي فارغة فعلًا؟

— افحصها في البحر إذا أردت، لكنك لن تحصل على غيرها.

رفع الورقة نحو النافذة، ثم قلبها.

— وماذا تريدني أن أفعل بها؟

وضع أوران الإبريق جانبًا.

— ارسم القرية.
ضحك نائل، لكنه توقف عندما وجد أن العجوز لا يمزح.
— الآن؟
— لا أعرف قرية أخرى تستطيع رسمها وأنت واقف هنا.
— أحتاج إلى أن أصعد التلة.
— لا.
— كيف سأرسم البيوت إذا لم أرها؟
— أنت تراها كل يوم.
جلس نائل وأخذ القلم.
— من أين أبدأ؟
— هذا ما أريد أن أعرفه.
بقيت الورقة أمامه فارغة بعض الوقت. ثم رسم الميناء أولًا، وأضاف الرصيف وبيوت الصيادين والطريق الصاعد نحو الساحة. رسم بيت أمه أكبر من البيوت المجاورة، ووضع دكان أوران قرب التلة.
وقف العجوز خلفه يراقب.
قال:
— طريق السوق لا يمر من هنا.
— إنه أقصر إذا مر من هنا.
— لكنه لا يمر من هنا.
— ينبغي له أن يفعل.
أخذ أوران القلم من يده، ورسم خطًا ثانيًا إلى جانب الطريق.
— الخريطة لا ترسم ما ينبغي أن يكون.
قال نائل:
— بل ما هو موجود.
— هذا ما يقوله رسامو الخرائط السيئون.
نظر إليه نائل.
أعاد أوران القلم إلى يده.
— الخريطة ترسم ما يعرفه صاحبها عن المكان. أحيانًا يكون الموجود أقل مما يعرف، وأحيانًا يكون أكثر.

— لم أفهم.
— جيد. لو فهمت من أول مرة، لما احتجت إليّ.
عاد نائل إلى الرسم. أضاف الصخور الغربية والخليج الصغير، ثم رسم خطًا خفيفًا يمثل التيار الذي اكتشفه في اليوم السابق.
سأله أوران:
— لماذا وضعته؟
— لأنه موجود.
— لا تستطيع رؤيته من اليابسة.
— أستطيع رؤية ما يفعله.
أومأ العجوز من غير تعليق.
عندما انتهى نائل، أخذ أوران الورقة ووضعها جانبًا.
— غدًا ترسم الطريق من القرية إلى الوادي.
— أعرفه.
— سترسمه من الذاكرة.
— هذا سهل.
— من دون أن ترسم أي شجرة أو صخرة.
قطب نائل حاجبيه.
— الوادي كله أشجار وصخور.
— لهذا لن يكون سهلًا.
جمع الأوراق الأربع عشرة الباقية ووضعها في درج.
قال نائل:
— هذه أوراقي.
— ستحصل على واحدة كل يوم.
— لم نتفق على ذلك.
— لم نتفق أيضًا على أن أحميها منك.
جاء من الخارج صوت جرس الميناء.
لم يكن الجرس الذي يعلن عودة قوارب الصيد، بل الجرس الطويل الذي يُقرع عند دخول سفينة غريبة إلى الخليج.
ركض نائل نحو الباب.

قال أوران:
— إلى أين؟
— سأعرف من وصل.
— وماذا عن الرسم؟
— القرية لن تتحرك قبل أن أعود.
خرج إلى الطريق، ولحق به أوران بخطوات أبطأ.
تجمع أهل القرية عند الميناء، ينظرون إلى سفينة طويلة تدخل الخليج. كان هيكلها أزرق داكنًا، وصاريها أعلى من صواري السفن التجارية المعتادة. تدلت من جوانبها حبال كثيرة، وارتفعت فوقها أشرعة بلون البحر بعد الغروب.
قال يامن، وقد ظهر بين الناس:
— لم أرَ مثلها من قبل.
أجابه أحد الصيادين:
— سفن الجزر لا تشبه سفن اليابسة.
اقترب نائل حتى بلغ طرف الرصيف. تحرك البحارة فوق السطح بسرعة، وأنزلوا الشراع الأمامي قبل أن يرموا الحبال نحو الرجال الواقفين في الميناء.
كانت مقدمة السفينة منحوتة على هيئة طائر بحري يبسط جناحيه.
سأل نائل:
— من أين جاءت؟
قال العم هازم:
— من الجنوب.
رفع أحد البحارة راية صغيرة حتى يعرف حرس الميناء هويتها.
قال أوران، وقد وصل ووقف خلف نائل:
— من ميرازا.
ظل نائل ينظر إلى السفينة.
كانت آثار رحلة طويلة واضحة على خشبها، لكن ما لفت انتباهه لم يكن حجمها ولا أشرعتها. كانت على جانبها خطوط دقيقة محفورة تشبه الطرق التي يرسمها أوران فوق خرائطه، إلا أنها امتدت عبر الخشب كأن السفينة نفسها خريطة.
قال نائل:
— أريد أن أصعد إليها.

أجابه أوران:
— لا.
— لم أسألك.
— وأنا لم أنتظر حتى تسأل.
أُنزل سلم خشبي إلى الرصيف، وبدأ ركاب السفينة بالنزول. كان آخرهم رجل يحمل أسطوانة خرائط مربوطة إلى ظهره، وقد توقف لحظة ونظر نحو الشمال قبل أن تطأ قدماه اليابسة.
داخل دكان أوران، بقي الدرج الذي يحمل الأوراق مفتوحًا.
وفي الصندوق الأسود تحركت إبرة البوصلة ببطء، ثم استقرت نحو السفينة القادمة من ميرازا.



وفي أقصى الجنوب، كانت سيلمارا تستقبل الصباح من جهة البحر.
امتدت عاصمة ميرازا فوق ثلاث جزر كبيرة وعدد من الجزر الصغيرة، وربطت بينها جسور خشبية مرتفعة تسمح للسفن الخفيفة بالمرور تحتها. ازدحمت القنوات بالقوارب قبل أن تمتلئ الشوارع بالمارة، وكان صوت المجاديف يصل إلى البيوت قبل أصوات الباعة.
بُني القصر الملكي فوق الجزيرة الوسطى، قريبًا من الماء حتى إن الموج كان يضرب أساساته عند ارتفاع المد. لم تكن له أسوار عالية، بل أحاطت به أرصفة حجرية وأبراج قصيرة تُرفع فوقها رايات زرقاء داكنة.
في القاعة الشرقية، كانت الملكة تاليا تستمع إلى رجلين يتجادلان حول سفينة محملة بالملح.
قال صاحب السفينة:
— دفعت رسم الدخول عند الجزيرة الأولى.
أجابه مشرف الميناء:
— دفعت رسم العبور، لا رسم الرسو.
— لم ترسُ سفينتي. توقفت لإصلاح الحبل.
— بقيت ثلاثة أيام.
— كان الحبل ممزقًا.
— هل تحتاج حبالكم في الجزر الجنوبية إلى ثلاثة أيام كي تُربط؟
وقف الرجلان أمام مائدة طويلة من خشب داكن، بينما جلست تاليا في الطرف المقابل، تقلب سجل الميناء. كانت في منتصف الأربعين، ترتدي ثوبًا أزرق بلا تطريز، وقد جمعت شعرها خلف رأسها بخيط فضي. وضع تاجها على حامل صغير قرب النافذة، بعيدًا عنها.
سألت صاحب السفينة:
— هل أفرغت شيئًا من حمولتك خلال الأيام الثلاثة؟
— كيسين، يا مولاتي. أصابهما الماء.
نظر مشرف الميناء إليه.
— باعهما في السوق.
قال الرجل بسرعة:
— لم يعد الملح صالحًا للسفر.
رفعت تاليا عينيها عن السجل.
— لكنه كان صالحًا للبيع.
لم يجب.
أغلقت السجل.

— تدفع رسم الرسو عن يوم واحد، وتدفع ضريبة ما بعته. أما اليومان الآخران فيُعفيان لأن الضرر مثبت في سجل الحوض.
قال مشرف الميناء:
— لكنه بقي ثلاثة أيام كاملة.
— وبقي حوض الإصلاح مغلقًا يومًا لأن عمال الميناء كانوا يصلحون سفينة الحرس.
تردد المشرف، ثم انحنى.
التفتت تاليا إلى صاحب السفينة.
— في المرة القادمة، إذا بعت من حمولتك فأنت لا تصلح حبلًا، بل تتاجر.
قال الرجل:
— نعم، يا مولاتي.
غادرا القاعة، ودخل بعدهما كاتب يحمل لوحين من الخشب مربوطين بحبل.
وضعهما أمام الملكة وقال:
— قائمة السفن التي لم تصل هذا الأسبوع.
مررت تاليا إصبعها فوق الأسماء.
— أربع سفن من الجزر الشرقية؟
— ثلاث، يا مولاتي. الرابعة أرسلت خبرًا من ميناء أوزال. تعطلت دفتها.
— وسفينة القمح؟
— لم تغادر ألدوريا بعد.
رفعت رأسها.
— كان عليها أن تصل قبل ستة أيام.
جاءها صوت من قرب النافذة:
— سفن القمح لا تبحر حين يكون أصحابها قادرين على رفع السعر وهم في الميناء.
كان كايلان يقف أمام خريطة بحرية معلقة على الجدار. تجاوز الخمسين بقليل، عريض الكتفين، وقد ترك الملح أثره الأبيض الدائم على حذائه ومعطفه مهما حاول خدم القصر تنظيفهما. حمل لقب رئيس الأساطيل، لكنه بدا في القاعة مثل قبطان عاد لتوه من رحلة طويلة.
قالت تاليا:
— هل أرسلوا طلبًا جديدًا؟
— سيصل قبل الظهر.

— وكم سيطلبون؟
— أكثر مما يستحق القمح، وأقل مما يستطيع الجائعون دفعه.
أعادت الملكة اللوحين إلى الكاتب.
— افتحوا المخزن الجنوبي. نبيع للجزر الصغيرة بالسعر القديم حتى تصل السفن.
قال الكاتب:
— سيكفينا المخزون اثني عشر يومًا فقط.
أجاب كايلان:
— عشرة إذا سمع التجار أن المخزن فُتح.
قالت تاليا:
— لهذا لن يسمعوا.
نظرت إلى الكاتب.
— تُرسل الحصص مباشرة إلى مجالس الجزر. لا بيع في الميناء، ولا عربات تحمل ختم القصر.
انحنى الكاتب وغادر.
بقي كايلان أمام الخريطة.
قالت الملكة:
— أنت تنظر إليها منذ دخلت.
— لأنني لا أحب الخرائط التي تتغير من دون إذني.
نهضت تاليا واقتربت منه.
كانت الخريطة تمثل مياه ميرازا والجزر المحيطة بها. رُسمت الممرات الآمنة باللون الأزرق، والصخور القريبة من السطح بالأسود، وظهرت خطوط المد حول الموانئ بدرجات خضراء رقيقة.
أشار كايلان إلى طريق يمر شرق جزيرة صغيرة.
— عبرت ثلاث سفن من هنا هذا الشهر، وكل واحدة قالت إن التيار دفعها نحو الغرب.
— التيارات تتحرك.
— ليس بهذه السرعة.
— ربما أخطأ الرسام.
— الرسام كان على إحدى السفن.
دخلت سافيرا وهي تحمل لفافة كبيرة تحت ذراعها.
قالت قبل أن تصل إلى المائدة:

— لم يخطئ الرسام.
نظر إليها كايلان.
— كنت سأنتظر حتى تسأليني عما نتحدث.
— كنت سأنتظر لو لم يكن صوتك يصل إلى الرصيف.
كانت سافيرا أصغر من الملكة ببضع سنوات، نحيلة، ذات شعر أسود قصير لا يناسب ما اعتاده أهل القصر من ضفائر طويلة. ارتدت فوق ثوبها حزامًا عريضًا علقت به أقلام وأداة قياس نحاسية ومفتاحان صغيران.
وضعت اللفافة فوق المائدة وفتحتها.
ظهرت خريطة جديدة للجزيرة الشرقية والمياه المحيطة بها. كان أحد خطوط التيار يخرف بوضوح عما هو مرسوم في الخريطة المعلقة.
قالت:
— أعدنا القياس من ثلاث سفن مختلفة. التيار يتحرك غربًا منذ أحد عشر يومًا.
سأل كايلان:
— بسبب ماذا؟
— لو كنت أعرف، لما جئت بالخريطة.
— كنت ستأتين لتخبرينا أنك تعرفين.
قالت تاليا:
— هل يشكل خطرًا على السفن؟
أجابت سافيرا:
— ليس الآن. لكنه يدفعها بعيدًا عن المنارات. سفينة لا تعرف هذه المياه قد تصل إلى الممر الحجري بدل القناة الجنوبية.
— أرسلوا علامات عائمة.
قال كايلان:
— أرسلناها. انجرفت ليلًا.
— ثبّتوها بسلاسل أطول.
— فعلنا.
نظرت سافيرا إلى رئيس الأساطيل.
— السلسلة لم تنقطع. الوتد خرج من قاع البحر.
ساد صمت قصير.

قالت تاليا:

— هل كانت الأرض رخوة؟

— لم تكن رخوة عندما ثُبت الوتد قبل شهر.

لفت سافيرا طرف الخريطة، ثم أخرجت من حزامها ورقة صغيرة.

— وهذا ليس التغير الوحيد. ارتفع الماء حول الجزيرة الغربية ثلاث مرات من دون مد، ثم عاد إلى مستواه قبل أن يصل إلى البيوت.

قال كايلان:

— عاصفة بعيدة.

— لم تسجل أبراج الطقس أي عاصفة.

— الأبراج تخطئ.

— ليست كلها في الوقت نفسه.

اتجه كايلان إلى النافذة.

كان الميناء الملكي ظاهراً من القاعة. تحركت السفن ببطء بين الأرصفة، ومر قارب صغير يحمل سلال السمك تحت أحد الجسور. على الرصيف المقابل، كان العمال يرفعون شراعاً جديداً فوق سفينة زرقاء.

سألته تاليا:

— ماذا عن سفينة النورس؟

— غادرت قبل ثلاثة أيام.

رفعت سافيرا رأسها.

— كان عليها أن تنتظر خرائط الساحل الجديدة.

— القبطان قال إن تأخر يوماً آخر فلن يلحق بالرياح الشمالية.

— والآن يحمل رسامك خرائط قديمة.

قال كايلان:

— يحمل رسامك أنت.

— أرسلته ليرسم المرافئ، لا ليضيع بينها.

سألت تاليا:

— إلى أين تتجه السفينة؟

أجاب كايلان:

— إلى موانئ الشمال. ستتوقف في القرى الصغيرة قبل أن تتابع نحو إيفارا.

قالت سافيرا:
— إذا دفعها التيار غربًا فلن تصل إلى الميناء الأول.
— ستصل إلى غيره.
نظرت إليه.
— هذه ليست طريقة جيدة لرسم الخرائط.
ظهرت ابتسامة قصيرة على وجه تاليا، لكنها اختفت عندما دوى جرس من جهة الميناء.
كانت ضربة واحدة طويلة.
تبادل كايلان وسافيرا النظرات.
جاءت الضربة الثانية، ثم الثالثة.
تحرك كايلان نحو الباب.
— هذا نداء انخفاض الماء.
قالت تاليا:
— ليس موعد الجزر.
— أعرف.
فتح الباب قبل أن يصل إليه الحارس. كان رجل من حرس الميناء يصعد الدرج مسرعًا، وقد ابتلت ساقاه حتى الركبتين.
قال وهو يحاول التقاط أنفاسه:
— يا مولاتي، الماء ينسحب من الحوض الملكي.
سأله كايلان:
— كم انخفض؟
— بلغ السلم السفلي.
— متى بدأ؟
— منذ لحظات. كان المد يرتفع، ثم توقف.
اتجهت تاليا إلى الشرفة.
تجمع الناس على الأرصفة، ينظرون نحو الماء. كانت السفن تميل إلى جانب واحد، والحبال المشدودة إلى الأعمدة تصدر أصواتًا حادة. ظهرت الصخور القريبة من القصر، ثم اتسعت المساحات الداكنة حولها كلما تراجع البحر.
صاح كايلان بالحارس:
— أخلوا الأرصفة السفلية. ارفعوا الناس إلى الجسور وأبعدوا السفن الكبيرة عن المدخل.

قال الحارس:

— هل نتوقع موجة؟

— تصرفوا كأنها قادمة.

غادر الرجل مسرعًا.

قالت تاليا:

— هل يمكن أن يكون زلزالًا؟

أجاب كايلان:

— لم أشعر بشيء.

قالت سافيرا:

— لا تنسحب المياه من حوض واحد بسبب زلزال.

أشارت نحو القناة الشرقية.

كان الماء هناك ما يزال عند مستواه المعتاد. القوارب تتحرك، والمجاديف تضرب سطحه بصورة طبيعية. أما أمام القصر، فقد استمر البحر في التراجع داخل مساحة واسعة تحدها الأرصفة من ثلاث جهات.

قال كايلان:

— كأن شيئًا يدفعه إلى الخلف.

نزل الثلاثة إلى الميناء.

كانت الأوامر تتردد بين الجسور، والعمال يركضون لفك الحبال قبل أن تنقلب السفن. حمل بعض البحارة أطفالهم إلى الدرجات العليا، وترك الصيادون صناديقهم مفتوحة على الرصيف.

عند وصول الملكة، كان قاع الحوض قد ظهر.

بقيت الأسماك الصغيرة تتحرك في البرك، وانتشرت الأعشاب البحرية فوق الطين، لكن وسط الحوض لم يكن مغطى بالطين.

ظهرت هناك درجات حجرية.

انحدرت من الرصيف الملكي إلى الأسفل، مستقيمة وعريضة، وقد غطت أطرافها قواقع بيضاء. لم تكن الدرجات متصلة بأي بناء ظاهر، ولم يعرف أحد كيف بقيت تحت الميناء من دون أن تكتشفها المراسي والحبال طوال السنين.

وقف كايلان عند أول درجة.

قال:

— لا ينزل أحد.

اقترب عامل مسن من الحافة.

— هذه لم تكن هنا.
سأله كايلان:
— منذ متى تعمل في الحوض؟
— منذ كنت صبيًا.
— وهل جف الماء أمامك من قبل؟
— مرة واحدة بعد عاصفة الجنوب، لكننا لم نرَ إلا الطين والصخور.
جثت سافيرا قرب أول درجة، من دون أن تطأها. مسحت بيدها طبقة رقيقة من الأعشاب.
ظهر خط محفور في الحجر.
قالت تاليا:
— ما هذا؟
لم تجب سافيرا.
أزالت مزيدًا من الأعشاب، فظهر خط ثانٍ يتقاطع مع الأول، ثم دائرة غير مكتملة.
اقترب كايلان.
— هل تعرفينها؟
قالت:
— أحتاج إلى رؤية الباقي.
— سألتك إن كنت تعرفينها.
رفعت عينيها إليه.
— وأجبتك بما أستطيع.
أمرت تاليا بإحضار الحبال والمصابيح. رُبِط ثلاثة من عمال الميناء حول خصورهم، ثم نزلوا الدرجات بحذر، يحمل كل واحد منهم عصًا طويلة يختبر بها الحجر أمامه.
وصلوا إلى القاع.
لم تنتهِ الدرجات عند الطين، بل اتصلت بطريق من الحجارة البيضاء يمتد عبر الحوض نحو فتحة الميناء. كانت الحجارة متساوية، واسعة بما يكفي لمرور عربتين، ولم تغطها الأعشاب إلا عند الحواف.
قال أحد العمال:
— الطريق ثابت.
صاح كايلان:

— لا تبتعدوا.
تقدم الرجل خطوة أخرى.
انزلقت العصا من يده وسقطت خارج الطريق. غاص نصفها في الطين.
قال:
— الحجر تحته صلب، لكن الجانبين رخوَان.
وقفت سافيرا.
— أين يتجه؟
نظر كايلان إلى الشمس، ثم إلى أبراج الميناء.
— نحو الشمال.
تابع الطريق امتداده بين الصخور حتى بلغ مدخل الحوض، ثم غاب تحت الماء الذي لم يتراجع خارج الميناء.
قالت تاليا:
— هل توجد في السجلات إشارة إلى بناء طريق هنا؟
لم يجب أحد.
التفتت إلى سافيرا.
كانت ناظرة دار الطرق البحرية تحدق في الحجارة، وقد اختفى اللون من وجهها.
قالت الملكة بصوت منخفض:
— سافيرا.
أجابت من دون أن تنظر إليها:
— لا يوجد سجل بناء.
— هل توجد إشارة أخرى؟
أغلقت سافيرا يدها فوق أداة القياس المعلقة بحزامها.
— توجد حكاية.
قال كايلان:
— لسنا في وقت الحكايات.
— لهذا السبب خُبئت داخلها الحقيقة.
وقبل أن يسألها، جاء صوت من أعماق الميناء.
لم يكن انفجارًا ولا اصطدام سفينة بصخرة.
كان صوت جرس.

ارتج الحجر تحت أقدامهم، وتحركت برك الماء الصغيرة فوق قاع الحوض.
دقت الضربة الأولى بطيئة وعميقة.
رفع الناس رؤوسهم نحو أبراج الميناء، لكن أجراسها ظلت ساكنة.
جاءت الضربة الثانية من تحت الطريق.
ثم الثالثة.
أمر كايلان العمال بالصعود، فتراجعوا نحو الدرج من غير أن يلتفتوا.
دق الجرس للمرة الرابعة، واهتزت الحبال المعلقة على السفن.
الخامسة.
توقف البحارة عن الحركة.
السادسة.
خرجت طيور البحر من فوق أسطح المخازن، وارتفعت دفعة واحدة نحو السماء.
السابعة.
ساد الصمت.
بقي الجميع ينتظرون، لكن الماء لم يتحرك، ولم تأتِ ضربة أخرى.
قال كايلان:
— سبع دقات.
ظلت سافيرا تنظر نحو الطريق.
— انتظر.
مر وقت بدا أطول مما كان. تحرك أحد الحراس، فرفعت تاليا يدها وأوقفته.
ثم جاءت الضربة الثامنة.
كانت أعمق من سابقاتها، حتى إن الغبار تساقط من بين حجارة الرصيف.
تراجع كايلان خطوة.
أغمضت سافيرا عينيها لحظة.
قالت الملكة:
— أخلوا الميناء.
رفع كايلان صوته وأمر الجنود بإبعاد الناس عن الحوض وإغلاق الجسور المؤدية إليه.
اعترض أصحاب السفن، وبدأت الأسئلة تنتشر بين العمال، لكن الحرس دفعوهم إلى الخارج من دون عنف.
بقيت تاليا حتى خرج آخر العمال، ثم نزلت درجة واحدة.

قال كايلان:
— يا مولاتي، لا نعرف ما تحت الطريق.
— ولهذا لن أنزل أكثر.
انحنت ومسحت ما بقي من الأعشاب عن الحجر الأول.
ظهر النقش كاملًا: دائرة غير مكتملة يعبرها خط متعرج، وينتهي في وسطها بنقطة صغيرة.
توقفت يدها.
كانت العلامة تشبه الرمز المنقوش داخل بوصلة أوران، لكنها لم تكن تعرف ذلك.
قالت:
— هل هذه هي الحكاية؟
أجابت سافيرا:
— جزء منها.
نظرت الملكة إلى الحراس الواقفين بعيدًا.
— نعود إلى القصر.
قال كايلان:
— والطريق؟
— يُحرس ولا يطؤه أحد. من يقترب منه يُعاد إلى الرصيف، ولا يُعتقل ما لم يحاول أخذ شيء.
— خلال ساعة ستعرف الجزر كلها.
قالت تاليا:
— ستعرف أن الماء انخفض. أما ما ظهر تحته، فلن تعرفه إلا ممن كان هنا.
نظر كايلان إلى عشرات النوافذ المطلة على الميناء.
— إذن ستعرف كل شيء قبل الغروب.
— لكننا سنعرف أكثر منها قبل ذلك.
عاد الثلاثة إلى القاعة الشرقية، وأُغلقت أبوابها.
أمرت سافيرا خادمًا بإحضار صندوق صغير من دار الطرق البحرية. وصل بعد وقت قصير يحمله حارسان، وقد أُغلق بثلاثة أقفال مختلفة.
فتحت سافيرا القفل الأول بمفتاح من حزامها.
أخرج كايلان مفتاحًا نحاسيًا كان معلقًا في عنقه، وفتح الثاني.
بقي القفل الثالث.
نظرت سافيرا إلى الملكة.

أخذت تاليا تاجها من الحامل، وقلبته. كان في داخله مفتاح قصير من الفضة. أخرجته وفتح القفل الأخير.

احتوى الصندوق على كتاب نحيف ملفوف بقطعة قماش زرقاء باهتة.

قال كايلان:

— رأيت هذا الصندوق مرتين، ولم أرَ ما فيه.

أجابته سافيرا:

— لأنك لم تكن تحتاج إلى رؤيته.

— وهل أحتاج الآن؟

— جميعنا نحتاج.

فتحت الكتاب.

كانت صفحاته مصنوعة من جلد رقيق، والكتابة عليها شاحبة إلى درجة أنها كادت تختفي. قلبت سافيرا الصفحات بحذر حتى توقفت عند رسم صغير لطريق يمتد وسط أمواج متباعدة.

قرأ كايلان السطر المكتوب تحته:

— «حين يتراجع البحر في زمن المد...»

صمت.

تابعت سافيرا:

— «وحين يدق الغارق سبعًا ثم يزيد عليها ما نُسي، يعيد البحر الطريق الذي أخذه، ويكون فتى الخريطة قد خطا أول الطريق.»

ظل كايلان واقفًا من دون حركة.

قالت تاليا:

— أعيدي قراءته.

قرأته سافيرا مرة أخرى.

سألت الملكة:

— ما معنى ما نُسي؟

أجابت:

— المملكة الثامنة.

قال كايلان:

— أو دقة متأخرة من جرس قديم.

نظرت إليه سافيرا.

— جرس لم يعثر عليه أحد، تحت طريق لا يوجد في أي سجل، ظهر حين تراجع البحر في زمن المد.

— أعرف ما رأيت.

— لكنك لا تريد أن تعرف معناه.

قال:

— المعنى لا يغير الحجر.

— بل يغير ما سيفعله الناس بسببه.

جلست تاليا عند المائدة، وبقي الكتاب مفتوحًا أمامها.

— هل يعرف أحد آخر هذا النص؟

قالت سافيرا:

— توجد نسخ ناقصة في دار الطرق. تذكر تراجع البحر والجرس، لكنها لا تذكر الفتى ولا المملكة الثامنة.

— لماذا حُذفا؟

— لا أعرف. ربما خاف أحد الملوك من النص. وربما رأى أن انتظار فتى مجهول يُضعف العرش.

قال كايلان:

— أو ربما أضافهما ناسخ أراد أن يجعل الحكاية أجمل.

أشارت سافيرا إلى الرسم أسفل الصفحة.

كان يحمل العلامة نفسها التي ظهرت على أول درجة.

لم يجادل هذه المرة.

سألت تاليا:

— إذا كان النص صحيحًا، فما الذي يحدث بعد ظهور الطريق؟

قلبت سافيرا الصفحة.

كانت ممزقة من منتصفها.

قالت:

— لا نملك الباقي.

نهض كايلان واتجه نحو النافذة.

بدأت أخبار الميناء تصل إلى الأحياء القريبة. امتلأت الجسور بالناس، وظهرت قوارب صغيرة في القنوات تحاول الاقتراب من الحوض الملكي، بينما كان الحرس يعيدها.

قال:

— إذا ظهرت علامات في الممالك الأخرى، فإنها ستبدأ بالتحرك.

— بعضها بدأ بالفعل، قالت تاليا.

نظر إليها.

— تقصدين القمح والحديد؟

— قاسران تشتري الطعام، وزافرين تشتري الحديد والخشب، وإيفارا تبحث عن نباتات بحر السكون. لم تكن تلك تجارة عادية.

قالت سافيرا:

— ربما ظهرت علاماتهم قبل علامتنا.

— أو عرفوا أنها ستظهر.

سأل كايلان:

— وهل سنبحث عن الفتى؟

أغلقت تاليا الكتاب.

— ليس بجنود.

— إذا كان موجودًا، فستبحث عنه ممالك أخرى.

— ولهذا لن نرسل رجالًا يسألون في كل ميناء عن فتى يحمل خريطة. سنكون بذلك أول من يخبر أعداءه بما نبحث عنه.

قالت سافيرا:

— يمكنني إرسال رسامي الطرق. يسألون عن الخرائط الغريبة، لا عن أصحابها.

— أرسليهم إلى المرافئ التي تغيرت فيها التيارات. لا تعطيهم النص، ولا تخبريهم بالفتى.

قال كايلان:

— وماذا عن الطريق؟

— نتبعه.

— إنه ينتهي عند الماء.

— إذن نتبعه بالسفن.

أشار إلى الحوض.

— لا أرسل سفينة فوق طريق خرج من البحر قبل أن أعرف إن كان البحر سيعود.

قالت تاليا:

— انتظر حتى يعود. ثم أرسل أخف سفينتين لديك. واحدة تتبع امتداده، والثانية تبقى خلفها.

— ومن يقودهما؟
— أنت تعرف بحارتك.
فكر قليلًا.
— أعرف من يستطيع العودة. لا أعرف من يستطيع اتباع طريق لا يظهر.
قالت سافيرا:
— خذ نسخة من النقش. قد يظهر على الصخور أو الجزر.
نظرت تاليا إليها.
— وسفينة النورس؟
— بعيدة الآن، قال كايلان. ربما وصلت إلى أول موانئ الشمال.
قالت سافيرا:
— تحمل أحد رسامي دار الطرق.
— أعرف.
— ومعه خرائط الساحل القديمة.
— أعرف ذلك أيضًا.
قالت الملكة:
— لا نستطيع استعادتها قبل أن تصل.
سأل كايلان:
— أرسل خلفها سفينة سريعة؟
نظرت تاليا من النافذة إلى الطريق الأبيض الممتد نحو الشمال.
— لا.
التفت إليها سافيرا.
قالت الملكة:
— دَعها تكمل رحلتها. إذا كانت التيارات قد دفعتها إلى غير وجهتها، فسنعرف إلى أين أخذها البحر.
قرب الظهيرة، بدأ الماء يعود.
لم يندفع كموجة، بل تقدم ببطء من مدخل الميناء، وغطى أولًا الحجارة البعيدة، ثم اقترب من الدرجات. بقي الحرس فوق الأرصفة، بينما راقب كايلان مستوى البحر من برج الميناء، وسجلت سافيرا كل خطوة اختفت تحته.
غابت الحجارة واحدة بعد أخرى.

اختفى الطريق، ثم غمرت المياه الدرجات السفلى. وعندما وصل البحر إلى الدرجة الأولى، بقي النقش ظاهراً لحظة تحت سطح صافٍ لا تحركه الأمواج.
ثم غاب.
عادت السفن إلى الاعتدال، وامتلأ الحوض بالماء حتى بلغ مستواه المعتاد. خرج الناس إلى الجسور، ونزل بعض العمال إلى الأرصفة، لكن أحداً لم يقترب من الموضع الذي ظهر فيه الطريق.
وقفت تاليا عند النافذة المفتوحة.
قال كايلان:
— انتهى.
أجابته سافيرا:
— لم يبدأ بعد.
على المائدة، كان الكتاب القديم مغلقًا.
لكن الورقة التي وضعتها سافيرا تحته امتصت شيئًا من رطوبته. ظهر عليها خط باهت لم ترسمه يد، بدأ من سيلمارا واتجه شمالًا عبر البحر.
وفي نهايته، عند مساحة خالية بين الممالك، ظهرت نقطة صغيرة.
حين مالت الشمس نحو البحر، كانت سفينة ميرازا لا تزال راسية عند الرصيف، وقد تحولت في ساعات قليلة إلى أكثر مكان ازدحامًا في القرية.
تجمع الصيادون حول هيكلها الأزرق يتفحصون الخشب الذي لم يألفوه، ووقف الأطفال قرب الحبال الغليظة يراقبون البحارة وهم ينزلون البراميل والصناديق. أما التجار، فقد بدأوا يسألون عن البضائع قبل أن يعرفوا إن كانت السفينة جاءت لتبيع شيئًا أصلًا.
كان نائل قد أمضى معظم النهار عند الميناء.
دار حول السفينة أكثر من مرة، وعدّ نوافذها وحبالها، ثم حاول إقناع أحد البحارة بأن يسمح له بالصعود إلى سطحها بحجة أنه يعرف الخليج أكثر منهم. وحين لم ينجح، وقف عند مقدمتها يتفحص الخطوط الدقيقة المحفورة في الخشب، تلك التي بدت له كطرق متشابكة لا تبدأ من مكان ولا تنتهي عند آخر.
جلس أوران تحت مظلة مخزن قريب، واضعًا عصاه بين ركبتيه، بينما ظل نظره يتنقل بين السفينة ونائل والرجل الذي نزل منها حاملًا أسطوانة الخرائط.
لم يسأل عن اسمه، ولم يقترب منه فور وصوله. بقي ينتظر حتى أنهى الرجل حديثه مع حارس الميناء، ثم رآه يخرج من الأسطوانة خريطة مطوية ويقارن الساحل المرسوم عليها بالصخور المحيطة بالخليج.

كان الرجل يعيد النظر إلى الخريطة كل مرة، كأنه ينتظر منها أن تعترف بخطأ ارتكبته.
اقترب منه نائل قبل أن يتحرك أوران.
قال وهو يشير إلى طرف الخريطة:
— إذا كنت تبحث عن الممر المؤدي إلى الرصيف الشرقي، فلن تجده هناك. الصخور تغيرت بعد عاصفة الشتاء، والتيار يدفع القوارب الصغيرة إلى الجهة الأخرى منذ ذلك الوقت.
رفع الرجل رأسه وحدق فيه.
— ومن أخبرك أنني أبحث عن الممر الشرقي؟
— لأنك تنظر إلى الصخرة الطويلة، ثم تعود إلى الخط المرسوم بجانبها. كل من يرى الخليج أول مرة يظن أن الممر يمر من هناك، لكنه سينتهي بقاربه فوق الحجارة إذا حاول.
طوى الرجل الخريطة قليلًا وسأله:
— وهل تعمل في الميناء؟
— عندما يحتاج العم هازم إلى إصلاح الشباك، وعندما لا تجد أمي عملًا آخر ترسلني إليه، وعندما لا يقرر أوران أن رسم طريق أعرفه أفضل من رؤية سفينة لم أرَ مثلها من قبل.
نظر الرجل إلى الجهة التي أشار إليها نائل، فرأى أوران جالسًا تحت المظلة.
تغيرت ملامحه لحظة، ثم أعاد لف الخريطة واتجه نحوه.
قال عندما وصل:
— أنت رسّام الخرائط؟
رفع أوران عينيه إليه.
— هذا يتوقف على الخريطة. بعضها يحتاج إلى رسّام، وبعضها يحتاج إلى من يخبر صاحبها بأنه أضاع الطريق.
لم تعجب الرجل الإجابة، لكنه جلس فوق صندوق مقلوب ووضع الخريطة بينهما.
— خرجنا من سيلمارا متجهين إلى موانئ الشمال. كان علينا أن نصل إلى الساحل بعد أربعة أيام، لكن التيار دفعنا بعيدًا عن المسار، وكلما حاولنا العودة وجدنا أنفسنا نتقدم في الاتجاه نفسه.
قال نائل:
— لو كنتم تتقدمون، فلماذا حاولتم العودة؟
ألقى أوران عليه نظرة قصيرة.
— لأن الوصول إلى مكان لم تقصده لا يعني أنك لم تضل الطريق.
فتح الرجل الخريطة وثبت أطرافها بأربع قطع صغيرة من الحديد. كانت تمثل الجزر الشمالية لسيلمارا والبحر الممتد بعدها، وقد رُسم عليها خط أزرق يحدد الطريق الذي كان ينبغي للسفينة أن تسلكه.

إلى جانبه ظهر خط آخر باهت، منحنيًا نحو الغرب.
وضع أوران إصبعه قرب بدايته من دون أن يلمسه.
— من رسم هذا؟
— لم يرسمه أحد. ظهر بعد الليلة الثانية من الرحلة. ظننا أن الماء كشف حبرًا قديمًا، لكن الخط استمر في الامتداد كلما تقدمت السفينة.
مال نائل فوق الخريطة.
— وينتهي هنا، عند قريتنا.
قال الرجل:
— لم يكن ينتهي هنا هذا الصباح. كان أقصر.
ساد الصمت لحظة، فيما استمرت أصوات الميناء حولهم بصورة طبيعية؛ حبل يُسحب فوق الخشب، وبرميل يسقط على جانبه، ورجل يساوم بحارًا على ثمن سمك لم يصطده أي منهما.
سأل أوران:
— ومتى اضطربت البوصلات؟
حدق فيه الرجل.
— لم أقل إن البوصلات اضطربت.
— لو بقيت تشير إلى جهة واحدة، لما احتجت إلى سؤال رسّام خرائط في قرية لا تظهر في خرائطك البحرية.
مسح الرجل بيده فوق لحيته القصيرة، ثم قال:
— بدأت الإبر بالدوران عندما مررنا قرب أطراف بحر السكون. توقفت بعد ساعة، لكنها لم تعد تشير إلى الشمال. أشارت إلى المسار الذي رسمه هذا الخط.
— وهل اتبعتموه؟
— لم يكن أمامنا غيره. كانت الريح تدفعنا نحوه، والتيار يتحرك تحته، وكل محاولة للابتعاد عنه كانت تعيدنا إلى الموضع نفسه.
أمسك نائل طرف الخريطة ورفعها قليلًا نحو الضوء.
— ربما لم يكن الخط يقودكم إلى القرية. ربما كان يقود السفينة إلى شيء موجود فيها.
نظر الرجل إليه، ثم نظر إلى أوران.
لم يعلق العجوز على كلام نائل. بقيت عيناه فوق الخط الباهت، تتحركان معه من سيلمارا إلى الخليج، ثم تتوقفان عند النقطة التي ظهرت قرب القرية.
في الجهة الأخرى من الرصيف، صاح أحد البحارة محذرًا.

انقطع حبل كان يرفع صندوقًا كبيرًا من جوف السفينة، وانطلق طرفه في الهواء. مال الصندوق فوق الحافة، وتراجع العمال من تحته، بينما بقي نائل واقفًا في موضعه وقد شغله النظر إلى الخريطة عن رؤية ما يحدث خلفه.

تحرك أوران قبل أن يصل الصياح إليه.

أمسك نائل من كتفه وجذبه إلى جانبه، ثم رفع عصاه في اللحظة نفسها. اصطدم بها الحبل المنطلق فتغير اتجاهه، ومر طرفه فوق رأسيهما قبل أن يلتف حول عمود الرصيف.

سقط الصندوق فوق الخشب وتحطم أحد أركانه.

ابتعد البحارة عنه، ثم أسرع اثنان منهم لإعادة تثبيت الحبال.

نظر نائل إلى أوران، ثم إلى العصا.

— لم أرك تتحرك.

أعاد أوران وضع العصا بين ركبتيه.

— لأنك كنت تحاول معرفة ما إذا كانت الخريطة تبحث عن السفينة أم عن القرية.

قال الرجل القادم من ميرازا:

— لو أصابتك تلك العقدة، لكسرت ذراعك.

تفحص أوران العصا كما لو أنه يتأكد من سلامتها.

— لكنها لم تصبني.

اقترب نائل منه وحاول أخذها.

— دعني أراها.

أبعدها أوران عن يده.

— إنها عصا.

— والعصي العادية لا تغيّر طريق حبل بهذه السرعة.

— الحبال لا تفكر قبل أن تغير طريقها، ولهذا يسهل إقناعها.

ظل نائل ينظر إليه بشك، لكن الرجل أعاد فتح الخريطة وقال:

— سنبقى ثلاثة أيام لإصلاح الصاريِ الأمامي وتبديل بعض الحبال. أستطيع أن أدفع لك مقابل نسخة صحيحة من الساحل، وإذا عرفتَ ما الذي حدث لخطنا فسأدفع أكثر.

قال أوران:

— اترك الخريطة عندي هذه الليلة.

تردد الرجل.

— هذه من سجلات دار الطرق البحرية.

— إذن كان ينبغي لدار الطرق أن ترسم عليها طريقًا لا يغير موضعه أثناء الإبحار.
— لا أستطيع تركها خارج السفينة.
— تستطيع أن تبقى معها في دكاني إن كنت تخشى أن تهرب وحدها.
رفع نائل رأسه بسرعة.
— لا يوجد مكان لرجل آخر في الدكان.
قال أوران:
— كان يوجد مكان قبل أن تبدأ بالدخول إليه كل صباح.
وافق الرجل أخيرًا على إحضار الخريطة بعد انتهاء العمل، ثم طواها وعاد إلى السفينة.
ظل أوران جالسًا حتى ابتعد، وبعدها نهض من غير أن يقول شيئًا واتجه نحو الطريق الصاعد إلى التلة.
لحق به نائل.
— كنت تعرف أن البوصلات دارت قبل أن يخبرك.
— السفن التي تصل متأخرة تحمل عادة أخبارًا عن الريح والتيار والأدوات التي لم تعمل كما ينبغي.
— وسألت عن البوصلات تحديدًا.
— لأن سؤاله عن الملاعق لم يكن سيساعدنا.
مشى نائل إلى جانبه، محاولًا أن يبطئ خطواته حتى لا يبدو أنه يركض خلفه.
— والخط الذي ظهر فوق الخريطة؟
— سنراه عندما يحضره.
— لقد رأيناه الآن.
— رأينا جزءًا منه. من يقرر ما تعنيه الخريطة بعد النظر إليها لحظة، يشبه من يقرر وجهته لأنه رأى أول حجر في الطريق.
— لكن الخط انتهى عند القرية.
توقف أوران عند بداية الطريق الصاعد، والتفت إلى السفينة.
كانت الأشرعة قد أُنزلت، وتحرك البحارة فوق السطح وهم يثبتون الحبال الجديدة. أما الخطوط المحفورة في جانبها، فقد بدت تحت ضوء الغروب أكثر وضوحًا، وامتد أحدها من مقدمة السفينة حتى بلغ الطائر الخشبي المنحوت فوقها.
قال أوران:
— الخطوط لا تنتهي دائمًا حيث نتوقف عن الظهور.

لم يفهم نائل ما يقصده، لكنه عرف من نبرة صوته أن السؤال التالي لن يحصل على جواب أفضل.

وصلا إلى الدكان بعد غروب الشمس بقليل.

أشعل أوران المصباح وفتح النوافذ، ثم بدأ يزيح الخرائط عن الطاولة. لم يكد ينتهي حتى وصل الرجل القادم من ميرازا، يحمل الخريطة داخل أسطوانتها ويشدها إلى صدره كأنها شيء يمكن سرقته بالنظر.

ظل في الدكان أكثر من ساعة.

تحدث عن الجزر والتيارات والليالي التي لم تظهر فيها النجوم فوق بحر السكون. سأل أوران عن عمق الماء واتجاه الريح وموقع الشمس عندما بدأت الإبر بالدوران. لم يكن يسجل كل الإجابات، بل اختار بعضها وترك بعضها الآخر، كأنه يعرف مسبقًا أي الكلمات يحتاج إليها.

أما نائل، فجلس قرب النافذة يرسم مسار السفينة فوق إحدى أوراقه.

عندما غادر الرجل، أغلق أوران الباب ووضع العارضة الخشبية خلفه.

قال نائل:

— سيعود في الصباح؟

— نعم.

— وهل عرفت ما الذي حدث؟

— عرفت أن ما حدث لم يبدأ في البحر.

اقترب نائل من الخريطة، لكن أوران لفها ووضعها داخل الأسطوانة.

— ظننت أننا سنفحصها.

— أنا سأفحصها. أنت سترسم الطريق الذي وصفه الرجل من الذاكرة.

احتج نائل:

— تحدث ساعة كاملة، وغيّر الاتجاه أكثر من عشر مرات.

— البحر يفعل ذلك أحيانًا.

— أحتاج إلى الخريطة.

— لو كانت الخريطة تكفي، لما جاء بها إليّ.

وضع أمامه ورقة وقلمًا، ثم جلس في الطرف الآخر من الطاولة. بدأ نائل يرسم الجزر التي ذكرها الرجل، ووضع خطًا يمثل اتجاه الريح وآخر يمثل التيار. أخطأ في موضع جزيرتين، فمحاهما وأعادهما. وعندما بلغ أطراف بحر السكون، توقف القلم بين أصابعه.

— ماذا يوجد هنا؟

قال أوران:

— ماذا قال البحار؟
— قال إنهم لم يروا شيئًا.
— إذن ارسم ما قاله.
— لا أستطيع رسم لا شيء.
— لهذا تتركه فارغًا.
رسم نائل حدود المساحة، ثم ترك وسطها أبيض. تابع خط السفينة حولها، لكنه وجده يعود إلى الموضع نفسه كلما حاول وصله بالساحل.
ظل يحاول حتى نفد صبره، فوضع القلم وقال:
— الطريق لا يستقيم.
أدار أوران الورقة نحوه.
— لأنه لم يكن يسير فوق البحر الذي تعرفه.
رفع نائل عينيه.
بقي أوران لحظة ينظر إلى الرسم، ثم أخذ القلم وأضاف نقطة صغيرة قرب طرف المساحة الفارغة. لم يكتب اسمًا بجانبها، ولم يرسم جزيرة أو ساحلًا.
قال نائل:
— ما هذه؟
أعاد إليه القلم.
— المكان الذي يجب أن تبدأ منه إذا أردت أن تفهم إلى أين كانت السفينة ذاهبة.
— لكنه غير موجود.
— قلت الشيء نفسه عن التيار قرب الخليج قبل أن ترى أثره في قاربك.
— وهل رأيت أثر هذا المكان؟
لم يجبه أوران.
نهض واتجه إلى الرفوف. أخذ يختار منها لفافات محددة، يتفحص كل واحدة ثم يضعها فوق الصندوق الكبير قرب الجدار. اختار خريطة للساحل الشمالي، وأخرى لحدود رهفان، وثالثة لم تحمل اسمًا على غلافها.
راقبه نائل بعض الوقت.
— ماذا تفعل؟
— أرتب الدكان.
نظر نائل إلى الخرائط التي جمعها.

— منذ عرفتك وأنت تقول إن ترتيب الدكان يفسد أماكن الأشياء.
— ربما تغيرت أماكن الأشياء.
أخرج أوران حقيبة جلدية قديمة من تحت الطاولة، ونفض عنها الغبار. فحص أحزمتها، ثم وضع داخلها عدستين وقارورة حبر وبكرة خيط وبعض الأدوات الصغيرة.
اقترب نائل منه.
— هل ستسافر؟
— نحن من سيسافر.
ظن نائل أولًا أنه لم يسمع جيدًا.
— إلى أين؟
أغلق أوران الحقيبة، ثم جلس أمامه وقال بصوت لم يحمل مزاحه المعتاد:
— لقد رسمت القرية والرصيف والوادي، وحفظت الطرق التي تستطيع أن تعيدك إلى بيتك حتى لو مشيتها ليلًا، لكن رسّام الخرائط الذي لا يرى إلا الأرض التي وُلد فوقها سينتهي به الأمر إلى رسم خوفه كلما حاول أن يرسم العالم. حان الوقت لتتعلم كيف تُرسم الطرق التي لا تعرف أين تنتهي.
اتسعت عينا نائل.
— متى؟
— ليس قبل أن نتحدث إلى أمك.
— إذا بدأنا بالحديث إليها، فقد تنتهي الرحلة قبل أن تبدأ.
— لهذا سنتحدث إليها أنا وأنت، ولن تذكر المرة التي عدت فيها من الوادي بثوب ممزق، ولا القارب الذي أخذته من دون إذن، ولا اليوم الذي أضعت فيه سلة الخبز لأنك كنت تتبع طائرًا.
— لم أضع السلة. وجدتها بعد ذلك.
— في بيت الصياد الذي أكل كلبه نصف الأرغفة.
— بقي النصف الآخر.
لم يبتسم أوران.
أدرك نائل عندها أن الأمر حقيقي.
نظر إلى الحقيبة، ثم إلى الخرائط الموضوعة فوق الصندوق.
— هل سنذهب مع سفينة ميرازا؟
قال أوران:
— قد نبدأ معها.

— وإلى أين بعدها؟
— إلى طريق أعرف بدايته، وقضيت وقتًا طويلًا أتمنى ألا أضطر إلى معرفة نهايته.
كان في صوته شيء جعل نائل يتوقف عن طرح الأسئلة، لكنه لم يستطع إخفاء الفرحة التي ظهرت في وجهه. نهض واتجه نحو الباب.
— سأخبر يامن.
قال أوران:
— لن تخبر أحدًا قبل أن نتحدث إلى أمك.
— سأخبره أننا قد نسافر.
— ولن تقول ذلك أيضًا.
— يمكنني أن أخبره أنني لن أكون موجودًا بضعة أيام.
— لا تعرف كم سنغيب.
توقفت يد نائل فوق العارضة الخشبية.
استدار ببطء.
— كم سنغيب؟
قال أوران:
— خذ غدًا ما تحتاج إليه ليوم واحد، وما تستطيع حمله لشهر. إذا لم تفهم الفرق بين الأمرين، فاسأل أمك، فهي تعرف كيف تجعل ما يكفي شهرًا يبدو كأنه زاد يوم واحد.
ظل نائل واقفًا لحظة، ثم فتح الباب وخرج إلى الطريق. سمع أوران خطواته تبتعد مسرعة نحو البيت، رغم أنه أمره بألا يخبر أحدًا.
انتظر العجوز حتى اختفى الصوت.
أغلق الباب من جديد، وثبت العارضة، ثم حمل المصباح إلى الغرفة الخلفية. أخرج المفتاحين وفتح الصندوق الأسود.
وضع البوصلة القديمة فوق الطاولة.
بعدها أزاح صندوقًا صغيرًا من أسفل الرف، ورفع لوحًا خشبيًا لم يكن نائل يعرف أنه يتحرك.
مد يده داخل التجويف وأخرج حزمة طويلة ملفوفة بقماش داكن. بقي ممسكًا بها لحظات، ثم وضعها إلى جانب الخرائط من دون أن يفتحها.
أخرج بعد ذلك عباءتين للسفر.
كانت إحداهما قديمة ومهترئة عند الأطراف، أما الثانية فكانت أصغر حجمًا، كأنها أُعدت منذ زمن لشخص لم يكن قد بلغ بعد طولها المناسب.
فتح البوصلة.

دارت الإبرة ببطء، ثم اتجهت نحو الورقة التي رسم عليها نائل طريق السفينة. توقفت فوق النقطة الصغيرة التي أضافها أوران قرب المساحة الخالية.

جلس العجوز أمامها، ووضع كفه فوق غطاء البوصلة.

لم يكن في الغرفة أحد يسمعه عندما قال:

— تأخرنا بما يكفي.

ثم أخذ الخرائط واحدة بعد أخرى، وبدأ يجهز للرحلة.

وفي الوقت الذي كان أوران يطوي الخرائط في القرية ويضعها إلى جانب العباءتين، كانت تيرافا تستعد لفتح أبواب قاعة الذاكرة.

بُنيت عاصمة إيفارا فوق هضبة حجرية واسعة، ترتفع فيها المعابد والمكتبات على درجات متتابعة، حتى كان القادم إليها من السهول يراها كمدينة صعدت فوق مدينة أخرى. امتدت الشوارع بين أعمدة رمادية نُقشت عليها أسماء الملوك والكتبة وحفظة السجلات، بينما اختفت تحتها ممرات وسراديب لا يعرف الناس عددها، وقيل إن بعضها أقدم من المملكة نفسها.

في ذلك الصباح عُلقت رايات بيضاء بين الأبراج، ورُسم فوق كل واحدة منها غزال يقف بين قمرين. أُغلقت دكاكين الورق والحبر حتى الظهيرة، وارتدى طلاب المعابد أثوابهم الرسمية، بينما ازدحمت الساحات بالعائلات القادمة لحضور يوم السجل الأول.

كان الاحتفال يقام كل عام في اليوم الذي تقول سجلات إيفارا إن أول كتاب أُنقذ فيه من نيران الانكسار العظيم.



خرج رائف من باب الأرشيف الغربي حاملًا صندوقًا ضيقًا يضم أدوات الترميم. لم يمض وقت طويل منذ أن وقف في الغرفة الصغرى أمام الملك أردان، يحمل الخريطة التي وجدها خلف الجدار. أعادوه إلى عمله عند المساء، وأخبروه أن ما رآه لم يكن سوى نسخة دينية قديمة أظهرت الرطوبة بعض خطوطها المخفية.

لم يصدق التفسير كاملًا، لكنه لم يسأل.

كان العمال الذين رأوه يدخل القصر قد طرحوا عليه أسئلة كثيرة، فاكتفى بأن قال إن حافظ الأرشيف وبخه لأنه أخرج وثيقة من مكانها من دون إذن. لم تكن تلك كذبة تامة، وكان هذا كافيًا حتى يفقد الآخرون اهتمامهم.

نزل رائف درجات الأرشيف واتجه نحو قاعة الذاكرة. مر بساحة الكتبة، حيث جلس رجال ونساء خلف موائد طويلة يكتبون أسماء المواليد الجدد داخل سجلات الأنساب، ثم عبر سوق الورق الذي خلا ذلك الصباح إلا من صبي يطارد لفافات حملتها الريح.

كلما اقترب من القاعة ازداد الزحام.

وقف الجنود عند مداخل الطرق، يوجهون الناس نحو الساحة الكبرى، بينما راقب رجال بملابس عادية النوافذ والأسطح. لم يعرف معظم الحاضرين أن عدد الحراس تضاعف منذ ظهور الخريطة، وأن عربات خرجت من القصر ليلًا تحمل رسائل بلا أختام.

لم يكن رائف يعرف ذلك أيضًا.

كان يفكر في الوصول قبل أن يبدأ الجرس الثالث، لأن رئيس المرممين هدده بإعادته إلى تنظيف الرفوف السفلية إذا تأخر مرة أخرى.

ظهرت قاعة الذاكرة عند نهاية الطريق، مبنى واسعًا بواجهة من الحجر الأبيض، تعلوه قبة نصف دائرية لا تحمل تاجًا ولا راية. صعد رائف الدرج مسرعًا، وأظهر التصريح للحارس، ثم دخل من الباب الجانبي المخصص للعاملين.

في الداخل، كان الضوء ينحدر من فتحات ضيقة في أعلى القبة، فيسقط فوق أرضية سوداء نُقشت عليها أسماء العلماء الذين نجوا من الانكسار. اصطفت المقاعد في مواجهة منصة حجرية، وخلفها ارتفعت صورة مؤسس المملكة، تغطي معظم الجدار.

توقف رائف أمامها رغم استعجاله.

صُوّر إيران، شاهد العصور، رجلًا طويلًا نحيل الجسد، ذا وجه هادئ وعينين داكنتين بدتا كأنهما تنظران إلى من يقف أمامهما أينما تحرك. انسدل شعره الأسود حتى كتفيه، واخترقه خيط أبيض بدأ من صدغه الأيسر، بينما غطت جسده عباءة رمادية أكلت النار أطرافها.

حمل بين ذراعيه كتابًا عريضًا مغلقًا بقفل حديدي. وإلى جانبه وقف غزال أبيض رافع الرأس، كأنه يسمع صوتًا آتيًا من خارج الصورة. أما خلفهما فظهر قمران، أحدهما كامل ومضيء، والآخر أصغر وأشد شحوبًا.

قال رئيس المرممين من أعلى السلم:

— بدلًا من تأمل المؤسس، أحضر الصندوق.

اقترب رائف ووضعه عند قاعدة الجدار.

كان جزء من الإطار قد تشقق خلال الشتاء، فأُرسل العمال لإصلاحه قبل الاحتفال. فتح رائف الصندوق وناول الرجل الأدوات واحدة بعد أخرى، ثم رفع بصره نحو القمر الأصغر.

ظهرت حوله خطوط رفيعة بالكاد تُرى.

ظنها في البداية تشققات في الطلاء، لكنه حين اقترب وجدها متساوية الطول والمسافة. عدها بصمت.

كانت ثمانية.
قال رئيس المرممين:
— لا تلمس الصورة.
— لم ألمسها.
— كنت تفكر في ذلك.
تراجع رائف خطوة، لكنه ظل ينظر إلى الخطوط.
رن الجرس الأول، ودخل طلاب المعابد في صفوف منتظمة، فتوقف العمل. نزل المرممون عن سلالمهم وجمعوا أدواتهم، ثم وقفوا قرب الجدار الجانبي. جلست العائلات في المقاعد الخلفية، بينما احتل الكتبة ورجال المعابد الصفوف الأمامية.
دخلت الأميرة سيراي من الباب الأيمن، مرتدية ثوبًا رماديًا بسيطًا تتدلى من كتفه قطعة فضية على هيئة قمرين. تبعها مِهراز، حافظ الأرشيف الملكي، يحمل سجلًا أسود بين يديه.
وقفت سيراي أمام صورة المؤسس، ثم استدارت نحو الحاضرين.
رن الجرس الثاني.
تقدم كبير كتبة المعبد، وفتح كتابًا موضوعًا فوق منصة حجرية.
بدأ يروي القصة التي يعرفها كل طفل في إيفارا.
في الليلة السابقة للانكسار، كان إيران يجمع العلماء في المعبد القديم بعدما لاحظ أن النجوم تغير مواقعها، وأن الحيوانات بدأت تهرب من الهضاب. لم يصدقه الحكام، وظنوا أنه يخيف الناس بحسابات فلكية قديمة.
وعندما ظهر قمران في السماء، خرج غزال أبيض من بين الأعمدة، وسار نحو جدار لا يحمل بابًا. تبعه إيران، فعثر خلف الجدار على ممر يقود إلى غرف عميقة تحت الأرض. نقل إليها الكتب وألواح العلم وسجلات الأنساب، وبقي يعمل حتى بدأت الأرض تهتز وسقطت الأبراج فوق المدينة.
احترق المعبد، لكن الكتب بقيت.
وعندما خرج الناجون من الممرات بعد سبعة أيام، أقام إيران تيرافا فوق المكان، وأمر بأن تبقى المعرفة أثمن ما تحرسه المملكة.
رفع الكاتب يده نحو الرمز المعلق فوق القاعة.
— اختار الغزال الأبيض رمزًا للمعرفة التي تنجو بالحكمة، وجعل القمر الأول علامة على الماضي الذي نحفظه، والقمر الثاني علامة على المستقبل الذي نصنعه.
رفع أحد الطلاب الصغار يده.
توقف الكاتب، ثم أذن له بالكلام.

— هل كان في السماء قمران فعلًا؟
تحركت بعض الرؤوس نحو الصبي، وضحك أحد زملائه بصوت خافت.
لم يبتسم الكاتب.
— هذا ما يقوله السجل الأول.
— وأين ذهب القمر الثاني؟
أغلق الكاتب فمه لحظة، ثم أجاب:
— نحن هنا لنتذكر ما كُتب، لا لنضيف إليه.
أنزل الصبي يده.
من مكانه قرب الجدار، نظر رائف إلى القمر الأصغر في الصورة. لم تبدُ الخطوط الثمانية حوله جزءًا من الشقوق، ولم يذكرها كبير الكتبة.
التقت عيناه بعيني مِهراز.
كان حافظ الأرشيف ينظر إليه، ثم رفع بصره نحو القمر نفسه. لم يتغير وجهه، لكنه أغلق السجل الأسود الذي يحمله ببطء.
رن الجرس الثالث، وردد الطلاب قسم السجل، ثم انتهى الاحتفال. نهض الناس واتجهوا نحو الأبواب، وانشغل الأطفال بتقليد قفزات الغزال الأبيض بدل التفكير في القمر الذي اختفى.
حمل رائف صندوق الأدوات وخرج عبر الممر الجانبي.
وقبل أن يبلغ الباب، توقف الحارسان الواقفان عنده واستقاما في مكانيهما.
انفتح الباب الكبير.



دخل رجل طويل عريض الكتفين، يرتدي درعًا رماديًا داكنًا لا يحمل زينة سوى غزال أبيض صغير منقوش فوق كتفه. كان شعره الأسود قصيرًا، وامتدت ندبة رفيعة من أسفل عينه اليمنى إلى طرف فكه. تدلى عند جانبه سيف طويل داخل غمد أسود، لكنه لم يضع يده فوق مقبضه، ولم يحتج إلى ذلك حتى يبتعد الناس عن طريقه.

عرفه رائف فورًا.

دارِن، فارس المرآة.

كان واحدًا من أقوى فرسان الممالك السبع، ورُويت عن مواجهاته حكايات في الحصون والأسواق. قيل إن جسده لا ينسى حركة يراها، وإن الرجل الذي يواجهه مرة يعلّمه، من دون أن يقصد، كيف يهزمه في المرة التالية. واجه مبارزين من رهفان ومحاربي الفؤوس من قاسران، ولم يُعرف عنه أنه خسر نزالًا أعيد بالطريقة نفسها.

مر دارِن إلى جانب رائف، ثم توقف لحظة قصيرة.

نظر إلى صندوق الترميم بين يديه، ثم إلى بقعة غبار فوق كمه.

قال:

— الباب الشرقي مغلق.

أجابه رائف:
— سأخرج من باب الكتبة.
أفسح دارِن له الطريق، وتابع سيره نحو القاعة.
لم تكن في نبرته قسوة ولا تعالٍ، لكن الحارسين لم يستعيدا جلستهما إلا بعدما ابتعد.
خرج رائف من الممر، وعاد إلى الشارع المزدحم، يحمل صندوقه كما يفعل في كل يوم عمل.
وفي الداخل، أُغلقت أبواب قاعة الذاكرة.
كان الملك أردان قد دخل من الباب الخلفي، ووقف أسفل صورة إيران إلى جانب سيراي ومِهراز. توقف دارِن على مسافة خطوات منه، ووضع قبضته فوق صدره.
قال الملك:
— ظهرت العلامة.
لم يسأل الفارس أي علامة.
قال مِهراز:
— ظهرت فوق خريطة لا ينبغي أن تكون موجودة، ورسمت طريقًا نحو مكان لم يعد له اسم.
رفع دارِن عينيه نحو الملك.
— إلى أين تريدني أن أذهب؟
— إلى الساحل الغربي أولًا. ستتحرك من دون راية، ولن تأخذ من رجال القصر أحدًا.
قالت سيراي:
— سترافقك حاملة الرمز.
فُتح باب صغير عند طرف القاعة، ودخلت امرأة ترتدي عباءة بيضاء طويلة. لم تحمل سيفًا، وكان شعرها البني مربوطًا بخيط فضي خلف رأسها. تدلى فوق صدرها قرصان رقيقان من الفضة، وبينهما غزال صغير منحوت من حجر أبيض.
كانت نيسارا، حاملة الغزال الأبيض.
تقدمت حتى بلغت قاعدة صورة المؤسس، ثم انحنت للملك.
قال أردان:
— نحتاج إلى معرفة إن كانت العلامة مرتبطة بما حُفظ هنا.
نظر مِهراز إلى الحجر الأسود عند أسفل الصورة. كان أقدم من الجدار نفسه، وقد نُقل، وفق السجلات، من المعبد الذي احتمى فيه إيران ليلة الانكسار.
نزعت نيسارا قفاز يدها اليمنى.
وضعت أصابعها فوق الحجر.

في البداية لم يحدث شيء.
ثم انقطع نفسها.
بردت القاعة من حولها، واختفى ضوء الفتحات العالية. رأت غرفة واسعة محفورة في صخر داكن، تتوسطها مائدة حجرية تغطيها خريطة واحدة متصلة. وقف حولها سبعة أشخاص.
عرفت وجوههم من الصور والتماثيل والسجلات.
إيران، وكاهر، ودامار، وزافير، وأردان المشرّع، ونايرا، وميرالا.
لم يكونوا يرتدون تيجانًا.
كانوا ينظرون إلى شخص يقف في الجهة الأخرى من المائدة، بعيدًا عن الضوء. لم يظهر من وجهه شيء، ولم تستطع رؤية ما يرتديه. بدا كظل ثامن بين سبعة مؤسسين.
تحركت يده فوق الخريطة، وظهر بين أصابعه جسم دائري مفتوح.
ثم تكسرت الرؤية.
سحبت نيسارا يدها، وتراجعت حتى اصطدم كتفها بقاعدة الصورة.
أمسك دارِن بذراعها قبل أن تسقط.
سألها الملك:
— ماذا رأيت؟
نظرت نيسارا إلى الوجوه المحيطة بها، ثم أعادت بصرها إلى الحجر.
— لا أدري... ربما اختلطت عليّ الذكريات.
قال مِهراز:
— ما الذي اختلط؟
ترددت قبل أن تجيب:
— رأيت المؤسسين السبعة. أعرف وجوههم جميعًا، لكن كان هناك شخص آخر يقف خلفهم. شخص ثامن لم أستطع رؤية وجهه.
ساد الصمت داخل القاعة.
قالت سيراي:
— هل كان يحمل تاجًا؟
هزت نيسارا رأسها.
— لم أر تاجًا. رأيت شيئًا دائريًا بين يديه، ثم انتهت الذكرى.
سأل دارِن:
— هل هو الشخص الذي نبحث عنه؟

مسحت نيسارا أصابعها فوق عباءتها، كأن برودة الحجر ما زالت عالقة بها.
— ربما لم أر شخصًا واحدًا أصلًا. هذه الحجارة نُقلت ورُممت أكثر من مرة. قد تكون ذكريات مختلفة دخلت بعضها في بعض.
بقي مِهراز يحدق فيها، لكنه لم يعترض.
قال الملك:
— ستغادران قبل الجرس الأول من صباح الغد. ابحثا عن الخرائط التي تغير خطوطها، وعن الغرباء الذين يسألون عن الطرق القديمة. لا تذكرا النبوءة، ولا تستعملا اسم القصر.
نظر إلى دارِن.
— وإذا وجدتما صاحب الطريق، فلا تمساه حتى يصلني خبركما.
انحنى الفارس.
— كما تأمر.
ارتدت نيسارا قفازها، لكنها لم ترفع عينيها عن الحجر.
وفي الخارج، ارتفعت أصوات الناس باسم إيران، شاهد العصور، بينما ظل القمر الأصغر في صورته محاطًا بثمانية خطوط لم يذكرها السجل الأول.
وفي الجهة الأخرى من القارة، لم تكن أجراس هاروك تدعو الناس إلى حفظ الكتب، بل إلى إخلاء الطريق أمام موكب الملك.
ارتفعت عاصمة رهفان فوق منحدرات جبلية لا يصل إليها الدفء إلا أسابيع قليلة كل عام. بُنيت أسوارها من حجارة سوداء غطاها الجليد حتى بدت بيضاء من بعيد، وتوزعت أبراجها فوق القمم كحراب مغروسة في جسد الجبل. ربطت بينها جسور معلقة بالسلاسل، وامتدت تحتها أحياء ضيقة حفرتها الأقدام والعربات بين الصخور.
في أسفل المدينة قامت أسواق الفراء والحديد، تعلوها مساكن الجنود والحدادين، أما القصر فاحتل أعلى موضع في هاروك، تحيط به ثلاثة أسوار، ولا يصل إلى بوابته الرئيسية إلا درج حجري طويل قيل إن كل ملك جديد يصعده مرتديًا درعه كاملًا.
كانت تماثيل الذئاب السوداء تقف عند مداخل الطرق، وقد عُلقت بين أنيابها في ذلك الصباح شرائط حمراء احتفالًا بعيد العبور.
ازدحمت الساحات بالجنود والعائلات والتجار القادمين من الحصون البعيدة. اشتعلت مواقد كبيرة عند زوايا الشوارع، ووزع الخدم حساء ساخنًا على الأطفال، بينما تنافس أصحاب المتاجر في رفع رايات تحمل ذئبًا أسود تحت هلال أحمر.
وكان رِفال يرى أن الأعياد الملكية خُلقت لسبب واحد: أن ينشغل الناس بالنظر إلى الأعلى، ويتركوا ما في جيوبهم بلا حراسة.



لم يكن قد تجاوز العشرين إلا بقليل. كان نحيل الجسد، سريع الحركة، يغطي شعره الداكن بقلنسوة رمادية، ويرتدي حذاءً خفيفًا لا يناسب برد رهفان، لكنه يسمح له بالجري فوق الأسطح والجسور من دون أن يسمع أحد خطواته.

وقف قرب بائع للفطائر، يتظاهر بأنه يراقب الموكب، بينما كانت عيناه تتبعان رجلًا سمينًا يرتدي معطفًا أزرق وحزامًا تتدلى منه ثلاثة أكياس صغيرة.

عرف رِفال الرجل.

كان مسؤولًا عن ضرائب سوق الفراء، ويحب أن يعد النقود أمام أصحاب الدكاكين قبل أن يضعها داخل كيسه، كأن صوت القطع المعدنية جزء من سلطته.

انتظر رِفال حتى ارتفعت الأبواق.

مر خلف الرجل، اصطدم بكتفه، تمتم باعتذار سريع، ثم تابع سيره والكيس الثالث داخل كمه.

لم يشعر به أحد.

تقدم الموكب نحو ساحة الصخرة، فتبع رِفال الحشود. كان يستطيع العودة إلى الحي السفلي بالطريق الذي جاء منه، لكنه أراد أن يتأكد من مقدار ما سرقه قبل أن يبتعد. كما أن الجنود أغلقوا الممرات المؤدية إلى السوق حتى انتهاء الطقس الملكي.

في وسط الساحة استقر حجر أسود ضخم فوق منصة منخفضة. كان مستطيلًا، خشن الحواف، وتظهر على أحد جانبيه خطوط قديمة تشبه آثار مخالب.

سمّاه أهل رهفان حجر العبور.

تقول الحكايات إن كاهر حمله من قمة الجبل ووضعه عند مدخل أول حصن، وإن كل ملك من نسله يجب أن يرفعه أمام الناس في يوم العبور ليبرهن أن دم المؤسس ما زال قويًا في عروقه.

وقف أربعة جنود قرب الحجر، وقد بدت على وجوههم آثار الجهد الذي بذلوه لنقله إلى الساحة.

انفتح باب القصر الخارجي.

نزل الملك فاريك الدرج بين صفين من الحرس.

كان أطول من معظم الرجال المحيطين به، عريض الكتفين، يمشي بخطوات ثابتة فوق الثلج من دون أن يستند إلى أحد. ارتدى معطفًا من فراء الذئب الأسود، وترك رأسه مكشوفًا رغم الريح. لم يحمل سيفًا ولا تاجًا، بل وضع حول عنقه هلالًا أحمر من الحديد.

وصل إلى الحجر، وألقى المعطف عن كتفيه.

أمسك طرفيه، وانحنى قليلًا، ثم رفعه عن المنصة.
صدر صوت احتكاك خشن حين انفصل الحجر عن قاعدته. ارتفعت صيحات الناس، بينما حمله فاريك حتى بلغ صدره، وبقي واقفًا به لحظات من دون أن ترتجف ذراعاه.
ثم أدار رأسه نحو المرأة الواقفة عند طرف المنصة.



كانت الأميرة نيرفا ترتدي درعًا أسود فوق ثوب من الجلد الأبيض. جُمعت خصلات شعرها خلف رأسها في ضفيرة طويلة، وحملت بيد واحدة رمحًا أثقل من رماح الحرس المحيطين بها.
تقدمت.
دفع الملك الحجر نحوها.
تلقته بذراعيها، وتراجعت قدمها نصف خطوة فوق المنصة، ثم ثبتت جسدها. حملت الحجر وحدها، واستدارت به، ووضعته فوق قاعدته من جديد. اهتز الخشب تحته، لكن يديها لم ترتجفا.
ضرب الجنود مقابض رماحهم بالأرض.
هتف الناس باسم الملك، ثم باسم فارسة الذئب الأسود.

كانت نيرفا قائدة الحصون الشمالية، وواحدة من أقوى مقاتلي الممالك السبع. قيل إنها أبقت بوابة حصن معلقة فوق كتفيها بعدما تحطم محورها، حتى عبر آخر الجنود من تحتها. وقيل إن رمحها لم يسقط من يدها في معركة، حتى عندما اخترق سهم كفها.

لم يكن رِفال يعرف إن كانت الحكايات صحيحة، لكنه رأى الحجر الذي احتاج أربعة جنود إلى نقله، ورأى كيف أعادته إلى موضعه وحدها.

فتح الكيس داخل كمه وعد القطع بأصابعه.

كانت أكثر مما توقع.

ابتسم.

وفي اللحظة نفسها، وضع مسؤول الضرائب يده فوق حزامه.

اختفت الابتسامة من وجه رِفال.

استدار الرجل، ونظر حوله، ثم صاح:

— أمسكوا اللص!

كان رِفال قد بدأ الجري قبل أن يحدد الرجل مكانه.

اندفع بين الناس، وقفز فوق سلة من الحطب، ثم انحرف نحو سوق الحديد. سمع الجنود خلفه يأمرون الحشود بالابتعاد، وسمع مسؤول الضرائب يصف معطفه وقلنسوته بصوت جعل نصف شباب هاروك متهمين محتملين.

دخل ممراً ضيقًا بين دكان حداد ومخزن للفحم. صعد فوق برميل، أمسك حافة نافذة، ورفع نفسه إلى سطح منخفض. ومن هناك انتقل إلى سطح آخر، ثم إلى جسر خشبي يمتد فوق قناة تجمد ماؤها منذ بداية الشتاء.

ظهر جنديان عند الجهة المقابلة.

قفز رِفال عن الجسر قبل أن يصلا إليه، وسقط فوق كومة من الفراء المربوط. تدحرج بينها، ثم نهض واتجه نحو الأحياء العليا.

لم يكن يفضل الاقتراب من القصر، لكن جميع الطرق المؤدية إلى الأسفل امتلأت بالحراس.

عبر ساحة الحدادين، ومر تحت برج الهلال، ثم صعد درجًا جانبيًا يستخدمه خدم القصر لحمل الحطب والطعام. كان الثلج يغطي درجاته، إلا أن قدمي رِفال لم تتركا خلفهما إلا آثارًا خفيفة اختفت مع أول هبة ريح.

وصل إلى سور الخدمة، وتسلل خلف عربة تحمل براميل الزيت. دخل من البوابة معها، ثم انفصل عنها داخل الفناء الأول.

لم يكن قد دخل القصر من قبل، لكنه عرف كيف تُبنى الأماكن التي يريد أصحابها منع الناس من دخولها. تكون النوافذ مرتفعة، والممرات مستقيمة، والحراس ينظرون إلى الأبواب أكثر مما ينظرون إلى السقوف.

تسلق دعامة حجرية، وعبر فوق سقف مخزن السلاح، ثم وجد نافذة صغيرة مفتوحة عند نهاية جدار القاعة الكبرى. دفعها، وانزلق إلى الداخل.

هبط فوق شرفة ضيقة تحيط بقاعة العرش من الأعلى.

كانت القاعة خالية من الحشود. أُغلقت أبوابها الكبيرة، وانطفأت معظم المواقد، ولم يبق فيها إلا الملك وعدد قليل من الأشخاص يقفون حول مائدة عريضة نُشرت فوقها خريطة.

انحنى رِفال خلف الحاجز الحجري.

كانت صورة ضخمة معلقة فوق العرش.

ظهر فيها كاهر، رمح الدم، رجلًا ضخم الجسد ذا لحية سوداء تتخللها خصلات بيضاء. ارتدى فراءً داكنًا فوق درع من الحديد، وأمسك رمحًا طويلًا احمر طرفه حتى منتصف نصله. وقف عند قدميه ذئب أسود يكشف أنيابه، بينما ارتفع خلفهما هلال أحمر فوق جبل غارق في العاصفة.

لم يكن كاهر في الصورة ينظر إلى الذئب أو الهلال، بل إلى مكان بعيد خارج الإطار، كأن الجبل الذي بلغ قمته لم يكن آخر ما أراد الوصول إليه.

وقف الملك فاريك أسفل الصورة، وقد أعاد معطفه إلى كتفيه. إلى يمينه وقفت نيرفا، بينما جلس رجل مسن عند طرف المائدة، يحمل بين يديه لوحًا حجريًا صغيرًا نُقش عليه الذئب والهلال.

عرف رِفال الشيخ أيضًا.

كان أوسان، شيخ السجلات وألواح القسم، الرجل الذي تُحفظ عنده عهود القادة وأصحاب الحصون. وكان الناس يقولون إن من يقسم أمام لوحه ثم يخون قسمه تظهر فوق جلده علامة حمراء لا يستطيع إخفاءها.

وضع قائد من الحرس ثلاث قطع خشبية فوق الخريطة.

قال:

— الممر الأول مفتوح. الممر الثاني يحتاج إلى يومين لإزالة الثلج. أما الثالث فتراقبه دورياتهم ليلًا ونهارًا.

سأل فاريك:

— وهل رأوا رجالنا؟

— لا يا مولاي. تحركوا بثياب التجار كما أمرت.

حركت نيرفا إحدى القطع فوق الخريطة.

— إذا عبرنا من الممر الأول، سنصل إلى الحصن الخارجي قبل أن تأتيهم أخبارنا. لكن الجيش لن يستطيع حمل المؤن كلها عبره.

قال الملك:

— يحمل كل رجل ما يكفيه حتى تفتحوا مخازنهم.

رفع أوسان رأسه.

— ما زال بين المملكتين عهد حدود.

نظر إليه فاريك.

— العهود تُكتب حين يكون الطرفان متساويين.

— وختم جدك ذلك العهد أمام هذا اللوح.

وضع أوسان كفه فوق النقش. أضاء خط أحمر رفيع داخل الهلال، ثم اختفى.

لم يتغير وجه الملك.

التفت إلى صورة كاهر.

— حين انكسر العالم، احتمى الآخرون خلف الجدران، وانتظروا أن يهدأ البحر. جمع بعضهم الكتب، وجمع بعضهم الحبوب والذهب. أما كاهر فصعد الجبل والناس خلفه، والعاصفة تطاردهم سبعة أيام.

أشار إلى الرمح في الصورة.

— لم يمنحه أحد طريقًا. شق الجليد بيديه، وقتل من حاول أخذ الممر من الناجين، ثم واجه الذئب الأسود عند القمة. لم يقتله، لأنه رأى فيه قوة تستحق البقاء. أخضعه، وجعله يسير إلى جانبه.

نظر إلى نيرفا، ثم إلى رجال الحرس.

— وعندما ارتفع الهلال الأحمر فوق الثلج، بُني أول جدار لهاروك. الذئب لا يتبع الضعيف، والهلال لم يصبح أحمر من الطلاء. كل شبر من هذه الجبال دُفع ثمنه بالدم.

قال أوسان:

— لذلك وُقع العهد، حتى لا يُدفع الثمن مرة أخرى.

اقترب فاريك من المائدة.

وضع كفه فوق جزء من الخريطة، فاختفى اسم المملكة الواقعة تحته.

— لم يوقع جدي لأنه اقتنع بحقهم. وقّع لأن الشتاء أخذ نصف جيشه، ولأن أبراجنا لم تكن قد اكتملت. استغلوا ضعف رهفان، وأبقوا الأرض التي أخذوها منا.

قالت نيرفا:

— الحصون مستعدة. أستطيع تحريك ثلاثة آلاف رجل من دون إخلاء الحدود.

— ومتى يصلون؟
— إذا صدر الأمر الليلة، يكونون عند الممر قبل نهاية اليوم الرابع.
نظر الملك إلى القطع الخشبية فوق الخريطة.
— لن ننتظر علامة أخرى، ولن نسمح لبقية الممالك بأن تتحرك قبلنا.
قال أوسان:
— ظهور النبوءة لا يمنحنا حق إشعال حرب.
رفع فاريك عينيه إليه.
— الحرب لم تنتهِ. توقفت فقط حين لم نكن مستعدين لإكمالها.
أطبق أصابعه على إحدى القطع الخشبية. انشق الخشب داخل قبضته، وتساقطت منه شظايا صغيرة فوق الخريطة.
قال:
— الآن حان وقت محوها، وردّ الأراضي التي كانت لنا.
بقي اسم المملكة مخفيًا تحت كفه.
لم تسأله نيرفا إن كان متأكدًا. سحبت القطعتين المتبقيتين، ووضعتهما عند الممر الأول.
— أريد أوامر مختومة لقادة الحصون قبل غروب الشمس.
قال الملك:
— بلا أختام. لا تُرفع راية الذئب حتى تسقط بوابتهم الأولى.
نظر إلى أوسان.
— اجمع القادة عند منتصف الليل. سيقسمون أمام اللوح ألا يذكروا وجهة الجيش حتى يبدأ العبور.
أجاب الشيخ:
— القسم لا يمنع الخيانة. إنه يكشفها فقط.
— وهذا يكفيني.
في الأعلى، حاول رِفال تغيير موضع قدمه.
تحرك حجر صغير تحت حذائه، وسقط من الشرفة.
اصطدم بالأرض قرب المائدة.
رفعت نيرفا رأسها فورًا.
أمسكت رمحها وألقته نحو الأعلى.

انحنى رِفال في اللحظة الأخيرة. مر النصل فوق كتفه، واصطدم بالحاجز الحجري حتى انشق طرفه. بقي الرمح مغروسًا في الصخر، يهتز على مسافة أصابع من وجهه.

صاحت نيرفا:

— فوق الشرفة!

قفز رِفال نحو النافذة.

دخل الحراس من الأبواب الجانبية، وصعد اثنان منهم الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي.

خرج رِفال إلى السطح، وانزلق فوق الجليد حتى بلغ الجهة الأخرى، ثم قفز إلى ممر ضيق بين جناحين من القصر.

كان طريقه إلى الفناء قد أُغلق.

ركض نحو نهاية الممر، فوجد أمامه بابًا حجريًا أسود لا يحمل مقبضًا. نُقشت فوقه علامة أفسدها الحك، ولم يبق منها إلا خطان متقاطعان تحت قمة جبل.

دفع الباب.

لم يتحرك.

وصل صوت الحراس من خلفه.

بحث رِفال عن فتحة أو مزلاج. مرر يده فوق حافة الحجر، فانغرست قطعة معدنية مكسورة في راحة كفه.

سحب يده بسرعة.

سقطت قطرة دم فوق الخطين المنقوشين.

صدر صوت خافت من داخل الجدار.

تراجع رِفال، ثم تحرك الباب ببطء إلى الداخل.

لم يتوقف ليسأل كيف انفتح. دخل وأغلقه خلفه، قبل أن يصل أول جندي إلى الممر.

وجد نفسه فوق درج ضيق يهبط داخل الجبل. لم يكن فيه ضوء، لكن الهواء البارد الصاعد من أسفله أخبره أن له مخرجًا في مكان ما.

نزل الدرج وهو يضغط كفه المجروحة فوق ثوبه، حتى وصل إلى نفق انتهى خلف أحد تماثيل الذئاب في الحي السفلي.

خرج إلى الشارع واختلط بالناس العائدين من الاحتفال.

لم يلاحقه أحد.

جلس خلف مخزن للفراء، وأخرج الكيس المسروق. عد القطع النقدية واحدة بعد أخرى، ثم نظر إلى الجرح في كفه.

ظن أن الباب القديم كان معطلًا، وأن دفعه الأول حرّك القفل ببطء.

مسح الدم عن يده، ووضع النقود داخل حزامه، ثم ابتعد يبحث عن مكان يشتري منه طعامًا ساخنًا.

وفي أعلى هاروك، بقي الباب الحجري مغلقًا أمام الحراس، بينما بدأت أوامر الحرب تخرج من القصر بلا أختام، متجهة إلى حدود مملكة لم يُذكر اسمها.

في الليلة نفسها التي خرجت فيها أوامر الحرب من قصر هاروك، كان أوران يصعد الطريق الضيق المؤدي إلى بيت نائل، مستندًا إلى عصاه كعادته، بينما تتدلّى البوصلة القديمة داخل ثيابه وتضرب صدره مع كل خطوة. لم تكن القرية قد نامت تمامًا؛ بقي ضوء خافت خلف بعض النوافذ، وجاء من جهة الطاحونة صوت عجلة تدور ببطء تحت قوة الماء، إلا أن أوران لم يلتفت إلى شيء. كان يسير كما لو أنه يعرف عدد الخطوات الباقية قبل أن يصل.

طرق الباب ثلاث طرقات متباعدة.

فتحت ليارا، وحين رأته لم تسأله عن سبب مجيئه في ذلك الوقت، بل نظرت خلفه أولًا، إلى الطريق المنحدر نحو أطراف القرية، ثم أفسحت له المجال.

قالت وهي تغلق الباب:

— نائل ليس هنا. ذهب إلى بيت يامن ليعيد إليه بعض الأدوات، ولن يتأخر.

دخل أوران، ووضع عصاه إلى جوار الباب، ثم بقي واقفًا بدل أن يجلس في موضعه المعتاد قرب الموقد. كان البيت ساكنًا إلا من طقطقة الحطب، وعلى المائدة بقي طبق ثالث فارغ ينتظر عودة نائل.

نظر أوران إليه طويلًا، ثم قال:

— هذا أفضل. ما جئت لأقوله يجب أن تسمعيه قبله.

توقفت ليارا عن ترتيب الأواني، غير أنها لم تستدر نحوه.

— قلت لك من قبل إنني لا أريد أن أسمع شيئًا عن تلك البوصلة.

— ولم آت لأحدثك عنها.

— إذن لماذا جئت؟

أجابها من دون أن يرفع صوته:

— لأن الوقت قد حان.

تصلبت أصابعها حول الإناء الذي كانت تحمله. وضعته على المائدة ببطء، ثم التفتت إليه.

— وقت ماذا؟

— وقت أن يخرج نائل من القرية.

ساد الصمت بينهما لحظة، ثم هزت ليارا رأسها.

— لا.

— لياراا...
— قلت لا. لن تأخذه إلى الطرق التي قضيت سنوات تمنعه عنها، ولن تجعله يطارد حكايات لا يعرف منها إلا ما رسمه فوق الورق.
اقترب أوران من النافذة، وأزاح الستارة مقدار إصبع، متفحصًا الطريق الخارجي قبل أن يعيدها إلى مكانها.
— لم تعد الطرق هي التي ستأتيه بالخطر. الخطر هو الذي بدأ يبحث عن الطريق المؤدي إليه.
— لا أحد يعرف هذه القرية.
— كانت تلك السفينة أول الواصلين، وقد وصلت وهي لا تعرف على وجه الدقة ما الذي تبحث عنه. أما القادمون بعدها فسيحملون أسماء وأوامر وخرائط قديمة. العلامات ظهرت، وكل مملكة فسرتها بطريقتها، لكن أغلبها سيصل في النهاية إلى السؤال نفسه: أين يبدأ الطريق؟
تغير وجه لياراا عند ذكر السفينة، لكنها قالت:
— فليبحثوا كما يشاؤون. لن يجدوا هنا إلا صيادين وفلاحين وبيوتًا لا قيمة لها.
— وسيقلبون بيوت الصيادين والفلاحين حجرًا حجرًا حتى يتأكدوا من ذلك.
اقتربت منه، وخفضت صوتها كأن مجرد ارتفاعه قد يوقظ شيئًا خارج الجدران.
— أنت الذي جعلته ينظر إلى ما وراء الجبال. أنت الذي علمته أن الخطوط الممحوة أهم من الطرق الظاهرة، وأنت الذي وضعت في يده خرائط لا ينبغي لفتى في عمره أن يراها. والآن تأتي لتقول إن بقاءه هنا خطر؟
استقبل أوران غضبها من غير أن يتحرك. للحظة قصيرة بدا ظهره أقل انحناء، وبدت اليد التي أمسك بها حافة النافذة أثبت من يد شيخ، إلا أن ظله عاد وانكمش حين تحرك ضوء النار.
— أنا لم أضع الطريق في داخله، قال. وجدته هناك قبلي.
— هذا ما كان أبوه يقوله.
— وكان يعرف نائل أكثر مما تظنين.
— لا تذكره لتقنعني. لقد خرج خلف تلك الأسرار ولم يعد.
أطرق أوران قليلًا، ولمع في عينيه حزن قديم لم يشبه حزن رجل فقد صديقًا منذ أعوام، بل حزن شخص ما زال يقف في اللحظة نفسها التي وقع فيها الفقد.
— كان يقول لك إن الأرض لا تختفي حين يمحوها الملوك، بل تنتظر من يتذكر طريقها.
ابتعدت لياراا عن المائدة.
— مات وهو يؤمن بذلك.
— لم يمت بسبب ما كان يؤمن به، بل بسبب ما كان يحاول منعه.
رفعت عينيها إليه بسرعة، لكنه لم يترك لها فرصة السؤال.

— كان يعرف أن هذا اليوم سيأتي، ولهذا ترك أمانته قبل أن يرحل.
— لم يترك لي إلا طفلًا وخوفًا لم ينته.
— ترك لك أكثر من ذلك.
حدقت فيه، ثم قالت ببطء:
— ماذا تقصد؟
ألقى أوران نظرة إلى الباب، ثم اقترب منها. مال نحو أذنها وهمس بكلمات قليلة لم يصل منها إلى الموقد سوى نبرة خافتة متقطعة.
ما إن ابتعد حتى شحب وجه لياراء، وانفلت الإناء من يدها. ارتطم بحافة المائدة قبل أن يسقط على الأرض، لكنه لم ينكسر.
ظلت تنظر إلى أوران كأنها تراه للمرة الأولى.
— كيف تعرف ذلك؟
لم يجب.
— لم يكن يعرف هذا سواي وسواه، قالت. أقسم لي أنه لم يخبر أحدًا.
— لم يخبر أحدًا.
كان جوابه أشد وقعًا عليها من الهمس نفسه. تراجعت خطوة، واستندت إلى المائدة.
— من أنت؟
انحنت أصابع أوران حول عصاه الموضوعة قرب الباب، مع أنه لم يكن يحتاج إليها في تلك اللحظة.
— الرجل الذي طلب منك أن تثقي به عندما يحين الوقت.
— وهل بقيت كما كنت؟
طال الصمت، ثم قال:
— بقي مني ما يكفي لأوصله إلى بداية الطريق.
جاءت خطوات من الخارج، تقترب فوق الحصى. التفت الاثنان نحو الباب. انحنى ظهر أوران من جديد، وعادت الرجفة الخفيفة إلى يده حين أمسك عصاه، كأن اللحظة السابقة لم تكن إلا خدعة صنعها ضوء الموقد.
دخل نائل وهو يحمل كيسًا صغيرًا من الأدوات، وتوقف عندما رأى الإناء على الأرض وأمه واقفة في الجانب الآخر من الغرفة.
— ماذا حدث؟
انحنت لياراء والتقطت الإناء، ثم وضعته على المائدة. لم تنظر إلى أوران، ولم تسأل نائل أين تأخر.

قالت بصوت حاولت أن تجعله ثابتًا:
— اذهب واجمع ما تحتاج إليه.
نظر نائل إليها، ثم إلى أوران.
— لأي شيء؟
رفعت لِيارا عينيها إليه. بقي الخوف فيهما، لكن شيئًا آخر وقف إلى جواره هذه المرة؛ شيء يشبه قرارًا تأخر أعوامًا طويلة.
— ستغادران قبل الفجر.
وفي صباح اليوم التالي، فُتحت أبواب دمهار قبل شروق الشمس بساعة، ودخلت من خلالها عربات الحجر والحديد والحبوب، بينما كان الحراس يعلّقون فوق الأبراج رايات حمراء يتوسطها ثور أسود يقف أمام جبل مشقوق.
كان ذلك يوم السور الأول، اليوم الذي تتوقف فيه مناجم قاسران نصف النهار، وتُطفأ أفران الحدادة عند الظهيرة، ويخرج أهل العاصمة إلى الجدار الغربي للاحتفال بذكرى تأسيس المملكة.
غير أن دمهار لم تكن مدينة تتوقف بسهولة. بقيت المطارق تضرب داخل الورش، وتابعت العربات عبور الشوارع الحجرية، وانتشر البناؤون فوق الأسوار لإصلاح ما أفسدته رياح الصيف قبل وصول الملكة.
كانت سِدرا تسير إلى جوار عربة محمّلة بكُتل حجرية حمراء، تحمل فوق كتفها مطرقة صغيرة وحبلًا مَلتفًا. لم تكن ترتدي ثياب الاحتفال، بل سروال عمل واسعًا وقميصًا غطاه غبار المحاجر. ربطت شعرها الأسود خلف رأسها بقطعة جلد، وبقيت خصل قصيرة ملتصقة بجبينها من حرارة الصباح.
قال سائق العربة وهو يحاول تجاوز مجموعة من الأطفال:
— لو خرجنا بعد ساعة لما وصلنا إلى السور قبل الملكة.



نظرت سدرا إلى العجلة الخلفية، ثم قالت:

— لن نصل بها أصلًا إن بقيت تسير بهذه السرعة.

— العجلة جديدة.

— المحور ليس جديدًا.

ضحك الرجل وهز رأسه، لكنه سمع بعد خطوات صوت احتكاك خشنًا تحت العربة. أوقف الحصان، ونزل متذمرًا ليتفحصها.

كانت حلقة الحديد المحيطة بالمحور قد بدأت تتشقق.

نظر إلى سدرا، ثم إلى المطرقة المعلقة على كتفها.

— كيف سمعتِها وسط كل هذا الضجيج؟

رفعت كتفيها.

— الحديد المتعب يصدر صوتًا مختلفًا.

ساعدته على تثبيت الحلقة بحبل قصير، ثم تابعت العربة سيرها ببطء. لم يكن ذلك أول صوت تسمعه قبل غيرها. منذ طفولتها، كانت تعرف أي حجر يخفي تجويفًا في داخله، وأي جدار بدأت مياهه تتسرب قبل أن تظهر الرطوبة فوق سطحه. قال لها معلموها إن سنوات العمل جعلت أذنها أدق من أدوات القياس، فصدقتهم ولم تبحث عن تفسير آخر.

مرت العربة بسوق الحديد، حيث عُلقت فوق الدكاكين صفائح صغيرة على هيئة قرني ثور. كان الباعة يرشون الماء أمام أبوابهم لتهدئة الغبار، ويعرضون المسامير والسكاكين ورؤوس الرماح فوق ألواح خشبية داكنة. وفي نهاية السوق ارتفع طريق مستقيم يقود إلى الجدار الغربي، أحد أقدم أجزاء دمهار.

كان السور مبنيًا من حجارة حمراء ضخمة، تختلف في لونها وحجمها عن حجارة الأبراج الأحدث. لم تظهر بينها طبقات واضحة من الملاط، حتى بدا بعضها ملتحمًا ببعض كما لو أنه قُطع من صخرة واحدة ثم رُفع من الأرض كاملًا.

توقفت العربة قرب منصة البنّائين. كان المشرف ينتظرهم وهو يلوّح بذراعه.

— تأخرتم.

قال السائق:

— المحور كاد ينكسر.

نظر المشرف إلى سدرا.

— وأنتِ لم تستطيعي إصلاحه وهو يتحرك؟

أنزلت مطرقتها عن كتفها.

— أستطيع في العام المقبل، إذا أردت أن تسحقني العربة هذا العام.
لم يبتسم. أشار إلى الكتل الحجرية.
— ارفعاها إلى الرواق الداخلي. نريد إنهاء ترميم صورة المؤسس قبل بدء المراسم.
ساعدت سدرا العمال على إنزال الحجارة، ثم حملت أدواتها ودخلت من باب صغير في قاعدة السور. كان خلفه رواق طويل بارد يمتد داخل الجدار، تضيئه مصابيح زيتية معلقة بين الأقواس. وفي نهايته انفتحت قاعة مرتفعة السقف تسمى قاعة البناء الأول.
احتل الجدار المقابل نقش ضخم للمؤسس دامار باني الأسوار.
ظهر دامار رجلًا طويلًا عريض الصدر، يرتدي درعًا من صفائح الحديد المتداخلة، وتنزل من كتفيه عباءة قصيرة. كان شعره مربوطًا خلف رأسه، ولحيته مقصوصة عند الفك، بينما امتد أثر جرح محفور من حاجبه الأيسر إلى منتصف خده. رفع بيده اليمنى مطرقة كبيرة، وأمسك بالأخرى قرن ثور وقف إلى جانبه مطأطئ الرأس.
وخلفهما ارتفع جبل منقسم إلى نصفين.
أسفل النقش كُتبت الكلمات التي يعرفها أطفال قاسران قبل أن يتعلموا قراءة أسمائهم:
«شق دامار الجبل، فأخرج منه الحديد، وبنى به السور الذي لم تسقطه الممالك.»
كانت أطراف النقش قد تآكلت، وسقط جزء من الحافة القريبة من الجبل. أمر المشرف سدرا بإزالة الغبار، ثم خرج ليتابع تثبيت الرايات في الساحة.
صعدت فوق منصة خشبية، وبدأت تمرر فرشاة خشنة على الحجر. كشفت طبقات الغبار عن خطوط لم ترها من قبل: رجال يحملون كتلًا، نساء يقفن قرب الأفران، وثيران تجر عربات الحديد من قلب الجبل.
مررت أصابعها فوق الشق المحفور في منتصف الجبل.
كان أقدم من بقية النقش.
أعادت لمس طرفه، ثم طرقت الحجر بمقبض فرشاتها. جاء الصوت عميقًا، ممتدًا إلى داخل الجدار.
تراجعت قليلًا، ونظرت إلى مطرقة دامار المرفوعة. وفق الحكاية، كان ينبغي أن يبدأ الشق من الموضع الذي تهبط عليه المطرقة، لكن الخط كان يمتد خلف ذراع المؤسس، ويختفي تحت طبقة نُحتت فوقه في زمن لاحق.
بدا كأن الجبل كان منقسمًا قبل أن يرفع دامار مطرقته.
سمعت خطوات في الرواق، فسحبت يدها وعادت إلى تنظيف الحافة. دخل المشرف ومعه جنديان.
— اتركي الأدوات وانزلي. وصلت الملكة.

خرجت سدرا مع البنّائين إلى الساحة الخارجية. كان الناس قد ملؤوا المساحة الممتدة أمام السور، ووقف الحرس في صفين يفتحان طريقًا من البوابة حتى المنصة الملكية. توقفت المطارق في الورش القريبة، ثم دقت أجراس الأبراج سبع مرات.

دخلت الملكة ميرافا على ظهر حصان أحمر داكن، مرتدية عباءة بلون جدران دمهار، وفوق صدرها مشبك حديدي على هيئة جبل منقسم. لم تضع تاجًا؛ ففي يوم السور الأول كان ملوك قاسران يلبسون الحديد بدل الذهب، تذكيرًا بأن المملكة قامت على المناجم والأسوار قبل أن تقوم على العرش.



سار سايرن إلى يمينها.

عرفه الناس من معطفه الرمادي ومن الدرع الأسود الذي يغطي ذراعه اليسرى. لم يحمل سيفًا، بل مطرقة قصيرة ذات رأس مربع. كان قد أمضى أعوامًا يتنقل بين الحصون والمناجم من دون موكب، حتى صار عمال الطرق يعرفونه أكثر مما يعرفه رجال القصر.

نادى أحد الواقفين:

— فارس الثور الحديدي!

ارتفع الهتاف، لكن سايرن لم يلتفت. ثبت نظره على السور، كأنه يتفحص الحجارة بدل أن يستقبل تحية الناس.

وخلفه جاء إيلدار مستندًا إلى عصاه السوداء. ارتدى عباءة ثقيلة رغم حرارة النهار، وتدلى من عنقه قرص حجري صغير محفور بخط واحد يقسمه إلى نصفين.

لم يهتف له أحد.

كان أهل دمهار يعرفونه باسم حافظ القسم، لكن الأسر القديمة كانت تعرف له اسمًا آخر لا يُقال في الأسواق: حامل الجبل المنقسم.

صعدت ميرافا إلى المنصة، وتوقف سايرن عند أسفلها، بينما بقي إيلدار قريبًا من السور.

قالت الملكة:

— قبل أن تكون دمهار مدينة، كانت هذه الأرض قبائل تفر من الحروب التي أعقبت الانكسار. لم تجمعها راية ولا عائلة، حتى جاء دامار ووقف أمام الجبل الذي أغلق الطريق إلى الشرق.

أشارت إلى صورة المؤسس داخل الرواق المفتوح.

— لم يطلب دامار من الجبل أن يفتح له طريقًا. ضربه بمطرقته، وشقه، وأخرج من قلبه الحديد. ثم بنى السور الأول، واختار الثور رمزًا للقوة التي لا تتراجع، والجبل المنقسم علامة على أن الأرض نفسها تنحني أمام من يملك الإرادة.

ارتفعت أصوات الناس، وضُربت الرماح بالأرض.

تابعت ميرافا:

— لهذا لم تنتظر قاسران يومًا من يحميها، ولن تنتظر.

عند نهاية كلماتها تقدم أربعة جنود يحملون جذعًا خشبيًا معلقًا بحبال غليظة. ثبتوه أمام سايرن، ثم وضع فارس الثور الحديدي قدمه اليسرى خلف الأخرى ورفع ذراعه المغطاة بالدرع.

كانت تلك تجربة السور، وهي جزء من الاحتفال منذ أجيال. يدفع الجنود الجذع نحو الفارس، فإن صمد أمامه عُدّ السور قادرًا على الصمود عامًا آخر.

جذب الجنود الحبال، ثم أطلقوها.

اندفع الجذع وضرب درع سايرن بصوت جعل الواقفين في الصفوف الأولى يتراجعون. انحنى جسده قليلًا، وغاصت قدماه في التراب، لكنه لم يسقط.

أُعيد الجذع إلى الخلف، ثم أُطلق مرة ثانية.

هذه المرة اهتزت المنصة الخشبية، وانقطع أحد الحبال. بقي سايرن في مكانه، فيما ارتجف الدرع الأسود فوق ذراعه كأنه احتفظ بالضربة داخله.

أنزل يده، وتقدم إلى كتلة حديد موضوعة قرب المنصة. رفع مطرقته القصيرة وضربها مرة واحدة.

خرج من الضربة صوت أعنف من صوت الجذع، وانشقت الكتلة الحديدية من منتصفها.
تعالت هتافات الناس، بينما بقيت ميرافا تراقب أخاها من دون ابتسام. أما إيلدار، فلم ينظر إلى الحديد المشقوق، بل وضع كفه فوق السور.
كانت عيناه مغمضتين.
وقفت سدرا بين البنّائين، على بعد خطوات منه. رأت أصابعه تتحرك فوق الحجر كما تحركت أصابعها قبل قليل، ثم فتح عينيه فجأة ونظر نحو الرواق الداخلي.
في اللحظة نفسها سمعت سدرا صوتًا عميقًا تحت قدميها.
لم يكن صوت احتفال ولا ضربة مطرقة. جاء من مكان بعيد خلف الجدار، ثم امتد نحو الأسفل، كأن حجرًا هائلًا يتحرك في جوف الأرض.
نظرت حولها، فلم يتغير وجه أحد من العمال.
وحده إيلدار أدار رأسه نحوها.
التقت عيناه بعينيها لحظة قصيرة. لم يسألها إن كانت قد سمعت، ولم تُظهر هي أنها فعلت.
ابتعد الشيخ عن السور وصعد إلى المنصة. مال نحو الملكة وهمس لها بشيء جعلها تنظر إلى الرواق المفتوح، ثم إلى الحشود. بقي وجهها ثابتًا، لكنها أنهت المراسم قبل موعدها، وأمرت الحرس بإخراج الناس من الساحة بحجة بدء أعمال الترميم.
عاد البناؤون إلى القاعة بعد انصراف الموكب. صعدت سدرا إلى منصتها، وأكملت تنظيف الجزء السفلي من الجبل.
تحت طبقة رقيقة من الغبار وجدت شكلًا صغيرًا لا ينتمي إلى بقية النقش.
كان أثر كف محفورًا داخل الشق، أصغر من يد دامار، وتمتد من راحته ثمانية خطوط دقيقة بدل خطوط الأصابع المعتادة.
مررت الفرشاة فوقه، ثم سمعت المشرف يناديها من الخارج.
نظرت إلى الأثر مرة أخيرة، وظنت أنه توقيع تركه نحات مجهول.
وضعت كفها فوقه لتقيس حجمه.
جاءت من أعماق الجدار ضربة واحدة.
وحين سحبت يدها، بقي الخط الثامن دافئًا.
وفي الوقت الذي بقي فيه الخط الثامن دافئًا تحت كف سدرا في دمهار، كان موظفو السجلات في سِجّال يطفئون المصابيح التي احترقت طوال الليل، ويفتحون النوافذ العالية لاستقبال يوم جديد من الأخبار.

بُنيت عاصمة زافرين على جانبي وادٍ عميق، وارتفعت أحياؤها فوق الصخور الحمراء في طبقات متقابلة، تصل بينها جسور حجرية ضيقة وواسعة. جرى النهر الأزرق في الأسفل، محاطًا بالمخازن والطواحين ودور الصيارفة، بينما امتلأت الطرق العليا بالقوافل القادمة من الممالك السبع.

لم تدخل عربة إلى سِجّال من دون أن يُكتب اسم صاحبها، وعدد دوابها، ونوع حمولتها، والمدينة التي جاءت منها. ولم تغادر سفينة أحد موانئ زافرين قبل أن يعرف موظفو الملك لمن تعود، ومن دفع ثمنها، وما الطريق الذي ستسلكه.

كان أهل سِجّال يقولون إن مدينتهم لا تمنع الناس من المرور، لكنها لا تسمح لأحد بأن يمر من دون أن يترك وراءه سطرًا.

عبر نِراس الجسر الأوسط مسرعًا، يحمل تحت ذراعه صندوقًا خشبيًا صغيرًا، ويثبت بيده الأخرى قبعة كادت الريح تنتزعها من رأسه. كان في السابعة عشرة، نحيل الجسد، سريع الحركة، يرتدي ثوبًا رماديًا يميز صغار الكتبة في دار السجلات.

توقفت أمامه عربة توابل في منتصف الجسر، فاستدار حولها، وقفز فوق صندوقين، ثم مر بين تاجرين يتجادلان مع موظف الضرائب.

قال الأول:

— أخبرتك أن الصناديق تحمل قرفة.

أجاب الموظف:

— سجل المعبر يقول إنها قرنفل.

— أخطأ الكاتب.

— الكاتب لا يخطئ في ثلاثة وعشرين صندوقًا.

تابع نراس طريقه من غير أن يلتفت، لكنه كرر بصوت الموظف نفسه:

— الكاتب لا يخطئ في ثلاثة وعشرين صندوقًا.

نظر التاجران خلفهما، وظنا أن الرجل أعاد كلامه، بينما أغلق نراس فمه وأسرع مبتعدًا.



منذ صغره كان يستطيع إعادة الكلمات كما سمعها، لا بحروفها فقط، بل بنبرة قائلها وتردده وطريقة تنفسه بين الجمل. كان زملاؤه يطلبون منه تقليد أصوات المشرفين للضحك، ويطلب منه بعض التجار حفظ رسائلهم حين لا يجدون ورقًا. أما هو فكان يظن أن للناس ذاكرة مثل ذاكرته، لكنهم لا ينتبهون جيدًا.

بلغ دار السجل الأول عند نهاية الجسر. كانت بناية طويلة من الحجر الأصفر، تعلوها قبة سوداء، وفوق بوابتها نُحت طائر ذهبي يحمل في منقاره ريشة سوداء، ويحلق فوق كتاب مفتوح. امتلأت الساحة أمام الدار بالأعلام والمنصات. كان ذلك يوم السجل الأول، ذكرى تأسيس زافرين، حين تُفتح القاعة الكبرى للعامة، وتُعرض النسخة القديمة من كتاب المؤسس، ويقرأ الملك أمام الناس أول قانون كُتب بعد الانكسار.

دخل نراس من الباب الجانبي المخصص للموظفين، وصعد درجات ضيقة حتى وصل إلى قاعة النسخ. جلس عشرات الكتبة أمام طاولات طويلة، يراجعون السجلات التي ستُعرض في الاحتفال. فوق كل طاولة محبرة سوداء، وريشة مقصوصة بعناية، وسكين صغيرة تُستخدم لكشط الكلمات الخاطئة.

ناداه المشرف:

— تأخرت.

رفع نراس الصندوق.

— انتظرت ختم الجسر الغربي.

— قلت لك أن تحضره قبل شروق الشمس.

أجاب نراس بصوت كاتب البوابة:

— الختم لا يخرج من الخزانة قبل دقة الجرس الثانية، وهذه أوامر رئيس المعبر.

رفع المشرف رأسه بسرعة.

— لا تقلد صوته أمامي.

عاد نراس إلى صوته:

— هذه كلماته، لا كلماتي.

أخذ المشرف الصندوق ووضعه على المائدة، ثم أشار إلى القاعة المجاورة.

— اذهب إلى قاعة المؤسس. المرممون انتهوا من تنظيف الصورة، لكنهم تركوا الغبار فوق الكتاب. امسحه قبل وصول الملك، ولا تلمس الطلاء الذهبي.

دخل نراس القاعة الكبرى من باب خلفي. امتد السقف عاليًا فوق أعمدة زرقاء، وتدلت بين الأقواس رايات تحمل رمز المملكة. وفي الجدار المقابل ارتفعت صورة زافير، الكاتب الأول.

ظهر المؤسس رجلًا نحيلًا طويل الوجه، له شعر أسود يصل إلى كتفيه وعينان بلون العنبر. ارتدى عباءة داكنة ذات أطراف ذهبية، وجلس أمام كتاب أسود ضخم مفتوح فوق ركبتيه. أمسك في يده ريشة سوداء، بينما وقف فوق كتفه طائر ذهبي باسط الجناحين.

خلفه ظهرت طرق وقوافل وسفن صغيرة، وعلى جانبيه وقف رجال ونساء يحملون رقاعًا مختومة. لم يُرسم زافير بسيف أو درع، بل جلس هادئًا وسط عالم بدا كأنه ينتظر الكلمة التي سيكتبها.

تحت الصورة نُقش قول نُسب إليه:

«ما لا يُكتب يضيع، وما يُسجل يصبح جزءًا من العالم.»

صعد نراس السلم الخشبي، وبدأ يمسح الغبار عن الكتاب الحجري. كان غلافه أسود، وفوقه ريشة منفردة تمتد من أعلى الصفحة إلى أسفلها. وبينما مرر القماش قرب جناح الطائر، تحركت قطعة صغيرة من الطلاء الذهبي وسقطت.

توقف فورًا.

نظر إلى الباب ليتأكد أن أحدًا لم يره، ثم اقترب من الموضع المتقشر. ظهرت تحته خطوط داكنة أقدم من بقية الصورة.

كان الطائر يحمل سبع ريشات ذهبية طويلة في ذيله، لكن الخطوط المخفية أظهرت موضع ريشة ثامنة. امتدت من جسده نحو الكتاب الأسود، في المكان نفسه الذي تظهر فيه الآن الريشة السوداء المنفردة.

بدا في الصورة القديمة أن الريشة السوداء لم تكن فوق الكتاب.

كانت جزءًا من الطائر.

سمع نراس وقع خطوات، فأعاد قطعة الطلاء إلى موضعها وضغط عليها بيده. دخل المشرف يتبعه رجلان يحملان صندوقًا من خشب الأبنوس.

— ألم تنتهِ بعد؟

نزل نراس عن السلم.

— انتهيت.

فحص المشرف الصورة سريعًا، ثم أشار إلى الرجلين كي يضعا الصندوق فوق المنصة.

— اخرج إلى الرواق، وانتظرني قرب غرفة الإتلاف.

— ظننت أنني سأحضر المراسم.

— الحضور للكتبة الكبار.

نظر نراس إلى ثوبه الرمادي.

— وكيف أصبح كاتبًا كبيرًا إذا لم أسمع ما يقرأه الكتبة الكبار؟

قال المشرف وهو يفتح الصندوق:

— بأن تنفذ عملك صغيرًا أولًا.

خرج نراس قبل أن يسمع أمرًا آخر. وقف في الرواق المطل على القاعة، وراء حاجز حجري يسمح له برؤية جزء من المنصة.

بدأ الناس يدخلون من الأبواب الثلاثة. جلس التجار وأصحاب القوافل في الصفوف الأمامية، ووقف موظفو المعابر على الجانبين، بينما حمل الكتبة دفاترهم كما يحمل الجنود دروعهم.



دخل الملك جروان بلا تاج. ارتدى ثوبًا داكنًا يتوسطه طائر ذهبي صغير، وحمل تحت ذراعه كتابًا أسود. مشت إلى جانبه الأميرة أزال بثياب سفر خفيفة، وعلى ظهرها سيف رفيع داخل غمد أسود.

خلفهما جاء ماردين، حامل الكتاب الأسود. تدلى من عنقه مفتاح زجاجي داكن، وحمل في يده عصًا قصيرة نُقشت على مقبضها طرق متشابكة. كان يعرف تغير مسار القوافل قبل وصول الأخبار، ويستطيع النظر إلى خريطة أو سجل فيشعر بالموضع الذي عُدّل فيه، حتى إن عجز عن معرفة ما كان مكتوبًا قبله.

توقف ماردين لحظة عند صورة زافير.

رفع عينيه نحو ذيل الطائر، ثم نظر إلى المشرف. لم يقل شيئًا، لكن المشرف تحرك أمام الصورة كأنه يريد حجب الجزء الذي نظر إليه.

صعد جروان إلى المنصة، ورفع الكتاب الأسود أمام الحاضرين.

قال:

— بعد الانكسار، لم تكن الأرض وحدها هي التي تفرقت. ضاعت أسماء القرى، واختلف الناس في ملكية الحقول والطرق، وصار كل رجل يحمل سيفًا قادرًا على اختراع حدوده. عندها لم يجمع زافير القبائل بجيش، بل جمعها بسجل.

فتح الكتاب.

— كتب أسماء العائلات وطرق القوافل وحقوق الماء، وجعل لكل عهد شاهدًا ولكل أرض وصفًا لا يتغير بتغير أصحابها. اختار الطائر الذهبي لأنه يرى الطرق التي لا يراها المسافر، واختار الريشة السوداء لأن الكلمة المكتوبة تعيش أطول من اليد التي خطتها.

نظر إلى الصفوف الممتدة أمامه.

— لهذا لا تقوم قوة زافرين على ما تملكه من أرض فقط، بل على ما تعرفه عن الأرض ومن يعبرها. يستطيع السيف فتح بوابة، لكنه يحتاج إلى جيش يقف أمامها. أما الخبر الصحيح، إذا وصل في الوقت الصحيح، فيستطيع فتح المدينة وأبوابها ما تزال مغلقة.

صفق التجار، وضرب موظفو المعابر دفاترهم بأكفهم.

رفع أحد الخدم ريشة سوداء كبيرة إلى أعلى القوس المطل على الوادي. كانت عادة قديمة تسمى اختبار الطائر؛ تُترك الريشة للريح، ويحاول فارس المملكة الإمساك بها قبل أن تصل إلى أرض الساحة.

تقدمت أزال إلى حافة المنصة.

ترك الخادم الريشة.

حملتها الريح بعيدًا عن القاعة، وارتفعت فوق الوادي بدل أن تهبط. تحركت أزال قبل أن يدرك الواقفون أنها قفزت.

وضعت قدمها فوق الحاجز الحجري، ثم اندفعت إلى الفراغ. خف جسدها في الهواء حتى لم تهبط كما تهبط الأجسام، بل انزلقت مع الريح نحو الجسر المجاور. لامست بطرف قدمها حبلًا معلقًا بين رايتين، وغيرت اتجاهها، ثم ارتفعت يدها وأمسكت الريشة.

هبطت فوق حافة الجسر على قدم واحدة.

ارتفعت هتافات الناس:

— فارسة الطائر الذهبي!

رفعت أزال الريشة كي يراها الحاضرون، ثم عادت عبر الدرج الخارجي كأن قفزتها لم تكن إلا خطوة عادية.

لم يصفق ماردين. بقي واقفًا أمام الكتاب الذي حمله الملك، وعيناه تتنقلان بين صفحاته.

انتهت المراسم عند الظهيرة. خرج الناس إلى الأسواق، وعادت القوافل إلى عبور الجسور. أما نراس فتوجه إلى غرفة الإتلاف، حيث انتظره المشرف وبجانبه كومة من الرقاع القديمة.

قال:

— تُحرق هذه كلها قبل المساء.

حمل نراس الرقاع ووضعها قرب الموقد الكبير. كان عمل الإتلاف بسيطًا: تُسجل أرقام الصفحات، ثم تُلقى واحدة بعد الأخرى في النار، حتى لا تبقى نسخة من قرار أُلغي أو حساب أُغلق.

بدأ بالصفحات العليا. كانت أوامر ضرائب قديمة، وقوائم لبضائع تلفت في المخازن، وتقارير عن جسور رُممت منذ أعوام.

في منتصف الكومة وجد صفحة مختلفة.

كان ورقها أسمك، وحروفها مكتوبة بحبر بني باهت. لم تحمل رقمًا ولا ختمًا، وامتد شق طويل في وسطها كأن شخصًا حاول تمزيقها ثم تراجع.

قرأ السطر الأول:

«قبل أن تُكتب أسماء التيجان...»

أما بقية السطر، فقد كُشط بسكين حادة.

قلب الصفحة، فوجد في أسفلها رسمًا صغيرًا لطائر بثماني ريشات، تتصل آخرها بخط ينزل نحو كتاب مفتوح.

سمع المشرف يقترب، فألقى الصفحة في النار.

دخل الرجل ونظر إلى الموقد.

— هل وجدت شيئًا غير مسجل؟

راقب نراس الحروف وهي تسود ثم تلتف فوق نفسها.

— لا.

حدق فيه المشرف لحظة، ثم وضع فوق المائدة دفترًا أسود صغيرًا.

— خذ هذا إلى غرفة الطرق. سلمه إلى ماردين بيدك، ولا تفتحه.

حمله نراس وغادر. لم يكن يحتاج إلى الصفحة كي يتذكرها؛ بقي السطر في رأسه واضحًا، بحجم الحروف نفسه، وبالمسافة ذاتها بين الكلمات.

نزل إلى الطابق السفلي من دار السجلات. ضاقت الممرات، واختفت النوافذ، وحلت مكان رايات الاحتفال أبواب حديدية لا تحمل أسماء. وجد غرفة الطرق في نهاية ممر دائري.
طرق الباب.
فتحه ماردين مقدارًا قليلًا، وأخذ الدفتر منه.
— من أرسلك؟
— مشرف قاعة النسخ.
نظر ماردين إلى وجهه، ثم إلى الدفتر.
— انتظر هنا.
أغلق الباب، لكنه لم يحكم إغلاقه. بقي شق ضيق سمح بمرور الضوء والأصوات.
لم يحاول نراس النظر إلى الداخل. جلس فوق مقعد حجري، إلا أن الكلمات وصلت إليه واضحة.
قالت أزال:
— وصلت تقارير جديدة من دمهار.
قال الملك جروان:
— الحفرة؟
— ما زالت مغلقة أمام العامة، لكن البنائين يعملون داخل الجدار الغربي. أنهت الملكة ميرافا احتفالها قبل موعده.
— وإيفارا؟
أجاب ماردين:
— نُقلت صناديق من قاعة الذاكرة ليلًا. لا يعرف رجالنا ما كان داخلها.
— ورهفان؟
— أوامر خرجت من القصر بلا أختام، وبعض الحصون بدأت تجمع الجنود.
ساد صمت قصير، ثم قال جروان:
— يعرف كل ملك جزءًا من الحقيقة، لكنه لا يعرف ما عرفه الآخرون. هذه أفضل لحظة لجعلهم يرون ما نريده نحن.
تحرك شيء فوق مائدة داخل الغرفة، ربما قطع صغيرة فوق خريطة.
قالت أزال:
— ماذا نرسل إلى رهفان؟
— أن قاسران ضاعفت الحامية الشمالية.

— لم تفعل.
— ستفعل حين تسمع أن رهفان صدقت الخبر.
سأل ماردين:
— وألدوريا؟
— يصل إلى تجارها أن محصولين فسدا في الشرق. سيحبسون الحبوب انتظارًا لارتفاع السعر، وحين تحتاج الممالك إلى الطعام، نكون نحن قد اشترياه بأسمائهم.
قالت أزال:
— ورسائل إيفارا؟
— لا نوقفها. نؤخر بعضها، ونقدم بعضها الآخر. الرسالة التي تصل متأخرة لا تكون أقل صدقًا، لكنها قد تصبح أكثر ضررًا.
قال ماردين بصوت خافت:
— الجواسيس يجمعون الأخبار، لكنك تريد منهم الآن صنعها.
أجابه الملك:
— من يكتفي بجمع الأخبار يعمل مؤرخًا، لا ملكًا. نحن لا نريد معرفة ما ستفعله الممالك فقط. نريدها أن تفعل ما يفيدنا وهي تظن أن القرار خرج من قصورها.
خطا جروان داخل الغرفة، وأصبح صوته أقرب إلى الباب.
— بعض عيوننا تجار، وبعضها كتبة، وبعضها جنود يبيعون أسرارًا لتسديد ديونهم. هؤلاء نستخدمهم ثم نستبدلهم. لكن العين التي زُرعت منذ أعوام لا تُستعمل في أخبار الأسواق.
لم يتحدث أحد.
قال الملك:
— افتح سجل الريشة المغلقة.
سمع نراس صوت قفل صغير، ثم تقليب صفحات قليلة.
قالت أزال:
— لا يحمل اسم مملكة.
— ولا ينبغي له أن يحمله.
— إذا أرسلنا الإشارة، فلن نستطيع إعادة ما سيبدأ.
أجاب جروان:
— لم نضع العين القديمة قرب أحد العروش كي تظل تراقب إلى الأبد.
ثم قال بوضوح:

— انقلوا الأخبار إلى العين القديمة. حان وقت التحرك وبدء تنفيذ الخطة.

سمع نراس حركة مقبض الباب، فنهض بسرعة وابتعد خطوتين. خرج ماردين وهو يحمل دفترًا آخر، وأغلق الباب خلفه.

— ما زلت هنا؟

— قلت لي أن أنتظر.

أعطاه رقعة مختومة.

— خذها إلى مشرفك.

مد نراس يده، لكن ماردين لم يترك الرقعة فورًا.

— هل سمعت شيئًا؟

نظر نراس إلى المفتاح الزجاجي المتدلي من عنقه.

— سمعت الباب يُفتح.

ظل ماردين يراقبه، ثم ترك الرقعة.

صعد نراس إلى الطابق العلوي. كانت الممرات فارغة بعد انتهاء الاحتفال، ووصل ضوء الغروب إلى صورة زافير من النوافذ الغربية، فجعل الطائر يبدو كأنه يتحرك فوق كتف المؤسس. توقف أمامها.

نظر إلى الريشات السبع، ثم إلى الريشة السوداء المنفصلة فوق الكتاب.

قال بصوت الملك جروان نفسه، وبنبرته التي لا تخطئها الأذن:

— انقلوا الأخبار إلى العين القديمة. حان وقت التحرك وبدء تنفيذ الخطة.

ارتد صوته داخل القاعة.

رفع نراس رأسه نحو صورة الكاتب الأول، ثم أعاد بصوته الحقيقي الجملة التي احترقت في غرفة الإتلاف:

— قبل أن تُكتب أسماء التيجان...

كانت بقية الصفحة قد صارت رمادًا.

أما الكلمات، فلم تختفِ.

أما الكلمات التي بقيت في ذاكرة نراس، فقد بدأت آثارها تصل إلى ألدوريا قبل أن يعرف أحد في سِجّال أنها غادرت دار السجلات.

مع شروق الشمس، كانت قنوات سولان تعكس لون الحقول المحيطة بها، فتبدو من أعلى القصر نكيوط ذهبية تقسم السهل الأخضر إلى مساحات منتظمة. جرت المياه من الأنهار السبعة نحو البساتين والقرى، ثم عادت لتجتمع عند النهر الكبير الذي يحمل محاصيل المملكة إلى الساحل.

لم تكن أسوار العاصمة مرتفعة مثل أسوار دمهار، ولم تمتد جسورها فوق وادٍ عميق مثل سِجّال، لكن مخازنها الحجرية كانت أوسع من قصورها. ارتفعت قببها الرمادية بين الأحياء، وحملت أبوابها أرقام المواسم وأسماء المقاطعات، حتى قيل إن من يقف فوق أعلى برج في سولان يستطيع رؤية من الحبوب ما يكفي لإطعام الممالك السبع عامًا كاملًا.

في الحي الجنوبي، كانت أفران القصر تعمل منذ منتصف الليل.



وقفت لَمار أمام أكبرها، تراقب صفوف الأرغفة وهي تنتفخ تحت الضوء الأحمر. كانت في الثامنة عشرة، قصيرة الشعر، قوية الذراعين من حمل أكياس الدقيق، وارتدت مئزرًا أبيض لم يبقَ أبيض إلا عند أطرافه.

قال معلم الفرن:

— أخرجي الصف الأول.

أخذت لَمار اللوح الخشبي الطويل، وأدخلته تحت الأرغفة، لكنها وجدته مشقوقًا عند المقبض.

— سينكسر.

— استخدمي الآخر.

نظرت إلى الجهة المقابلة من القاعة. كان العامل الآخر يستعمله، بينما بدأ وجه أول رغيف يزداد سوادًا.

لفت لَمار قطعة قماش حول يدها، ثم فتحت باب الفرن ومدت ذراعها إلى الداخل.

صاح المعلم:

— ماذا تفعلين؟

أمسكت الرغيف الأول بيدها، ووضعته فوق الطاولة، ثم أخرجت الثاني والثالث قبل أن تصل إليها النار.

جاء عامل يحمل اللوح الآخر، فتراجعت وأفسحت له المكان.

أمسك المعلم معصمها وقلب كفها.

لم تظهر فوق جلدها حمرة ولا أثر للحرق.

قال:

— كم مرة قلت لك ألا تفعلي ذلك؟

سحبت يدها.

— لم يحترق الخبز.

— أتحدث عن يدك، لا عن الخبز.

— وهي لم تحترق أيضًا.
نظر إليها كما كان يفعل منذ بدأت العمل في الفرن وهي طفلة. كان يظن أن حرارة الأفران أفسدت الإحساس في أصابعها، بينما كانت لَمار تشعر بها جيدًا؛ تشعر بموضع اللهب ودرجة الحجارة واللحظة التي يتحول فيها الدقيق إلى قشرة. لكنها لم تشعر يومًا أن النار تريد إيذاءها.
وضع المعلم أحد الأرغفة فوق ميزان صغير، ثم كسره من المنتصف. خرج منه بخار خفيف، وانتشرت رائحة القمح في القاعة.
قال:
— ضعي أرغفة القسمة في السلال. يجب أن تصل إلى القصر قبل دقة الجرس الرابعة.
كان ذلك يوم القسمة الأولى، اليوم الذي تفتح فيه ألدوريا مخازنها القديمة وتوزع الخبز في ساحات سولان، إحياءً لذكرى الموسم الذي أنهى فيه المؤسس أردان المشرّع أول مجاعة بعد الانكسار.
حملت لَمار سلة واسعة وخرجت من الفرن. كان الشارع المؤدي إلى القصر مزدحمًا بالعربات والفلاحين القادمين من المقاطعات. عُلقت فوق الأبواب رايات خضراء يتوسطها أسد ذهبي، وزُينت الجسور الصغيرة بسنابل القمح وأغصان الزيتون.
عبرت الحي الجنوبي، حيث اصطفت الطواحين على جانبي القناة، ثم مرت بساحة الموازين. وقف التجار أمام أكياسهم ينتظرون الموظفين الذين يفحصون الحبوب ويثبتون أثمانها قبل دخولها إلى المخازن.
سمعت رجلًا يقول:
— ارفع السعر الآن. لن يصل قمح الشرق هذا العام.
أجابه آخر:
— ومن أخبرك؟
— قافلة وصلت ليلًا. محصولان فسدا قبل الحصاد.
تباطأت لَمار لحظة، ثم تابعت طريقها. لم تكن الأخبار عن فساد المحاصيل غريبة، لكن الحقول الشرقية التي مرت بها قبل أيام كانت خضراء، ولم تسمع عن مرض أصابها.
عند مدخل القصر، أخذ الحارس رغيفًا من أعلى السلة.
قالت:
— هذه للقاعة.
شمّه ثم عض طرفه.
— أتأكد من أنه صالح للملك.
— وإذا كان فاسدًا؟

— أموت قبل أن يصل إليه.

انتزعت الرغيف من يده.

— بعد أن تأكل نصفه.

سمح لها بالمرور وهو يضحك. دخلت فناء واسعًا نتوسطه قناة ماء، ثم تبعت الخدم إلى قاعة القسمة.

امتدت القاعة فوق أعمدة بلون القمح، وانفتحت نوافذها على الحقول الغربية. وفي صدرها عُلقت صورة ضخمة للمؤسس أردان المشرّع.

ظهر أردان رجلًا في أواخر العمر، مستقيم الظهر، يرتدي عباءة بيضاء فوق درع بسيط. حمل في يده اليمنى لوحًا حجريًا نُقشت فوقه سبعة أسطر، وفي اليسرى ميزانًا صغيرًا. وقف خلفه أسد ذهبي عظيم، بينما امتدت عند قدميه قنوات الماء وحقول القمح.

لم يظهر المؤسس وهو يرفع سيفًا أو يقف فوق خصومه. كان ينظر إلى صفين من الناس يحمل أحدهما أكياس الحبوب ويحمل الآخر أوعية فارغة، كأنه ينتظر أن تمر القسمة بينهما من دون أن يظلم أحدهما الآخر.

أسفل الصورة كُتبت العبارة التي يعرفها أهل ألدوريا:

«الأرض لمن يزرعها، والماء لمن يحفظه، والخبز لمن يحتاج إليه.»

وضعت لَمار السلة فوق إحدى الموائد. كان الوزير نيرام يقف في الجهة الأخرى من القاعة، يراجع مع الكتبة قوائم المخازن التي ستُقرأ أمام الناس. حمل دفتره المعتاد، وثبت قلمًا خلف أذنه، فيما انتقل إصبعه بين أسماء المقاطعات وأعداد الأكياس.

قال لأحد الكتبة:

— أعد حساب مخزون القناة الشرقية.

— حسبناه مرتين، يا سيدي.

— إذن احسبه ثالثة.

— العدد لم يتغير.

رفع نيرام عينيه إليه.

— وصلني هذا الصباح أن محصولين فسدا في الشرق.

قال الكاتب:

— وصلت عربات من المقاطعتين أمس، وكانت الحبوب سليمة.

— أعرف. لهذا أريد أن أعرف من يرغب في أن نصدق أنها فاسدة.

دخل الملك إيلان من الباب الجانبي. لم يرتد ثياب الاحتفال بعد، بل معطفًا بنيًا قصيرًا، وعلى حذائه آثار تراب كأنه جاء من الحقول لا من جناحه.

ناول نيرام رقعة صغيرة.

— الرسالة الثالثة منذ الفجر.

قرأ الملك ما فيها.

— المصدر؟

— تاجر من سِجّال يقول إن الخبر وصل إلى سوق الجسر قبل يومين.

— قبل أن يصل إلينا من حقولنا؟

— يبدو أن تجار زافرين يعرفون محاصيلنا أكثر منا.

أعاد إيلان الرقعة.

— لا تكذبوا الخبر.

تفاجأ نيرام.

— سيحبس التجار الحبوب، ويرتفع السعر.

— هذا ما يريده من أرسله. إذا كذبناه الآن، سيعرف أننا انتبهنا إليه. دع الخبر ينتشر داخل السوق، لكن اشتروا ما يعرضه الخائفون باسم المطاحن الصغيرة.

— وبأي سعر؟

— أقل من المعتاد قليلًا. من يبيع بسبب الإشاعة سيدفع ثمن تصديقها.

أغلق نيرام دفتره.

— ومن أطلقها؟

نظر الملك إلى صورة أردان.

— عندما نعرف من يشتري بعد ارتفاع السعر، سنعرف من أطلقها.

حمل الخدم سلال الخبز نحو الساحة الخارجية، وبقيت لَمار تجمع القطع المتناثرة فوق المائدة. لم تكن تعرف إن كان مسموحًا لها بسماع حديث الملك، لذلك أبقت رأسها منخفضًا.

دخلت امرأة طويلة ترتدي درعًا ذهبيًا خفيفًا فوق ثوب أخضر داكن. كان شعرها البني مربوطًا خلف رأسها، وعلى كتفها الأيسر شارة أسد يرفع مخالبه.

توقفت أمام الملك.

— الحشود تملأ الساحة. يمكننا بدء المراسم.

قال إيلان:

— هل فُتحت البوابة الغربية؟

— منذ الشروق.

— وعربات المقاطعات؟

— تدخل من البوابة الشمالية، لكن الطريق ضاق قرب مخزن الزيت.



كانت أديرا، فارسة الأسد الذهبي وقائدة حرس القنوات. لم تكن من الأسرة الحاكمة، ولم ترث لقبها؛ نالته بعد أن أوقفت وحدها تمرد حامية رفضت تسليم مخزن الحبوب خلال عام الجفاف.

تحرك صوت اضطراب من الساحة. تبعه صهيل مرتفع، ثم صراخ الناس.

أدارت أديرا رأسها وغادرت القاعة. تبعها الملك ونيرام، بينما اقتربت لَمار من الباب لترى ما حدث.

كانت عربة محملة بأكياس القمح قد فقدت إحدى عجلاتها عند مدخل الساحة. سقط جانبها فوق الأرض، وفزعت الخيول الأربعة المربوطة بها. انقطع أحد الأحزمة، فانطلق حصانان نحو الحشود، يجران خلفهما قطعة خشبية طويلة.

اندفع الحرس لإبعاد الناس، لكن المسافة كانت قصيرة.

تقدمت أديرا وحدها إلى وسط الطريق.

صرخ قائد الحرس:

— ابتعدي!
ثبتت قدميها فوق الأرض، وأخذت نفسًا عميقًا.
عندما أطلقت صوتها، لم يكن صرخة بشرية.
خرج زئير عميق اهتزت له نوافذ القاعة، واندفعت موجته عبر الساحة كريح قوية. توقفت الخيول فجأة، وارتفعت قوائمها الأمامية، ثم تراجعت بدل أن تندفع. سقطت القطعة الخشبية على بعد خطوات من أديرا، بينما خمد الصراخ بين الناس.
اقتربت من الحصان الأول، وأمسكت لجامه.
قالت بصوتها العادي:
— أصلحوا الطريق قبل أن تمر العربة التالية.
بدأ الناس يهتفون باسمها، وارتفع فوق الساحة نداء واحد:
— فارسة الأسد الذهبي!
لم تلتفت أديرا إلى الهتاف. سلمت الحصان إلى أحد الحراس، ثم عادت إلى جوار الملك.
قال إيلان:
— كان يمكنك إخافتهم أقل.
— كانوا يركضون نحو الأطفال.
— أتحدث عن تجار زافرين الواقفين عند البوابة. سيكتبون أن أسوار سولان اهتزت.
نظرت نحو رجلين بثياب التجار كانا يراقبانها من آخر الساحة.
— ليكتبوا أنها لم تسقط.
بدأت المراسم بعد إعادة العربة إلى جانب الطريق. صعد الملك إلى منصة القسمة، ووقفت أديرا عن يمينه، بينما جلس نيرام قرب دفاتر المخازن.
جاء أمار من بين صفوف الفلاحين. ارتدى عباءة خضراء واسعة، وتدلت من عنقه قطعة ذهبية صغيرة على هيئة رأس أسد. علقت في لحيته سنبلة يابسة، لكنه لم ينتبه إليها أو لم يهتم بإزالتها.
عرفه الناس باسم حارس البذور، أما الأسرة الحاكمة فكانت تعرفه باسم حامل الأسد الذهبي.
كان يضع يده فوق التراب فيعرف ما ينقصه، ويفتح البذرة فيشعر إن كانت ميتة أو تنتظر موسمها، حتى إن بعض الفلاحين كانوا يأتون إليه بالبذور قبل أن يأتوا بها إلى الأرض.
وقف أمار أمام صورة المؤسس، ثم رفع يده نحو لوح القوانين المحفور فيها.
قال الملك:

— بعد الانكسار، لم يقتل الجوع الناس لأن الأرض كانت عقيمة، بل لأن الأقوياء أغلقوا المخازن، وحبس أصحاب القنوات الماء عن القرى التي رفضت طاعتهم. جاء أردان، ففتح الأبواب، وقسّم الماء بين الحقول، ووضع القوانين السبعة التي لا يستطيع ملك ألدوريا تغييرها وحده.

أشار إلى الأسد الذهبي.

— اختاره رمزًا للمملكة لأن القوة التي لا تحرس الضعفاء تتحول إلى وحش، واختار الذهب لونًا له لأنه لون الحقول حين يكتمل حصادها. لم يجعل الخبز صدقة يمنحها الحاكم، بل حقًا يحميه القانون.

رفع أمار رغيفًا مستديرًا من فوق المائدة، وقسمه إلى سبع قطع. وضع كل قطعة أمام ممثل إحدى المقاطعات، ثم أخذ قطعة ثامنة صغيرة ووضعها أمام مقعد فارغ في آخر المنصة.

انتبهت لَمار إليها.

لم يسأل أحد عن المقعد، واستمرت المراسم كأن ما فعله الشيخ جزء يعرفه الجميع.

بعد انتهاء خطاب الملك، فُتحت المخازن العامة وبدأ توزيع الخبز. حملت لَمار سلة أخرى إلى الممر الخلفي، فوجدت أمار ينتظرها عند الباب.

قال:

— بقيت أرغفة؟

— ثلاثة.

أخذ واحدًا، وكسره بين يديه، ثم شم قلبه.

— قمح من الحقول الجنوبية.

نظرت إليه.

— كيف عرفت؟

— الأرض تتكلم بعد أن تصبح خبزًا أيضًا.

أعاد إليها نصف الرغيف، ثم أشار إلى الممر.

— تعالي معي.

— سيبحث عني معلم الفرن.

— قولي له إن حامل الأسد سرقك.

— سيطلب منك إعادتي قبل أن يبرد الفرن.

ابتسم أمار، وقادها إلى سلم يهبط تحت القاعة. حملت لَمار السلة وتبعته، غير عارفة لماذا اختارها من بين الخدم.

وصلا إلى مخزن طويل تضيئه فتحات ضيقة قرب السقف. اصطفت على جانبيه أكياس جديدة تحمل أختام المقاطعات، بينما تراكمت في آخره صناديق وأوعية لم تُفتح منذ أعوام.
كان نيرام هناك، يتحدث مع مشرف المخازن.
قال الوزير:
— انقلوا خمسين كيسًا من الشعير إلى المخزن الشمالي، لكن سجلوها باسم القرى لا باسم القصر.
سأله المشرف:
— بسبب أخبار فساد المحصول؟
— بسبب من يريدنا أن نصدقها.
رأى أمار ولَمار، فتوقف.
— لماذا أحضرتها؟
قال أمار:
— لأنها أخرجت الخبز من الفرن بيدها.
نظرت لَمار إليه.
— من أخبرك؟
— الرغيف.
قال نيرام:
— ليس لدينا وقت لحكاياتك اليوم.
— لهذا جئت. افتحوا المخزن القديم.
تغير وجه المشرف.
— لم يُفتح منذ الموسم الماضي.
— إذن لن يكون قد تعب من الزوار.
أخرج نيرام مفتاحًا من حزامه، وتقدم نحو باب خشبي منخفض في نهاية القاعة. فتح قفلين، ثم دفع الباب.
خرج منه هواء جاف مشبع برائحة الحبوب القديمة.
حملت لَمار مصباحًا ودخلت خلفهم. كان المخزن أصغر مما توقعت، واصطفت داخله أكياس رمادية لا تحمل أختام المقاطعات ولا تواريخ المواسم. كُتب فوق كل واحد منها رقم فقط.
مررت أصابعها فوق أول كيس.
— لمن هذه؟
قال مشرف المخازن:

— لا أحد يعرف.
أضاف نيرام:
— اسمها في السجلات حصة الغائب.
— ومن هو الغائب؟
— لو عرفناه لما بقي الاسم كذلك.
اقترب أمار من الأكياس.
— منذ عهد أردان، يوضع كيس من كل ألف داخل هذا المخزن. لا يُباع، ولا يدخل حساب الضرائب، ولا يُفتح إلا إذا أصاب الجوع أرضًا لا تستطيع إرسال حصتها إلى سولان.
قالت لَمار:
— أي أرض؟
أجاب نيرام:
— لا توجد أرض بهذه الصفة. أبقينا التقليد لأن الملوك أبقوه.
رفع أمار المصباح نحو الجدار. ظهرت فوقه كتابة قديمة كادت تختفي تحت الغبار:
«لا يُغلق المخزن ما دام الغائب لم يعد.»
قرأتها لَمار مرتين.
قال نيرام:
— عبارة من زمن المجاعات. ربما كان المقصود بها المسافرون أو القرى التي انقطعت عنها الطرق.
— وربما لم يكن، قال أمار.
توجه إلى الصف الأخير. كانت أكياسه أصغر وأشد قدمًا، وقد تحولت أليافها إلى لون بني داكن. جثا أمام أحدها وقرأ الرقم المكتوب فوقه.
نظر إلى نيرام.
— هذا من القسمة الأولى.
اقترب الوزير.
— لا يمكن أن تكون الحبوب داخله صالحة.
— لهذا سنفتح الكيس.
قال المشرف بسرعة:
— القانون يمنع فتح حصة الغائب من دون أمر الملك.
جاءهم صوت إيلان من خلف الباب:
— اعتبر أن الأمر وصل.

دخل الملك تتبعه أديرا. كان قد خلع عباءة الاحتفال، لكنه أبقى مشبك الأسد فوق صدره. نظر إلى الأكياس غير المختومة.

— لم أرَ هذا المخزن منذ كنت طفلًا.

قال نيرام:

— لا يحمل فائدة في الحسابات، لذلك لا نفتحه.

أجابه أمار:

— بعض الأشياء لا تفقد فائدتها لأنها غابت عن دفاترك.

اقترب إيلان من الكتابة فوق الجدار.

— كان أبي يقول إن حصة الغائب احتياط لمجاعة لم تأتِ.

قال أمار:

— ربما لم يأتِ أهلها بعد.

نظر الملك إليه، ثم أشار إلى الكيس.

— افتحه.

قطع مشرف المخازن الخيط القديم بحذر. تفتت جزء من القماش عند الحافة، وظهرت داخله حبوب قمح داكنة، أصغر من القمح الذي تزرعه ألدوريا الآن.

أخذ نيرام حفنة منها. ضغط حبة بين إصبعيه، فتكسرت وتحولت إلى مسحوق.

— ماتت منذ زمن.

مد أمار يده إلى الكيس، لكنه توقف قبل أن يلمس الحبوب. نظر إلى لَمار.

— ضعي يدك داخله.

— لماذا أنا؟

— لأن النار لا تأخذ منك ما تأخذه من غيرك.

ترددت، ثم أدخلت كفها بين الحبوب.

كانت باردة في البداية. وبعد لحظات شعرت بحرارة خفيفة تصعد من قاع الكيس. لم تشبه حرارة الفرن ولا حرارة الشمس؛ كانت منتظمة، كنبض بطيء يمر بين الحبات.

قالت:

— هناك شيء دافئ في الأسفل.

أخرج أمار الحبوب بيديه، وبدأ يبعدها حتى ظهر كيس صغير ملفوف بقطعة قماش سوداء. رفعه وفتح رباطه.

وجد داخله حفنة من الحبوب الذهبية.

لم تكن جافة أو متكسرة. بدت ممتلئة ولامعة، كأنها حُصدت في ذلك الصباح.
أخذ أمار حبة ووضعها فوق راحته. أغمض عينيه لحظة، ثم فتحهما.
سأله الملك:
— هل هي حية؟
قال الشيخ:
— ليست نائمة.
— ماذا تعني؟
أعاد أمار الحبة إلى الكيس الصغير.
— تعني أنها كانت تنتظر.
نظر نيرام إلى الأكياس الممتدة في الظلام.
— تنتظر ماذا؟
لم يجبه أمار.
كانت لَمار ما تزال تمد يدها داخل الكيس القديم. ارتفعت الحرارة بين أصابعها قليلًا، ثم تحركت إحدى الحبوب الذهبية نحو كفها من دون أن يلمسها أحد.
أغلقت أصابعها حولها.
وفي الخارج، كانت أجراس سولان تعلن انتهاء يوم القسمة الأولى، بينما بقي المقعد الثامن فوق المنصة فارغًا، وأمامه قطعة خبز لم يأكلها أحد.
قبل الفجر بقليل، كان بيت نائل مضاءً بمصباح واحد وُضع فوق المائدة، فبدت الأشياء حوله كأنها تستعد للغياب قبل أصحابها. طوى نائل ثوبين ووضعهما في حقيبة صغيرة، ثم أضاف إليهما لفافة من الأوراق، وأقلامه، وقارورة الحبر التي لم يكن يغادر بها حتى إلى أطراف القرية. وحين مد يده إلى كتاب سميك كان قد جمع فيه خرائط الساحل والطرق القديمة، قالت أمه من خلفه:
— لن تستطيع حمل البيت كله على ظهرك.
نظر نائل إلى الحقيبة التي امتلأت قبل أن يضع فيها نصف ما أراد، ثم أعاد الكتاب إلى الرف على مضض. لم يكن يعرف إلى أين سيذهبان، ولا كم سيطول غيابهما. كل ما قاله أوران إن سفينة وصلت من مملكة ميرازا، وإنها ستغادر مع أول المد، ولم يزد على ذلك مهما سأله.
دخلت لايارا الغرفة وهي تحمل كيسًا من القماش وضعت فيه خبزًا يابسًا وبعض الجبن والأعشاب المجففة. دفعت الكيس بين الثياب، ثم انتظرت حتى أشاح نائل بوجهه لتخرج من جيبها قطعة قماش صغيرة مطوية بعناية وتضعها في قاع الحقيبة. لمح نائل طرفها الداكن فسألها:
— ما هذا؟

أغلقت الحقيبة قبل أن يتمكن من لمسها وقالت:
— شيء كان لأبيك. احتفظ به، ولا تفتحه إلا حين تشعر أنك بعيد عن كل مكان تعرفه.
أراد أن يسألها كيف يعرف الإنسان أنه صار بعيدًا إلى ذلك الحد، لكن ثلاث طرقات هادئة وقعت على الباب. كانت الطرقات متباعدة، كأن صاحبها لا يخشى التأخر رغم أن السفينة تنتظر المد.
دخل أوران مرتديًا عباءته الرمادية، وفي يده عصاه القديمة، وعلى كتفه حزمة طويلة ملفوفة بجلد داكن ومربوطة بحبال متينة. ظن نائل أنها خيمة أو أدوات للصيد، إلا أن أوران حملها بحذر لا يناسب شيئًا عاديًا، ولم يسمح له بالاقتراب منها حين حاول مساعدته.
تأمل الشيخ الحقيبة، ثم قال:
— خفيفة بما يكفي. الطريق لا يحب الذين يحملون أكثر مما يحتاجون.
— وأي طريق هو؟
— الطريق الذي يبدأ عندما نصل إليه.
زفر نائل، فقد اعتاد أن تكون أجوبة أوران أبوابًا تؤدي إلى أبواب أخرى. حمل حقيبته واتجه نحو الخارج، لكنه توقف عندما سمع أمه تقول للشيخ بصوت منخفض:
— لقد ائتمنتك على ما بقي لي.
نظر أوران إليها طويلًا. اختفت للحظة تلك الخفة التي كان يواجه بها الأسئلة، وبدا وجهه أكثر صلابة مما يعرفه نائل.
— سأحميه حتى يعرف كيف يحمي نفسه.
اقتربت ليارا من ابنها، وسوت ياقة ثوبه كما كانت تفعل حين كان طفلًا، ثم احتضنته من غير أن توصيه بشيء. كان صمتها أثقل من كل الكلمات التي توقع سماعها. وحين ابتعد عنها، رأى عينيها معلقتين بأوران لا به، كأن الرحلة التي تخشاها بدأت بينهما منذ زمن بعيد ولم يكن هو سوى آخر من علم بها.
خرجا من البيت والقرية لا تزال نائمة. كانت النوافذ مظلمة، وأبواب الدكاكين مغلقة، والممرات الضيقة رطبة بندى الليل. مر نائل بجوار نافورة الساحة، وشجرة التين التي كان يتسلقها صغيرًا، والمنضدة الحجرية التي رسم فوقها أول خريطة للقرية. أحس أن الأشياء التي رآها كل يوم صارت أوضح في اللحظة التي أوشك فيها على تركها.
لم يلتفت إلا مرة واحدة. كانت أمه واقفة عند الباب، ساكنة تحت ضوء المصباح، ولم ترفع يدها للوداع. رفع هو يده، ثم مضى خلف أوران نحو الساحل.

كان المرفأ أكثر يقظة من القرية. تحرك البحارة بين الصناديق والحبال، وتعالت نداءات قصيرة فوق صوت الأمواج، فيما وقفت عند الرصيف الكبير سفينة مرتفعة الصواري يلمع خشبها الأزرق تحت مشاعل الميناء. وعلى شراعها المطوي ظهر شعار حيّة بحرية فضية تلتف حول لؤلؤة زرقاء.

توقف نائل يتأملها. لم يشاهد من قبل سفينة جاءت من إحدى الممالك السبع، وكانت أكبر من كل قوارب الصيادين مجتمعة. رجال بملابس زرقاء ينقلون إليها المؤن، وحراس يحملون رماحًا قصيرة يقفون عند ممرها الخشبي. وعلى جانبها كُتب اسم بحروف فضية لم يستطع نائل قراءتها كاملة بسبب الحبال.

لكن أوران لم يتجه نحوها.

تابع سيره بمحاذاة الرصيف، مارًّا بجانب البحارة والصناديق، ثم انعطف خلف مخازن الملح القديمة.

لحق به نائل وناداه:

— أليست هذه سفينتنا؟

لم يتوقف أوران.

— إنها السفينة التي ينبغي للناس أن يظنوا أننا غادرنا عليها.

نظر نائل خلفه إلى سفينة ميرازا، ثم إلى الشيخ الذي ابتعد داخل ممر ضيق بين مستودعين مهجورين.

— ومن هم هؤلاء الناس؟

— إن كنا محظوظين، فلن نعرف أسماءهم قريبًا.

انتهى الممر عند سياج متهالك خلفه طريق صخري ينحدر نحو جانب خفي من الساحل. لم تكن هناك مصابيح ولا آثار لأقدام حديثة. هبطا بين الصخور حتى اختفت أضواء المرفأ خلف الجرف، ولم يبق سوى خيط باهت من الفجر وصوت البحر يرتطم بالحجارة.

في الأسفل ظهر خليج صغير تحجبه الصخور عن القرية. بدا خاليًا في البداية، إلا أن أوران تقدم نحو كومة ضخمة من الشباك القديمة والأعشاب البحرية المتراكمة عند الماء. وضع عصاه جانبًا، وأمسك بأحد الحبال، ثم سحبه بكلتا يديه.

انزلقت الشباك ببطء، وتساقطت الأعشاب الرطبة فوق الصخور، وانكشف تحتها جانب سفينة صغيرة.

اقترب نائل خطوة، ثم نسي أن يسأل.

كان هيكلها مصنوعًا من خشب شديد السواد، لا يشبه أخشاب قوارب القرية ولا الخشب الأزرق الذي صنعت منه سفينة ميرازا. بدت قديمة، لكن ألواحها لم تحمل أثر تعفن، ولم يكن على مساميرها صدأ. ارتفع مقدّمها كحد نصل، بينما انحنت صاريتها الوحيدة فوق سطحها كغصن شجرة أوقفه الزمن قبل أن ينكسر.

وعلى جانبها، تحت طبقات الملح، ظهر نقش دائري ذو ثمانية اتجاهات، يتوسطه شكل يشبه إبرة بوصلة مفتوحة.

شعر نائل بشيء داخل حقيبته يضغط على ظهره، كأن القطعة التي أخفتها أمه في قاعها أصبحت أثقل فجأة.

دار حول السفينة بعينيه، ثم نظر إلى أوران. لم يعد الشيخ يتكئ على عصاه. كان واقفًا أمام الهيكل الأسود باستقامة غريبة، والحزمة الطويلة لا تزال فوق كتفه، وعيناه ثابتتان على السفينة كمن عاد إلى مكان تركه بالأمس.

قال نائل:

— من أين أتيت بهذه السفينة؟

لم يجبه أوران مباشرة. اقترب منها ووضع كفه على خشبها الأسود.

صدر من أعماق الهيكل صوت طويل وخافت. لم يكنِ صوت لوح تمدد تحت الرطوبة، ولا حبل تحركه الريح، بل بدا كأن السفينة أطلقت أنفاسًا كانت تحبسها منذ أعوام. ارتجف الماء حولها، وتحركت الإبرة المنقوشة في قلب البوصلة مقدار شعرة نحو جهة لم يعرف نائل لها اسمًا.

عندها قال أوران، من غير أن يرفع يده عن الخشب:

— لم آتِ بها.

في الوقت الذي كانت فيه سفينة أوران تستيقظ داخل خليجها المنسي، كان صباح آخر يبدأ في إيلورا من غير شمس.

لم تكن عاصمة نومارا تستقبل النهار كما تستقبله بقية المدن. ظلت أبراجها البيضاء مغمورة بضوء بنفسجي خافت تصنعه آلاف القطع الزجاجية المثبتة في النوافذ والقباب، حتى بدا الفجر فوقها امتداداً لحلم لم ينته بعد. وكانت البومات البيضاء تعود إلى أعشاشها في أعلى الأبراج، بينما يخرج جامعو الفوانيس إلى الأزقة قبل أن يستيقظ السكان.



كان ساهر واحدًا منهم.

دفع عربته الخشبية عبر شارع الهلال، وتوقف أمام كل بيت ليلتقط فانوسًا صغيرًا عُلّق بجوار الباب. لم تكن فوانيس إيلورا تستعمل للإنارة وحدها؛ فقد اعتاد أهل المدينة أن يضعوها قرب أسرتهم أثناء النوم، ثم يسلموها في الصباح إلى دار الأحلام، حيث يسجل الكتبة ما يرويه أصحابها من رؤى قبل أن تمحوها يقظة النهار.

لم يكن أحد يعلم أن ساهر لا يحتاج إلى سماع أصحاب الفوانيس.

كان يكفي أحيانًا أن يلمس زجاج أحدها حتى تمر أمام عينيه صورة قصيرة: رجل يسقط في بئر، امرأة تركض خلف طفل بلا وجه، أو بحّار يسمع جرسًا تحت الماء. تعلم منذ صغره أن يسحب يده سريعًا وألا يخبر أحدًا بما يراه. في نومارا، لم تكن الأحلام شأنًا خاصًا، وأي حلم لا يمر عبر كتبة المملكة قد يتحول إلى سؤال لا يرغب صاحبه في الإجابة عنه.

وصل إلى آخر بيت في الطريق، فوجد فانوسه معلقًا كما في كل صباح، لكنه لم يكن منطفئًا. اشتعل داخل الزجاج ضوء أزرق ضعيف، مع أن الفتيل احترق حتى نهايته. أمسك ساهر بالمقبض ووضع الفانوس في عربته من غير أن يلمسه مباشرة، ثم غطاه بقطعة قماش. وما إن تحرك حتى اهتزت بقية الفوانيس من حوله، كأنها ابتعدت عنه داخل الصندوق.

ظل يراقب القماش طوال الطريق إلى دار الأحلام.

كانت الدار مبنى دائريًا تتوسطه قبة رسمت عليها بومة بيضاء فاتحة جناحيها تحت قمر بنفسجي. عند الباب، استلم الكاتب المناوب الفوانيس واحدًا تلو الآخر، يضع ختمًا صغيرًا فوق كل بطاقة، حتى وصل إلى الفانوس المغطى.

رفع القماش، فتراجع خطوة.

— لمن هذا؟

نظر ساهر إلى البطاقة المعلقة بمقبضه، فوجدها بيضاء خالية من الاسم والعنوان.

— وجدته عند آخر بيت في شارع الهلال.

— لا يوجد بيت أخير في شارع الهلال.

أعاد ساهر النظر إليه، لكنه لم يجادل. كان قد سار في ذلك الشارع كل صباح منذ ثلاثة أعوام، وكان يعرف الباب الذي أخذ منه الفانوس، بل يتذكر الشق الطويل في جداره والجرس النحاسي المعلق فوقه.

مد الكاتب يده نحو الزجاج، فانطفأ الضوء الأزرق لحظة لامسته، ثم عاد أقوى من قبل. أغلق الصندوق بسرعة وأمر أحد الحراس باستدعاء المشرف، إلا أن الخبر وصل إلى القصر قبل أن يصل المشرف إلى القاعة.

بعد أقل من ساعة، كان ساهر يصعد درجات قصر الهلال الصامت بين حارسين لا يجيبان عن أسئلته.

بُني القصر فوق أعلى تلال إيلورا، وكانت نوافذه الطويلة مغطاة بستائر بنفسجية لا تفتح حتى عند الظهيرة. مر ساهر عبر ممرات تملؤها ساعات بلا عقارب، وأبواب نقشت عليها عيون مغلقة، حتى دخل قاعة واسعة لم يكن فيها سوى ثلاثة أشخاص ولوحة ضخمة معلقة خلف العرش.

جلست الملكة إيرانا في ثوب رمادي تحيط عنقها سلسلة تحمل هلالًا بنفسجيًا صغيرًا. لم تكن كبيرة السن، لكن الهدوء في وجهها جعل من الصعب تخمين عمرها. إلى يمينها وقفت لوما، حاملة رمز المملكة وحافظة سجل الأحلام الملكي، وبين يديها كتاب أبيض لا يظهر فوق غلافه حرف واحد.

أما الشخص الثالث فكان يقف أمام إحدى النوافذ وظهره إلى القاعة.

وضعت لوما الفانوس فوق منضدة منخفضة وقالت:

— هذا هو الجامع الذي عثر عليه.

التفتت الملكة إلى ساهر.

— ما اسمك؟

— ساهر.

— وماذا رأيت داخله يا ساهر؟

اضطرب للحظة. لم يكن قد أخبر الكاتب بأنه يرى شيئًا داخل الفوانيس، ومع ذلك لم تسأله الملكة إن كان قد رأى، بل سألته عما رآه.

— لم أر شيئًا.

رفعت إيرانا عينيها إلى وجهه، ثم أشارت إلى الفانوس.

— المسه.

لم يتحرك.



استدار الشخص الواقف عند النافذة، فعرف ساهر الفارسة تيرن قبل أن يسمع اسمها. كانت أطول مما بدت عليه في الرسوم، ترتدي درعًا أبيض رقيقًا نُقش فوق صدره قمر ناقص، وعلى جانبها سيف قصير ذو مقبض بنفسجي. قيل إن جيوشًا كاملة تراجعت أمامها من غير أن تضربها، لأن الذين واجهوها رأوا في لحظة واحدة أكثر الأشياء التي يخافونها.

اقتربت منه وقالت:

— الملكة لا تكرر أوامرها.

نظر ساهر إلى عينيها، فرأى فيهما بابًا مظلمًا يفتح على غرفة طفولته. سمع صوت أمه تناديه من خلف ذلك الباب، كما كانت تفعل في الليلة التي اختفت فيها، وكاد يتقدم نحوه لولا أن لوما أغلقت الكتاب الأبيض بقوة.

اختفى الباب، وعادت القاعة كما كانت.

قالت لوما للفارسة:

— ليس هنا.

أبعدت تيرن نظرها عنه، فعاد ساهر قادرًا على التنفس. تقدم نحو المنضدة ووضع أصابعه على زجاج الفانوس.

انطفأت القاعة.

رأى مدينة بيضاء قائمة وسط بحر أسود، تتصل بها طرق تمتد في ثمانية اتجاهات. لم تكن هناك سفن في موانئها ولا بشر في شوارعها، ومع ذلك كانت النوافذ تفتح واحدة بعد أخرى كأن المدينة تستيقظ. وفي ساحتها وقف ثمانية أشخاص حول بوصلة كبيرة مرسومة على الأرض.

لم ير وجوههم. كانت ظلالهم ممتدة نحو الخارج، إلا أن ظل الشخص الثامن تحرك في الاتجاه المعاكس، ثم رفع رأسه كأنه استطاع أن يرى ساهر خلف الحلم.

ظهرت فوق المدينة يد تحمل قلمًا، وبدأت تمحو الطريق المؤدي إليها.

سحب ساهر يده، فسقط الفانوس على المنضدة من غير أن ينكسر.

بقي صامتًا لحظات، ثم حكى ما رآه. لم تقاطعه الملكة، لكن أصابعها انغلقت حول الهلال المعلق في عنقها عندما ذكر الأشخاص الثمانية.

قالت إيرانا:

— لا توجد مدينة وسط البحر الأسود.

فتحت لوما كتابها الأبيض. تقلبت صفحاته وحدها بسرعة، ثم توقفت عند صفحة فارغة.

— ولا يوجد بحر أسود في الخرائط المحفوظة لدينا.

— إذن كان حلمًا.

قالتها الملكة، لكنها لم تكن تنظر إلى ساهر، بل إلى اللوحة خلف العرش.

تبع ساهر نظرها.

كانت اللوحة تصور نايرا، حارسة الحلم ومؤسسة نومارا. ظهرت بثوب أبيض يقف طرفه فوق غيوم بنفسجية، وعلى ذراعها بومة ناصعة الريش، وخلفها قمر كبير يضيء وجوه رجال ونساء نائمين. عرف ساهر القصة التي يحفظها كل طفل في المملكة: بعد الانكسار العظيم، انتشرت بين الناجين أحلام جعلتهم يهاجمون بعضهم ويهربون من أشياء لا وجود لها، فجمعت نايرا أحلامهم داخل أول فانوس، وأعادت إليهم عقولهم. واختارت البومة رمزًا لأنها ترى الطريق حين يعجز الناس عن رؤيته، واختارت القمر البنفسجي لأنه يقف بين نور الحقيقة وظلمة الوهم.

لكن شيئًا في اللوحة لم يوافق القصة.

لم تكن البومة تنظر إلى القمر.

كان رأسها ملتفًا نحو حافة الصورة، وعيناها مثبتتين على مساحة ضيقة بين الإطار والجدار، كأن هناك شخصًا يقف خارج اللوحة. ومع امتداد الضوء الأزرق من الفانوس، ظهر فوق الجدار ظل جناح إضافي لا يعود إلى البومة ولا إلى أي شيء في القاعة.

رأته لوما أيضًا.

اقتربت من اللوحة، ومررت يدها فوق إطارها، ثم قالت:

— حين رُسمت هذه الصورة، كان وجه البومة متجهًا نحو نايرا.
سألت تيرن:
— هل أنت متأكدة؟
— أنا التي أنظف سجل اللوحات كل عام. لم تختلط عليّ صورته.
نهضت الملكة إيرانا. اتجهت إلى اللوحة، لكنها لم تلمسها. ظلت تنظر إلى عيني البومة قبل أن تقول:
— كان مؤسسو الممالك السبعة يروون أن نايرا اختارت رمزها لأنها أول من رأى الحقيقة بعد الانكسار. يبدو أنهم لم يخبرونا إلى أي جهة كانت تنظر.
التفتت إلى تيرن.
— استدعي فرسان الحلم، وأغلقي أبواب دار السجلات. لا يخرج منها كتاب ولا يدخل إليها ناسخ حتى آمرك.
وضعت تيرن يدها فوق مقبض سيفها.
— هل نستعد لحرب؟
— نستعد لمعرفة من بدأها قبل أن نولد.
ثم نظرت الملكة إلى لوما وأضافت:
— خذي الفانوس إلى الغرفة التي لا ينام فيها أحد. لا تفتحيه، ولا تسمحي له بأن ينطفئ.
حملت لوما الفانوس بحذر، إلا أن الضوء الأزرق مال داخل زجاجه نحو ساهر وهو يبتعد، كأن الشعلة تتبعه بعين لا ترمش.
استدار ساهر نحو الباب، فوقف الحارسان أمامه.
قال:
— لقد أخبرتكم بما رأيت.
أجابته الملكة:
— ولهذا لن تعود إلى شارع الهلال اليوم.
— أنا مجرد جامع فوانيس.
— كنت كذلك هذا الصباح.
فتحت تيرن بابًا جانبيًا وأشارت إلى الحارسين أن يأخذاه. وقبل أن يغادر، نظر ساهر مرة أخيرة إلى لوحة المؤسسة. كانت نايرا في مكانها، والقمر خلفها، والبومة فوق ذراعها، لكن الظل الثامن اختفى.
ولم يبق على الجدار سوى خط أسود رفيع، يشبه طريقًا بدأ أحدهم يرسمه من جديد.

وفي الجهة التي بدا الخط الأسود كأنه يشير إليها، كان البحر يستعد لإخراج شيء احتفظ به زمنًا طويلًا.



تحت مياه خليج اللؤلؤ، كانت إيسا تهبط بين الصخور والحبال القديمة، وفي كاحلها سلة صغيرة تجمع فيها المحار. ابتعد ضوء الصباح فوق رأسها حتى صار دائرة زرقاء باهتة، لكن ذلك لم يدفعها إلى العودة. كانت تعرف قاع الخليج كما يعرف أهل اليابسة طرق أحيائهم، وتستطيع أن تشعر بتغير التيارات قبل أن تتحرك الرمال.

لم يكن أهل سيلمارا يرون في ذلك أمرًا غريبًا. فقد وُلد كثيرون في ميرازا وهم يجيدون السباحة قبل المشي، إلا أن أحدًا منهم لم يكن يستطيع البقاء تحت الماء مثل إيسا.

كانت تحبس أنفاسها زمنًا يجعل الغواصين الآخرين يصعدون مرتين قبل أن تحتاج هي إلى الهواء. وحين يسألونها كيف تفعل ذلك، تقول إن صدرها صغير وان البحر لا ينتبه إليها. لم تخبرهم بأنها، كلما طال بقاؤها في الأعماق، أحست أن الماء يتنفس بدلًا عنها.

مرت بجوار بقايا سفينة تجارية غرقت قبل سنوات، ثم توقفت.

كان التيار ينساب نحو الشرق منذ بداية الصباح، لكن خصلة من شعرها تحركت في الاتجاه المعاكس. رفعت يدها، فشعرت بموجة باردة تمر بين أصابعها وتتجه نحو شق ضيق في الصخور. تبعتها.

خلف الشق وجدت قطعة خشب سوداء عالقة بين الأعشاب. لم تكن مغطاة بالطحالب مثل حطام السفن القديمة، ولم يظهر عليها أثر للماء، كأنها سقطت في البحر قبل لحظات. نزعتها من بين الصخور، فاهتز القاع تحتها اهتزازًا خفيفًا.

سمعت صوتًا بعيدًا.

لم يكن صوت حوت ولا ارتطام صخور، بل أنينًا طويلًا يشبه استيقاظ أبواب خشبية ضخمة. جاء الصوت من مكان أبعد من الخليج، ثم مرت موجة دافئة تحت قدميها حاملة معها أسراب الأسماك في اتجاه الساحل.

قلبت إيسا قطعة الخشب، فرأت فوقها جزءًا من دائرة محفورة وخطين يتقاطعان مثل إبرتي بوصلة.

عندها نفد الهواء من صدرها دفعة واحدة.

صعدت بسرعة، واخترقت سطح الماء وهي تسعل، بينما كانت أجراس سيلمارا تعلن فتح الميناء.

امتدت عاصمة ميرازا فوق سبع مصاطب تنحدر نحو البحر. كانت قنوات الماء تمر بين بيوتها الزرقاء، وتعبر تحت جسور مقوسة تصل الأسواق بالأحياء المرتفعة. وفي أسفل المدينة، وقفت السفن الطويلة على أرصفة من حجر أبيض، تحمل أشرعتها رمز حيّة بحرية فضية ملتفة حول لؤلؤة زرقاء.

سبحت إيسا إلى رصيف الغواصين ورفعت سلتها. صاح بها المشرف حين رأى أنها عادت بنصف ما طلبه، لكنها ألقت قطعة الخشب أمامه.

— وجدت هذا في القاع.

نظر المشرف إليها، ثم إلى الخشب.

— لا أحد يدفع ثمن الحطام.

— لم يكن حطامًا.

— كل خشب في البحر حطام.

حاول دفع القطعة بقدمه نحو الماء، لكنها لم تتحرك. انحنى وأمسكها بيديه، فبقيت ثابتة فوق الرصيف كأن جزءًا منها مغروس في الحجر.

تغير وجهه.

استدعى حارسين من رجال الميناء، ولم تمض ساعة حتى كانت إيسا تصعد نحو قصر المد الأزرق، بثياب لا تزال تقطر ماءً وقطعة الخشب محمولة خلفها داخل صندوق حديدي.

بُني القصر عند الحد الفاصل بين اليابسة والبحر. كان نصفه يرتفع فوق الجرف، بينما تنزل قاعاته السفلية تحت الماء عبر درجات زجاجية ترى الأسماك من خلفها. وفي قلبه قامت قاعة العرش فوق حوض دائري يصل مباشرة بأعماق البحر.

دخلت إيسا القاعة فوجدت الملكة تاليا واقفة أمام خريطة بحرية كبيرة. كانت ترتدي ثوبًا أزرق داكنًا، وشعرها الأسود مربوطًا بخيط فضي بسيط. لم يكن على رأسها تاج؛ فقد وُضع تاج ميرازا فوق قاعدة حجرية بجوار العرش، كأن الملكة لا تستعمله إلا حين تحتاج المملكة إلى رؤيته.

إلى جانبها وقفت سافيرا، حاملة رمز المملكة وحافظة لؤلؤة الأعماق. كانت تمسك بين كفيها لؤلؤة زرقاء كبيرة يتغير ضوؤها مع حركة الماء في الحوض.

أما الرجل الذي وقف عند حافة الخريطة فكان كايلان، فارس حيّة البحر وقائد الأسطول الفضي. ارتدى درعًا من حراشف معدنية رقيقة، وحمل رمحًا طويلًا ينتهي بنصل معقوف. قيل إن ضربته لا تأتي من قوة ذراعه وحدها، إذ كان يستطيع جمع ضغط الماء حول رأس رمحه، ثم إطلاقه دفعة واحدة ليشق أبواب السفن أو يقلبها من غير أن يلمسها.

فتح الحارسان الصندوق ووضعا قطعة الخشب أمام الملكة.

سألت تاليا:

— أين وجدتها؟
— في شق خلف حطام السفينة الشرقية.
— منذ متى غرقت تلك السفينة؟
أجاب كايلان:
— سبع سنوات.
اقتربت سافيرا من الخشب، فاشتد ضوء اللؤلؤة بين يديها.
— وهذا لم يبق في الماء سبع ساعات.
نظرت الملكة إلى إيسا.
— ماذا حدث حين لمسته؟
ترددت قبل أن تجيب:
— تغير التيار، وسمعت سفينة تستيقظ.
ابتسم أحد الحراس ساخرًا، لكن كايلان التفت إليه فاختفت الابتسامة.
سألت تاليا:
— هل رأيتها؟
— لا.
— كيف عرفت أنها سفينة؟
لم تجد إيسا جوابًا. كانت تعرف فقط أن الصوت الذي سمعته لا يمكن أن ينتمي إلى شيء آخر.
قالت سافيرا:
— بعض الأشياء لا يسمعها المرء بأذنيه.
وضعت لؤلؤة الأعماق فوق قطعة الخشب.
في اللحظة التي تلامستا فيها، ارتفع الماء داخل الحوض الدائري من غير أن يفيض. دار حول نفسه ببطء، ثم تشكل فوقه هيكلٌ صغير لسفينة ذات صارية واحدة ومقدمة تشبه حد النصل. لم يظهر لها شراع ولا راية، لكن نقشًا مضيئًا برز على جانبها: بوصلة مفتوحة ذات ثمانية اتجاهات.



حدق كايلان في الشكل المائي.

— لا تحمل رمز أي مملكة.

قالت تاليا:

— لأنها صنعت قبل أن تصبح الرموز ممالك.

اتجهت أنظارهم نحو اللوحة المعلقة خلف العرش.

كانت تصور ميرالا، سيدة الأعماق ومؤسسة ميرازا. جلست فوق عرش حجري في قاع البحر، وشعرها الفضي يطفو حولها كالأمواج. التف خلفها ثعبان بحري ضخم، بينما حملت في يدها لؤلؤة زرقاء تشع وسط الظلام. وفي أعلى اللوحة ظهرت سفن صغيرة تعبر بحرًا هادئًا تحت حمايتها.

حفظ أطفال ميرازا قصتها كما حفظوا أسماء المد والجزر. بعد الانكسار العظيم، ابتلع البحر مدنًا كاملة وتفرقت السفن بين الجزر الجديدة. نزلت ميرالا إلى الأعماق، وروضت حيّة البحر التي كانت تحطم المراكب، ثم استخرجت من قلبها أول لؤلؤة زرقاء. وبنورها رسمت الطرق الآمنة بين الجزر، فاختارت الحيّة الفضية رمزًا لقوة البحر، واللؤلؤة رمزًا للنور الذي يولد في أشد الأماكن ظلمة.

رفعت سافيرا اللؤلؤة عن قطعة الخشب، لكن شكل السفينة بقي فوق الحوض.

قالت:

— لم تخبرنا السجلات بكل شيء.

أشارت إلى أسفل لوحة المؤسسة. كانت هناك ثمانية أخاديد صغيرة منحوتة في قاعدة العرش الذي تجلس فوقه ميرالا. امتلأت سبعة منها بلون أزرق، أما الأخدود الثامن فظل أسود حتى بدأت المياه تتحرك داخله.

تقدمت تاليا خطوة.

— لم أر هذا الأخدود من قبل.

أجابتها سافيرا:

— كان موجودًا، لكننا ظنناه شقًّا في الحجر.

تحركت المياه فوق الحوض، واتجهت مقدمة السفينة المصغرة نحو نقطة بعيدة في الخريطة. لم تكن تشير إلى أي من عواصم الممالك السبع، بل إلى ساحل صغير لا يحمل اسمًا.

قال كايلان:

— وصلت إحدى سفننا التجارية إلى ذلك الساحل الليلة الماضية.

نظر إلى سجل موضوع فوق الخريطة، وفتحه عند آخر صفحة.

— رست في قرية صغيرة لتحميل المؤن. حُجز فيها مكانان لرجل مسن وفتى، لكنهما لم يصعدا إلى السفينة.

سألت الملكة:

— من حجز المكانين؟

— رجل دفع بقطعة فضية قديمة لا تحمل ختمًا. قال للقبطان إن اسمه أوران.

لم تتحرك إيسا، لكن الماء العالق في أطراف شعرها ارتفع نحو قطعة الخشب بدل أن يسقط على الأرض.

لاحظت سافيرا ذلك.

اقتربت منها وقالت:

— أنت لم تجد الخشب لأنه كان في طريقك. التيار أخذك إليه.

— التيارات لا تختار الناس.

— تيارات ميرازا لا تفعل. أما هذا التيار فلا أعرف إلى أي بحر ينتمي.

أمسك كايلان رمحه.

— أرسل سفن الاستطلاع قبل أن تصل الممالك الأخرى إلى الساحل.

قالت تاليا:

— سترسل السفن، لكنك لن ترفع راية الحرب.
نظر إليها كايلان.
— إذا كانت السفينة قديمة كما نظن، فكل مملكة ستريد الاستيلاء عليها.
— ولهذا يجب أن نصل إليها قبلهم.
— لنأخذها؟
هزت الملكة رأسها.
— لنعرف من عليها، ولماذا احتاج إلى خداع سفينتنا حتى يغادر.
أغلقت سجل الرحلات، ثم نظرت إلى إيسا.
— ستذهبين معهم.
رفعت إيسا رأسها في دهشة.
— أنا غواصة لآلئ، ولست من رجال الأسطول.
— رجال الأسطول وقفوا فوق الرصيف ولم يسمع أحد منهم السفينة. أنت سمعتها من قاع البحر.
— لا أعرف كيف فعلت ذلك.
قالت تاليا:
— قد يكون هذا سببًا كافيًا لتذهبي، وسببًا أخطر لتبقي هنا.
اعترض كايلان:
— قد تبطئنا.
وضعت إيسا يدها فوق قطعة الخشب. تحركت السفينة المصنوعة من الماء داخل الحوض، ودارت مقدمتها نحو باب القاعة.
قالت سافيرا:
— أظن أن الطريق لن يظهر من دونها.
ساد الصمت لحظة، ثم رفع كايلان رمحه عن الأرض.
— يبحر الأسطول الفضي عند المد التالي.
تلاشى شكل السفينة فوق الحوض، وعاد الماء إلى مكانه، لكن لؤلؤة الأعماق بقيت مضيئة في يد سافيرا. داخل زرقتها ظهر خط أسود رفيع يمتد عبر البحر، ثم انقسم إلى طريقين: أحدهما اتجه نحو الساحل، والآخر مضى إلى مكان خالٍ في الخرائط.
رأته تاليا، ولم تخبر به أحدًا.
نظرت إلى لوحة ميرالا، فوجدت أن حيّة البحر الفضية لم تعد ملتفة حول العرش كما كانت. انفصل رأسها عن ذيلها قليلًا، وتركت بينهما فراغًا يتسع لمرور سفينة واحدة.

وفي مكان بعيد عن سيلمارا، كانت سفينة أوران السوداء تفتح شراعها للمرة الأولى منذ أن مُحي اسم المملكة التي صنعتها.

لم يحتج أوران إلى رفع المرساة؛ فما إن استقام الشراع الأسود فوق الصارية حتى اهتز الحبل المربوط بالصخرة وانفلت من عقدته وحده، ثم انسحب إلى داخل السفينة كأن يدًا خفية جمعته من الماء.

كان نائل واقفًا قرب المقدمة، ممسكًا بحافة السفينة، يراقب الخليج الصغير وهو يبتعد ببطء. لم يسمع صرير مجاديف، ولم ير بحارًا واحدًا يتحرك فوق السطح، ومع ذلك شقت السفينة طريقها بين الصخور كأنها تعرف المسافة التي تفصلها عن كل حجر.



التفت إلى أوران، فوجده عند مؤخرة السفينة يزيل عن عجلة القيادة غطاءً جلديًا قديمًا.

— أين الطاقم؟

رفع أوران الغطاء وطواه بعناية.

— لا يوجد طاقم.

نظر نائل إلى الشراع، ثم إلى الحبال الممتدة فوق رأسه.
— ومن سيقود السفينة؟
— الشخص الذي يعرف الطريق.
— أنت؟
وضع أوران يده فوق العجلة.
— لا أعرف لماذا يبدو ذلك مفاجئًا لك.
— لأنك لم تقد حتى عربة في القرية. كنت تطلب مني دفعها كلما علقت في الوحل.
— كنت أحافظ على قوتي لهذا اليوم.
قالها بالهدوء نفسه الذي كان يستعمله كلما أراد إنهاء سؤال من دون أن يجيب عنه. تقدم نائل نحوه، لكن السفينة مالت فجأة وهي تدور حول آخر صخرة تحجب الخليج، فاضطر إلى الإمساك بأحد الحبال.
خرجت السفينة إلى البحر المفتوح.
كانت سفينة ميرازا لا تزال راسية في الجانب الآخر من المرفأ. ظهرت صواريها الزرقاء خلف أسطح المخازن، وتحرك فوقها البحارة كأشكال صغيرة لا تعرف أن الرجل والفتى اللذين حُجز لهما مكانان أصبحا يغادران على متن سفينة أخرى.
رفع نائل عينيه إلى قمة الجرف. لم يعد يستطيع رؤية بيتهم، ولا الساحة، ولا شجرة التين، لكنه عرف المكان الذي تقف فيه أمه خلف التلال. انتظر أن يشعر بالحزن كما توقع، إلا أن الذي جاءه كان إحساسًا غريبًا بأن القرية لم تبتعد عنه، بل أغلقت بابها خلفه.
مد يده إلى حقيبته، فتحسس قطعة القماش التي وضعتها أمه في قاعها. كانت هناك، ساكنة بين الثياب والخبز اليابس.
قال من غير أن ينظر إلى أوران:
— هل كانت تعرف أننا لن نركب سفينة ميرازا؟
— نعم.
— وهل تعرف إلى أين نذهب؟
تأخر أوران قبل أن يجيب.
— تعرف ما يكفي لتخاف.
التفت نائل إليه.
— وأنت تعرف أكثر؟
— أعرف ما يكفي لأسرع.

لم يكن أوران يبدو مسرعًا. ظل واقفًا خلف العجلة بظهر منحني قليلًا، وعباءته الرمادية تتحرك مع الريح، لكن يده لم ترتجف فوق الخشب. كانت أصابعه تعرف مواضع الحفر القديمة في العجلة، وتنتقل بينها كما لو أنها لم تفارقها إلا بالأمس.

اقترب نائل أكثر. في وسط العجلة تجويف دائري تحيط به ثمانية خطوط دقيقة. أخرج أوران من داخل عباءته البوصلة القديمة التي رآها نائل في غرفته، ووضعها داخل التجويف.

استقرت فيه كأنها صنعت من أجله.

دارت الإبرة بسرعة، مرت بالشمال والجنوب والشرق والغرب، ثم واصلت دورانها فوق الاتجاهات الأربعة الأخرى. ظن نائل أنها ستتباطأ، لكنها ظلت تدور حتى وضع أوران إصبعين فوق زجاجها.

توقفت الإبرة.

لم تشر إلى الشمال، بل إلى مساحة فارغة في قلب البحر.

قال نائل:

— البوصلة معطلة.

— لو كانت معطلة لأخذتنا إلى مكان موجود على الخرائط.

— وإلى أين تأخذنا الآن؟

رفع أوران إصبعيه، فتحركت الإبرة قليلًا ثم عادت إلى الاتجاه نفسه.

— إلى مكان حاولت الخرائط نسيانه.

توقع نائل أن يضيف شيئًا، لكنه لم يفعل. أدار العجلة نصف دورة، فتغير اتجاه السفينة، بينما بقي الشراع منتفخًا رغم أن الريح كانت تضربه من الجانب الآخر.

فتح نائل حقيبته وأخرج لفافة خرائطه. نشر إحداها فوق صندوق خشبي مثبت إلى السطح، ثم وضع عند أطرافها قطعًا صغيرة من الحجارة حتى لا تحملها الريح.

كانت خريطة الساحل التي رسمها بنفسه خلال السنوات الماضية. عرف انحناءة الخليج، ومواقع الصخور السوداء، والممر الذي يقود إلى المرفأ. نقل إصبعه من القرية إلى عرض البحر، ثم توقف.

لم يكن في الاتجاه الذي تسلكه السفينة سوى مساحة زرقاء واسعة تتخللها بعض الجزر الصغيرة. وبعدها يبدأ الجزء الذي نسخه من خرائط التجار، حيث تقل التفاصيل وتزداد الخطوط المترددة.

نظر إلى أوران.

— إذا واصلنا بهذا الاتجاه، فسنمر شمال جزر الملح.

— لن نمر بها.

— البوصلة تشير إليها.
— بوصلة التجار تشير إليها. أما هذه فلا تقرأ البحر بالطريقة نفسها.
— البحر واحد.
ابتسم أوران من دون أن ينظر إليه.
— هذا أول خطأ ينبغي أن تتخلص منه.
جلس نائل قرب الصندوق وأخرج قلم الفحم. رسم موقع الخليج، وحدد اتجاه السفينة، ثم راقب الشمس ليحسب ميلها. كان قد تعلم من أبيه، أو مما بقي له من دفاتره، أن البحر يمكن أن يخدع العين لكنه لا يستطيع خداع الظل.
بعد وقت قصير أعاد القياس.
لم تتطابق النتيجة مع الأولى.
عبس ومسح الخط، ثم رسمه من جديد. انتظر حتى ارتفعت الشمس أكثر، وقاس المسافة مرة ثالثة. ظهر الساحل في موضع مختلف.
رفع رأسه. كانت اليابسة لا تزال خلفهم، لكنها بدت أبعد مما تسمح به سرعة السفينة. اختفت أبراج المرفأ، ثم الجرف، ثم التلال العليا، كأن البحر يطوي المسافة بينهم وبين القرية بدل أن يقطعها.
تقدم نحو أوران ووضع الخريطة أمامه.
— نحن لا نسير بهذه السرعة.
— صحيح.
— لكن الساحل اختفى.
— صحيح.
— هل ستقول شيئًا غير ذلك؟
نظر أوران إلى الخطوط الثلاثة التي رسمها نائل.
— الخط الأول هو ما رأيته. والثاني هو ما حسبته. والثالث هو ما أصررت على تصديقه بعدما اختلف الاثنان.
— أيها الصحيح؟
— هذا ما ستتعلمه حين تتوقف عن سؤال الورق أن يختار بدلًا منك.
أمسك نائل بالخريطة، وعاد إلى مقدمة السفينة وهو يتمتم بكلمات لم يحاول أوران سماعها.
مر النهار بطيئًا فوق السطح وسريعًا حول السفينة. عبرت أسراب من الطيور فوقهما ثم عادت في الاتجاه الذي جاءت منه. ظهرت جزيرة صخرية إلى الشرق، وحين فتح نائل خريطته ليحددها لم يجد شكلًا يشبهها. وما إن رفع رأسه مرة أخرى حتى لم يجد الجزيرة أيضًا.

في أسفل السفينة كانت هناك حجرة صغيرة للنوم، ومخزن لم يحتو إلا على برميلين من الماء وصندوق من الأدوات القديمة. كانت الجدران جافة رغم أن السفينة بقيت سنوات مخبأة قرب الماء، ولم يجد نائل رائحة العفن التي تملأ قوارب الصيادين.

وجد كذلك بابًا ضيقًا في مؤخرة الممر السفلي. لم يكن له مقبض، وفي وسطه نقش البوصلة ذات الاتجاهات الثمانية.

دفعه فلم يتحرك.

جرب أن يدخل طرف سكينه بين الخشب والإطار، فجاءه صوت أوران من أعلى الدرج:

— إذا اضطررت إلى كسر باب كي تعرف ما خلفه، فاعلم أن ما خلفه لم يحن وقته بعد.

رفع نائل رأسه.

— هل تسمعني من فوق؟

— أسمع محاولاتك أكثر مما أسمعك.

— ماذا يوجد هنا؟

— شيء لن يهرب قبل أن تصبح مستعدًا لرؤيته.

ترك نائل السكين في مكانه لحظة، ثم سحبها وعاد إلى السطح.

كان أوران قد ثبت العجلة بحبل واحد، وجلس قرب الصارية يفك الحزمة الطويلة التي حملها من البيت. وما إن رأى نائل يقترب حتى أعاد لف الجلد حولها.

لمح نائل جزءًا معدنيًا داكنًا قبل أن يختفي.

— قلت إنها أدوات للصيد.

— لم أقل ذلك.

— جعلتني أظنها أدوات للصيد.

— لا أستطيع تحمل مسؤولية كل ما تقرر أن تظنه.

جلس نائل في الجهة المقابلة، وأسند ظهره إلى حافة السفينة.

— أمي قالت إن سفينة جاءت من ميرازا. وأنت حجزت مكانين عليها حتى يظن الناس أننا غادرنا بها. ثم أخفيت هذه السفينة في خليج لا يعرفه أحد. والآن نحن نتبع بوصلة لا تشير إلى الشمال، فوق بحر يجعل خرائطي خاطئة. هل تنوي إخباري بما يحدث قبل أن نغرق، أم بعده؟

— لن نغرق.

— هذا ليس جوابًا.

— لكنه الجزء الوحيد من السؤال الذي يجب أن يقلقك الآن.

صمت نائل، وأشاح بوجهه نحو البحر. كان يعرف أن الغضب من أوران يشبه الغضب من جدار؛ لا يفتح فيه بابًا، لكنه يتعب اليد التي تضربه.

حين انخفضت الشمس، تغير لون الماء. اختفت الزرقة وتحول السطح إلى رمادي داكن لا يعكس السماء. ثم بدأ الضباب يرتفع من البحر، لا من الأفق. خرج أولًا في خيوط رفيعة بين الأمواج، ثم تجمع حول السفينة حتى ابتلع أطرافها.

نهض نائل.

— لا أرى شيئًا.

لم يجب أوران. وقف خلف العجلة، وأمسكها بكلتا يديه. لم يعد ظهره منحنيًا كما كان، ولم تعد حركته تشبه حركة شيخ يحمل جسده بصعوبة. ثبت قدميه فوق الخشب، وشد الحبل القريب منه بحركة واحدة، فانقلب الشراع إلى الجهة الأخرى.

رآه نائل للحظة وسط الضباب كما لم يره من قبل: كتفان مستقيمان، قبضة قوية، وعينان تعرفان ما تنتظرانه خلف البياض.

ثم عاد أوران فانحنى فوق العجلة، كأن الصورة لم تكن إلا خدعة صنعتها حركة السفينة.

جاء من أمامهما صوت ارتطام عميق.

أمسك نائل بالحافة.

— صخور؟

— نعم.

— وأنت لا تراها.

— لا أحتاج إلى رؤيتها.

بدأت السفينة تنعطف بين ممرات لا تظهر إلا لحظة اقترابها. برزت الصخور من الضباب كجدران سوداء، بعضها قريب إلى درجة أن نائل استطاع لمس الماء المتساقط فوقه. كانت السفينة تمر بينها من دون أن تتباطأ، تميل مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار، بينما تتحرك إبرة البوصلة داخل العجلة قبل كل انعطاف.

لم ينظر أوران إلى الإبرة. كان يدير العجلة قبل أن تتحرك.

بعد الانعطاف السابع، انفتح الضباب فجأة.

ظهرت أمامهما جزيرة.

ارتفعت من البحر على هيئة كتلة صخرية تحيط بها منحدرات سوداء. غطت الأشجار الجزء الأعلى منها، وتدلت جذورها فوق الحواف كأنها تحاول الوصول إلى الماء. لم يظهر شاطئ ولا ميناء، لكن بين صخرتين طويلتين كان هناك ممر ضيق يكفي لعبور السفينة.

فتح نائل خريطته بسرعة، بحث في المساحة التي يفترض أن تكون أمامهما، ثم في الخرائط الأخرى التي حملها.

لم يجد الجزيرة.

رفع عينيه إليها من جديد. قرب أعلى المنحدر ظهر بناء حجري صغير، أو ما بقي منه، وفي جداره دائرة ذات ثمانية اتجاهات.

شعر بالقطعة المخفية في حقيبته تضغط على ظهره مرة أخرى. هذه المرة لم تكن أثقل فقط، بل دافئة.

قال:

— لا توجد جزيرة هنا.

أخرج أوران البوصلة من العجلة، فأغلقت إبرتها فوق نفسها وسكنت.

— لهذا جئنا إليها.

— ما اسمها؟

وجه أوران السفينة نحو الممر الضيق.

— الأسماء تجعل العثور على الأشياء أسهل.

— وهذا يعني أنها بلا اسم؟

— يعني أن اسمها ليس شيئًا ينبغي أن تحمله معك إذا وقعت في يد من يبحثون عنها.

ضاقت المسافة بين الصخرتين، وأظلم الماء تحتهما. أمسك نائل بخريطته والحقيبة، ثم نظر إلى الجزيرة التي كبرت أمامه حتى حجبت البحر كله.

— كم سنبقى هنا؟

قال أوران:

— حتى تتوقف الأرض عن سبقك.

— لم أفهم.

— أعرف.

دخلت السفينة بين الصخرتين، وعاد الضباب فأغلق البحر خلفهما. ظهرت في الداخل بحيرة هادئة تحيط بها الأشجار والمرتفعات، وعلى شاطئها بقايا رصيف حجري لم تطأه قدم منذ زمن طويل.

خفض أوران الشراع، ثم نظر إلى نائل.



— أحضر حقيبتك.

— وماذا سنفعل؟

حمل أوران الحزمة الطويلة، وقفز إلى الرصيف. وحين استقام، بدا للحظة أطول من الشيخ الذي غادر القرية مع نائل.

قال من غير أن يلتفت إليه:

— سنعرف أولًا إن كنت تستطيع العودة إلى هذه السفينة قبل غروب الشمس.

ثم مضى وحده نحو الأشجار.

مضى أوران وحده نحو الأشجار، ولم يترك وراءه سوى آثار عصاه فوق التراب الرطب.

ظل نائل واقفًا عند الرصيف الحجري، يراقب ظهر الشيخ وهو يصغر بين الجذوع حتى ابتلعه ظل الغابة. أراد أن يناديه ويسأله كيف يُفترض به العودة إلى سفينة تقف خلفه أصلًا، لكنه أدرك أن السؤال نفسه قد يكون جزءًا من الفخ الذي أعده له أوران.

وضع الحقيبة فوق كتفه، ثم سمع صوتًا عميقًا يأتي من داخل الجزيرة.

لم يكن صرخة حيوان ولا سقوط شجرة. اهتزت الطيور فوق الأغصان، وارتفعت دفعة واحدة قبل أن تتفرق في السماء. انتظر نائل أن يتكرر الصوت، لكن الغابة عادت إلى سكونها كأن شيئًا لم يحدث.

وفي أقصى شمال قاسران، كان صوت آخر يشق الفجر، إلا أنه لم يأتِ من غابة مجهولة، ولم يترك لمن سمعه وقتًا ليتساءل عن مصدره.

ارتج برج المراقبة القائم فوق الممر الشمالي، وتساقط الغبار من سقفه الحجري. فتح أحد الحراس عينيه ورفع رأسه عن الطاولة التي نام فوقها، بينما اندفع قائد النوبة إلى النافذة الضيقة.

كان الفجر قد بدأ يلون قمم الجبال بلون رمادي باهت. امتدت الثلوج فوق المرتفعات البعيدة، وانحدرت منها طرق ضيقة تؤدي إلى الأراضي الشمالية. لم ير القائد شيئًا في البداية، إلا أن أسراب الطيور كانت تغادر الجبال متجهة نحو الجنوب.

قال الحارس الذي استيقظ لتوه:

— هل انهار جزء من الجبل؟

لم يجبه القائد. بقي ينظر إلى الطريق الذي يمر بين قمتين مرتفعتين، ثم مد يده إلى المنظار النحاسي المعلق قرب النافذة.

لم يكن الطريق خاليًا.

ظهرت فوق الثلج نقاط سوداء تتحرك في صفوف متقاربة. بدت في البداية كأنها قطيع حيوانات نزل من المرتفعات، لكن القائد رأى خلفها خطوطًا طويلة من الرجال، تتحرك بينهم رماح مرفوعة وعربات ضخمة تجرها دواب مكسوة بالحديد.

خفض المنظار لحظة، ثم أعاده إلى عينه.

لم تكن فوق الجيش رايات.

قال الحارس:

— تجار؟

أجابه القائد من دون أن يلتفت:

— التجار لا يخفون راياتهم.

اقترب الحارس من النافذة، لكنه لم يحتج إلى المنظار طويلًا. كانت النقاط السوداء تقترب بسرعة لا تشبه حركة الرجال. قفز أولها فوق صخرة مرتفعة، فظهر جسده كاملًا تحت ضوء الفجر.

كان ذئبًا أسود بحجم حصان، عريض الصدر، طويل القوائم، يخرج بخاره من فمه كالدخان.

ارتدى فوق رأسه قناعًا حديديًا يمتد حتى عنقه، وجلس فوق ظهره مقاتل يحمل رمحًا طويلًا.

ظهر ذئب ثانٍ، ثم ثالث، ثم خرجت عشرات الذئاب من الممر.

وعندما وصل أول ضوء إلى الجيش خلفها، رُفعت الرايات دفعة واحدة.

انتشرت فوق الثلج رايات سوداء يتوسطها ذئب تحت هلال أحمر.
قال القائد:



— رهفان.
لم تكن الكلمة عالية، لكنها بدت داخل الغرفة أثقل من صوت الانفجار الأول.
التفت إلى الحارس وأمره:
— أشعل نار التحذير.
ركض الحارس نحو السلم المؤدي إلى سطح البرج، بينما أمسك القائد بالجرس الحديدي المعلق قرب الباب وضربه ثلاث مرات. استيقظ الجنود في الطابق السفلي، وتعالت أصوات الأقدام فوق الدرج.
خرج قائد النوبة إلى السطح. في أعلى البرج كانت كومة من الحطب الجاف مغطاة بطبقة من القماش المشمع. نزعها الحارس، وسكب الزيت فوق الخشب، ثم أخرج حجر الإشعال.
قبل أن يضرب الحجرين، انطلق من جيش رهفان صوت بوق طويل.
توقفت الذئاب.
توقفت الصفوف خلفها.
وحين ساد الصمت، سمع جنود البرج صرير شيء ضخم يتحرك وراء الجيش. ظهرت أذرع المجانيق فوق المرتفع واحدة بعد أخرى، كأن أشجارًا سوداء نمت من الثلج.

صرخ القائد:
— أشعلها!
ضرب الحارس المجرين. خرجت شرارة صغيرة وسقطت فوق الزيت.
وفي اللحظة نفسها، تحرك أول منجنيق.
ارتفع حجر ضخم في السماء، واختفى للحظة داخل ضوء الفجر، ثم هبط نحو البرج.
لم تشتعل نار التحذير.
اصطدم الحجر بالطابق العلوي، فانفجر جزء من السور الحجري، وطارت الأخشاب والحديد فوق الجنود. سقط الحارس قرب كومة الحطب، بينما اندفع قائد النوبة إلى الأرض وضربت الشظايا كتفه.
جاء الحجر الثاني قبل أن يتمكن من الوقوف.
أصاب قاعدة البرج، فاهتزت الجدران وظهر شق طويل يمتد من الباب حتى السقف. سقط الجرس الحديدي، وتدحرج فوق الدرج وهو يطلق أصواتًا متقطعة.
نهض القائد بصعوبة. كان الدم يسيل من كتفه، لكنه أمسك بأحد الجنود ودفعه نحو السلم.
— إلى الممر السفلي. أرسل رسولًا إلى دمهار.
قال الجندي:
— لا يمكننا ترك البرج.
— لم أقل اتركوه. قلت أرسل رسولًا.
هبط الجنود إلى الساحة الصغيرة المحاطة بالسور. كان في البرج أربعون رجلًا، نصفهم لم يرتدوا دروعهم بعد. حملوا الأقواس والرماح، ودفعوا العوارض الخشبية خلف البوابة.
وصلت الذئاب قبل المشاة.
قفز أول ذئب فوق الحاجز الصخري الخارجي، فاصطدمت قوائمه بالأرض وأطلقت حجارة صغيرة في الهواء. أطلق الرماة سهامهم، فارتدت بعضها عن القناع الحديدي، واستقرت أخرى في كتفه، لكنه واصل الاندفاع حتى اصطدم بالبوابة.
اهتز الخشب تحت الضربة.
اصطدم ذئب ثانٍ بها، ثم ثالث.
ومن فوق الأسوار، رأى جنود قاسران جيش رهفان ينقسم إلى ثلاثة أجنحة. لم يكن الهجوم يستهدف برجهم وحده؛ تحركت قوة إلى الشرق نحو الحصن القائم فوق الجسر، واتجهت قوة أخرى غربًا إلى طريق المناجم، بينما استمر قلب الجيش في التقدم عبر الممر.
لم يكن ذلك غزوًا بدأ عند الفجر.
كان غزوًا أُعد قبل أن يعرف أحد في قاسران أن الحرب قادمة.

في أسفل البرج، فتح جنديان بابًا حديديًا صغيرًا يؤدي إلى نفق الطوارئ. اختار قائد النوبة أصغر رجال الحامية سنًا، ووضع في يده أنبوبًا معدنيًا مختومًا بشعار قاسران.
قال له:
— اذهب إلى دمهار. لا تتوقف عند القرى، ولا تسلم الرسالة إلى قائد حصن أو حاكم مدينة. تصل إلى القصر، وتضعها في يد الملكة أو سايرن.
نظر الجندي إلى الأنبوب، ثم إلى البوابة التي بدأت ألواحها تتشقق.
— ماذا أقول لهم؟
— قل إن رهفان عبرت الحدود من دون راية مفاوضات، وإن ما رأيناه ليس طليعة استطلاع.
توقف القائد لحظة عندما ظهر فوق التل صف جديد من المجانيق.
— وقل لهم إن الأعداد التي رأيناها تكفي لابتلاع الشمال.
دفع الجندي داخل النفق وأغلق الباب خلفه.
كان الممر منخفضًا ورطبًا، محفورًا تحت الصخر منذ بناء البرج. ركض الرسول منحنيًا، والأنبوب المعدني مضغوط إلى صدره. سمع فوقه ارتطام الحجارة بالجدران، ثم صوتًا أعلى من كل ما سبقه.
توقفت ذئاب رهفان عن ضرب البوابة.
تراجعت خطوات قليلة.
ثم اندفع أكبرها، وكان مكسوًا بدرع أسود يمتد من رأسه إلى ظهره. ضرب الخشب بكتفه، فانكسر العارض الأول. عاد إلى الخلف، ثم ضربه مرة ثانية، فتشقق الباب من الوسط.
ثبت جنود قاسران رماحهم خلف الفتحة.
دخل رأس الذئب أولًا. أصابته ثلاثة رماح، لكنه هز عنقه بعنف، فارتطم أحد الجنود بالجدار. انفتحت البوابة، ودخل فرسان الذئاب إلى الساحة.
قاتل رجال البرج في المكان الضيق، مستفيدين من الجدران التي تمنع العدو من الالتفاف حولهم. سقط أول فارسين، ثم الثالث، لكن جنود رهفان تدفقوا من الباب المحطم، وخلفهم تقدمت الرماح السوداء في صفوف منتظمة.
صعد قائد النوبة فوق الدرج المكسور، والتقط شعلة سقطت قرب الحطب. كانت النار قد بدأت أخيرًا في طرف القماش المشبع بالزيت، لكنها بقيت صغيرة، لا يمكن للحصن التالي رؤيتها.
نظر إلى كومة الحطب، ثم إلى سقف البرج الخشبي.
ألقى الشعلة داخله.
اشتعل السقف، وانتقلت النار إلى الطابق الأعلى. ارتفع الدخان الأسود فوق البرج، أكبر من نار التحذير التي أرادوا إشعالها.

رآه الحصن القائم جنوب الممر.
لكن الوقت كان قد تأخر.
خرج الرسول من النفق عند سفح صخري بعيد عن البرج، ووجد حصانين مربوطين داخل تجويف في الجبل. قطع حبل أحدهما، وصعد فوقه من غير سرج، ثم اندفع عبر الطريق الجنوبي.
بعد مسافة قصيرة سمع انهيار البرج خلفه.
لم يلتفت.
كان الطريق إلى دمهار طويلًا، يمر بمحطات عسكرية وقرى صغيرة بنيت حول المناجم. ظن الرسول أن هجوم رهفان توقف عند الممر الشمالي، لكن حين بلغ أول مرتفع رأى دخانًا يرتفع من جهة الجسر الشرقي.
وعندما وصل إلى طريق المناجم، وجد الجنود ينسحبون منه.
صاح أحدهم:
— إلى أين تذهب؟
— دمهار.
— الطريق الرئيسي أصبح مكشوفًا.
— معي رسالة للملكة.
أشار الجندي إلى مسار ضيق يهبط بين الصخور.
— اسلك طريق ناقلي الحديد. إذا بقيت فوق الطريق الرئيسي فستراك الذئاب قبل أن ترى أنت أصحابها.
غير الرسول اتجاهه. كان حصانه يلهث، لكن أصوات العواء التي بدأت تنتشر خلفه منعته من التوقف.
عند الظهيرة مر قرب قرية لم يصل إليها خبر الحرب بعد. كان الناس يخرجون إلى الحقول، والأطفال يحملون سلال الفحم إلى الورش. حاول رجل إيقافه ليسأله عما حدث، لكنه واصل الركض وهو يصرخ:
— أغلقوا الأبواب! اتركوا الطريق واتجهوا جنوبًا!
لم ينتظر ليرى إن صدقوه.
مع حلول المساء ظهرت خلفه أولى طلائع رهفان. لم ير الرجال، بل رأى ظلال الذئاب تتحرك فوق الحافة الجبلية. كانت تقترب رغم أن حصانه لم يتوقف منذ الصباح.
انحنى فوق عنق الحيوان، وضرب جانبه بقدمه.

وصل إلى محطة تبديل الخيول قبل الغروب. وجد فيها ثلاثة حراس لم يعرفوا بعد أن البرج سقط. أبرز لهم الأنبوب المختوم، فأعطوه أسرع خيولهم. وبينما كان يصعد فوقه، سمعوا العواء يأتي من الطريق الشمالي.

قال قائد المحطة:

— كم يبعدون؟

أجابه الرسول:

— أقرب مما ينبغي.

أغلق الحراس البوابة خلفه، وبقي هو يركض نحو الجنوب.

لم يعرف كم مرة غيّر حصانه بعد ذلك، ولا متى أصابه السهم. شعر بضربة في جانبه عند عبوره ممراً مكشوفاً، لكنه لم يسقط. كسر السهم وترك رأسه داخل جسده، ثم ضغط ثوبه فوق الجرح وأكمل الطريق.

مر بقرى بدأت أجراسها تدق، وبقوافل تهرب من الشمال، وبجنود يتجهون إلى الحدود من دون أن يعرفوا أن الحصون التي أُرسلوا إليها لم تعد قائمة.

وفي صباح اليوم التالي ظهرت دمهار.

ارتفعت العاصمة بين جبلين أسودين، محاطة بأسوار متدرجة صنعت من كتل حجرية ضخمة ثبتت بينها صفائح من الحديد. خلف الأسوار علت الأبراج والمنازل، وفي أعلى المدينة ظهر القصر الملكي منحوتاً داخل الجبل، تعلوه راية الثور الحديدي.

كانت أبواب المدينة مفتوحة، تعبر منها عربات الخام وقوافل الطعام. لم تصل الحرب بعد إلى شوارعها، ولم يكن الناس يعرفون أن أكثر من حصن في الشمال سقط منذ الفجر السابق.

اقترب الرسول من البوابة مترنحاً فوق الحصان.

رفع الحراس رماحهم عندما رأوه يندفع وسط القوافل.

صاح أحدهم:

— توقف!

حاول الرسول أن يجيب، لكن صوته لم يخرج. رفع الأنبوب المعدني بيده، فرأى قائد البوابة شعار الحامية الشمالية فوق غطائه.

أمر الحراس بإفساح الطريق.

دخل الحصان تحت القوس الحجري، ثم تعثرت قوائمه الأمامية. سقط الرسول فوق الأرض، وتدحرج الأنبوب من يده حتى اصطدم بحذاء قائد البوابة.

انحنى القائد ورفعه.

كان الختم الحديدي محترقاً من طرفه، وعلى سطح الأنبوب آثار مخالب عميقة.

فتح الرسول عينيه بصعوبة، وأمسك بطرف عباءة القائد.

— رهفان...

اقترب القائد منه.

— ماذا عن رهفان؟

قال الرسول الكلمة الثانية بصوت لم يسمعه إلا الرجال الواقفون حوله:

— دخلت.

ثم أغلق عينيه.

ظل قائد البوابة واقفًا لحظة، ممسكًا بالأنبوب. رفع رأسه نحو الطريق الشمالي، لكنه لم ير جيشًا ولا دخانًا خلف الجبال. كانت المدينة من حوله تواصل يومها بصورة عادية؛ الباعة ينادون، والعربات تعبر، وأجراس الورش تضرب الحديد.

أعطى الأنبوب إلى أحد الحراس وقال:

— إلى القصر. لا تسلمه إلا لقائد الحرس الملكي.

ثم اتجه إلى الحبل المعلق داخل غرفة البوابة، وأمسكه بكلتا يديه.

كانت دمهار تملك أجراسًا لكل خطر: جرسًا للحريق، وآخر لانهيار المناجم، وثالثًا لإغلاق الأسوار. أما الجرس الأكبر فلم يُضرب منذ سنوات طويلة، لأن صوته لم يكن يُستعمل إلا عندما يعبر جيش أجنبي حدود قاسران.

سحب القائد الحبل.

اهتز الجرس فوق البوابة، وانتشر صوته بين الجبلين.

توقفت المطارق داخل الورش.

رفعت الوجوه نحو الأسوار.

وأُغلقت أبواب دمهار ببطء، بينما كان حامل الرسالة يصعد نحو القصر، ولم يكن أحد هناك يعرف بعد أن الحرب بدأت قبل أن يسمعوا جرسها.

لم يسمع نائل جرس دمهار، لكنه سمع الصوت العميق داخل الجزيرة مرة أخرى.

جاء هذه المرة من جهة مختلفة. التفت نحو الأشجار، فلم يجد أثرًا لأوران سوى العلامات التي تركتها عصاه فوق التراب. شد حقيبته واتبعها، معتقدًا أن الشيخ سيقوده إلى مكان ما ثم يختبئ ليراقبه.

استمرت الآثار بين الجذوع مسافة قصيرة، ثم انتهت عند أرض صخرية جافة.

انحنى نائل يبحث عنها في الجهة الأخرى، فلم يجد شيئًا. اختار الممر الأوسع، ورسم بقلم الفحم خطًا فوق جذع أول شجرة مر بها. وبعد قليل رسم خطًا ثانيًا، ثم ثالثًا، وهو يحاول الاحتفاظ باتجاه البحيرة خلفه.

حين ظهرت أمامه شجرة تحمل خطًا أسود، ابتسم معتقدًا أنه وصل إلى الجهة الأخرى من المسار.

ثم رأى خطين إضافيين فوق الجذوع القريبة.

توقف.

كانت علاماته الثلاث أمامه.

نظر إلى السماء، لكن الأغصان المتشابكة حجبت الشمس. أخرج إحدى خرائطه ووضعها فوق صخرة، ثم بدأ يرسم الممرات التي سلكها. ظهر الطريق مستقيمًا على الورق، بينما أعاده إلى نقطة البداية.

مسح الخط ورسمه من جديد، ثم رفع رأسه إلى الأشجار.

قال لنفسه:

— الأشجار لا تتحرك.

جاءه صوت أوران من ذاكرته: «هذا أول خطأ ينبغي أن تتخلص منه.»

طوى الخريطة وأعادها إلى حقيبته. اتجه هذه المرة إلى اليمين، لكنه توقف بعد خطوات. لو كانت العلامات تخدعه، فلن يفيده اختيار طريق آخر بالطريقة نفسها.

جلس قرب جذع عريض وأغمض عينيه.

سمع الريح تمر بين الأوراق، وحفيف حيوان صغير فوق الأغصان، وخرير ماء بعيد. كان الماء يأتي من جهتين، لكن صوتًا واحدًا كان منتظمًا، يرتفع ثم ينخفض كما تفعل الأمواج حين تضرب الرصيف.

نهض واتبع الصوت.

لم يرسم علامات جديدة. كان يتوقف كلما اختفى خرير الماء، وينتظر حتى يسمعه مرة أخرى. وحين اقترب المساء، ظهرت فوق الأشجار طيور بيضاء تعود في أسراب صغيرة. لم تتجه نحو البحر الخارجي، بل مالت إلى جهة واحدة داخل الجزيرة.

تبعها نائل.

بدأت الأرض تنخفض، وأصبحت رائحة الماء أقوى. وبعد دقائق خرج من بين الأشجار فرأى البحيرة الداخلية أمامه، والسفينة السوداء راسية قرب الرصيف الحجري.

كان آخر طرف من الشمس لا يزال ظاهرًا فوق المنحدر.

رفع نائل يده كأنه يثبت للشمس أنها لم تغرب بعد، ثم ركض نحو الرصيف.

وجد أوران جالسًا قرب نار صغيرة، يقلب قطعة خبز فوق حجر ساخن. لم يبدُ عليه القلق، ولم يرفع رأسه حين سمع خطوات نائل.

قال نائل وهو يلتقط أنفاسه:

— عدت قبل الغروب.
نظر أوران إلى طرف الشمس.
— بقليل.
— لكنه لم يغب.
— لم أقل إنه غاب.
جلس نائل قبالته.
— إذن نجحت.
سأله أوران:
— أين كنت؟
— داخل الغابة.
— الغابة كبيرة.
— سلكت الطريق بين الأشجار.
— أي طريق؟
فتح نائل فمه، ثم أغلقه. أخرج خريطته ونشرها، فرأى الخطوط المتقاطعة التي رسمها قبل أن يتوقف عن الاعتماد عليها.
قال:
— لا أعرف.
أعاد أوران قطعة الخبز إلى النار.
— إذن وصلت، ولم تعد.
— ما الفرق؟
— الذي يعود يعرف الطريق الذي أعاده. أما أنت فنجوت من الضياع مرة واحدة.
نظر نائل إلى السفينة خلفه.
— اتبعت صوت الماء والطيور.
— ولو هبت الريح من جهة أخرى؟
لم يجبه.
مد أوران يده إلى جانبه، وأخذ عصًا خشبية قصيرة ألقاها أمام نائل. لم تكن من أغصان الجزيرة؛ كان خشبها داكنًا، ومقبضها ملفوفًا بقطعة جلد قديمة.
التقطها نائل.
— ما هذه؟

— شيء تحتاج إليه حين لا تجد طريقك بعيدًا عن الحيوانات الوديعة.
— توجد حيوانات غير وديعة هنا؟
أخرج أوران قطعة الخبز من فوق الحجر.
— ستعرف غدًا.
رفع نائل العصا واختبر وزنها، ثم نظر إلى الغابة التي خرج منها. كانت العلامات السوداء التي رسمها قد اختفت خلف الظلام، لكن الصوت العميق عاد من مكان ما بين الأشجار.
هذه المرة لم تفر الطيور.
وفي دمهار، كانت الرسالة القادمة من الحدود قد وصلت إلى باب القصر.
وصل الأنبوب المعدني إلى قاعة المجلس قبل أن تنتهي رنة الجرس الأكبر.
كانت الأبواب قد أُغلقت، وانتشر الحرس في الممرات المؤدية إلى القاعة، بينما وقف عدد من القادة حول طاولة حجرية نُحتت فوقها جبال قاسران وطرقها وممراتها. لم تكن الطاولة خريطة مرسومة، بل صورة مصغرة للمملكة كلها؛ ارتفعت فوقها القمم، وغارت الوديان، وثُبتت عند مواضع الحصون قطع صغيرة من الحديد.
جلست الملكة ميرافا عند رأس الطاولة. لم ترتدِ تاجها، ولم يكن فوق كتفيها سوى عباءة رمادية أُلقيت على عجل. وقف سايرن إلى يمينها مرتديًا الدرع الأسود الذي يغطي ذراعه اليسرى، بينما استند إيلدار إلى عصاه قرب الجدار، بعيدًا عن القادة والخرائط.
دخل قائد الحرس وهو يحمل الأنبوب بكلتا يديه.
كان الغطاء محترقًا من أحد أطرافه، وعلى سطح المعدن آثار مخالب غائرة. اقترب من الطاولة ووضعه أمام الملكة.
قال:
— وصل من البرج الشمالي.
سأل سايرن:
— أين الرسول؟
— في دار المعالجة. أُصيب بسهم، وغيّر ثلاثة خيول قبل أن يبلغ دمهار. لم يستطع الكلام إلا لحظات.
رفعت ميرافا الأنبوب وتفحصت الختم المحطم.
— ماذا قال؟
— قال إن رهفان دخلت.
ساد الصمت في القاعة.

لم يبدُ الخبر مفاجئًا لإيلدار. أمال رأسه قليلًا، ووضع كفه فوق الجدار خلفه، كأنه يحاول سماع شيء يتحرك في قلب الجبل. أما القادة، فتبادل بعضهم النظرات قبل أن يعودوا إلى الخريطة.
فتح سايرن الأنبوب وأخرج منه قطعة جلد مطوية. كان نصفها ملطخًا بالدم، لكن الكتابة بقيت واضحة. نشرها فوق الطاولة، وثبت أطرافها بأربع قطع حديدية.
اقترب نائب سايرن.
لم يحمل الرجل اسمًا يناديه به الجنود في القاعة؛ كانت رتبته تكفي. كان قائد الفيلق الملكي، أقوى فيالق قاسران، والرجل الذي تولى تنظيم دفاعات العاصمة في غياب سايرن. ارتدى درعًا خاليًا من الزينة، ووضع فوق كتفه مشبكًا على هيئة رأس ثور صغير.
قرأ الرسالة مرة، ثم أعاد قراءتها ببطء.
قال سايرن:
— ماذا ترى؟
وضع نائبه إصبعه عند الممر الشمالي.
— البرج لم يكن هدفهم الوحيد. انقسموا قبل الهجوم. قوة اتجهت إلى الجسر الشرقي، وقوة إلى طريق المناجم، بينما واصلت الطليعة عبورها من الممر.
قال أحد قادة الحصون:
— كم يبلغ عددهم؟
لم يجب نائب سايرن فورًا. أخرج من جراب صغير ألواحًا رقيقة من الحديد، ووضعها واحدًا بعد آخر فوق الخريطة. حمل كل لوح علامة إحدى فرق رهفان التي عرفتها حاميات الحدود.
وضع اللوح الأول عند الممر.
— ثمانية آلاف في الطليعة. هؤلاء عبروا الحدود قبل أن تصل الرسالة إلى دمهار.
ثم وضع خلفه أربعة ألواح أكبر.
— الجيش كله خمسة وأربعون ألف جندي.
ارتفعت همهمة خافتة في القاعة.
قال أحد القادة:
— خمسة وأربعون ألفًا؟ لا يستطيع فاريك تحريك هذا العدد من هاروك من دون أن نسمع به.
أجابه نائب سايرن:
— لم يحركهم دفعة واحدة. خرجوا من الحصون في مجموعات صغيرة، وساروا بلا رايات. جُمعت الفرق خلف الجبال، ثم عبرت ليلة الهجوم من ثلاثة طرق.
سأل سايرن:
— المجانيق؟

— سبعون منجنيقًا.
نظر إليه القائد مرة أخرى.
— سبعون؟
— رأى البرج الصف الأول منها قبل سقوطه. أما أبراج المراقبة الشرقية، فقد أرسلت إشارات بعدد العربات التي مرت خلف الجسر. إذا جمعنا الإشارات بتقرير الرسول، فالعدد سبعون.
أخذ قطعة حديد سوداء ووضعها أمام بقية الألواح.
كانت على هيئة ذئب.
قال:
— ومئتان وأربعون ذئبًا أسطوريًا.
توقفت الهمهمة.
حتى القادة الذين واجهوا رجال رهفان من قبل لم يواجه أكثرهم سوى ذئب أو اثنين. كان الواحد منها بحجم حصان، يستطيع كسر صف من الرماح إذا بلغ الجنود قبل أن يثبتوا أقدامهم. أما وجود مئتين وأربعين في جيش واحد، فكان يعني أن فاريك لم يرسل حملة لتأديب حصن أو الاستيلاء على منجم.
لقد أرسل القوة التي تحتفظ بها رهفان لحروبها الكبرى.
قالت ميرافا:
— من يقود الجيش؟
أجاب نائب سايرن:
— الأميرة نيرفا.
رفع سايرن رأسه.
كانت فارسة الذئب الأسود معروفة في الممالك السبع. سمع عنها حين كان يقاتل في الحصون الغربية، وعرف أنها لا تقود جيشًا من الخلف، ولا ترسل جنودها إلى طريق لم تختبره بنفسها.
أخذ مطرقته القصيرة ووضع رأسها فوق الممر المنحوت في الطاولة.
— إذا كانت نيرفا معهم، فلن يتوقفوا عند الحصون. سيفتحون طريقًا واسعًا يسمح بمرور المجانيق، ثم يتجهون إلى السهل الداخلي.
قال أحد القادة:
— يمكننا إغلاق الممر عليهم.
أشار نائب سايرن إلى الجسر الشرقي.
— لم يعد الممر وحده مفتوحًا. إذا أخذوا الجسر، سيمر نصف الجيش من الشرق. وإذا سيطروا على طريق المناجم، فسيحصلون على طريق ثالث يصلح لعربات الإمداد.

قالت ميرافا:

— وقواتنا؟

أجاب قائد المخازن العسكرية:

— اثنان وثلاثون ألفًا يمكن جمعهم للجبهة الشمالية. بعض الوحدات ما زالت في الحصون، لكنها تستطيع الالتحاق بالجيش أثناء تقدمه.

قال سايرن:

— اثنان وثلاثون ألفًا في مواجهة خمسة وأربعين.

قال نائبُه:

— لن نقاتلهم في أرض مفتوحة.

حرك إحدى القطع الحديدية، ووضعها عند وادٍ ضيق يقع جنوب الممر.

— هنا لا تستطيع الذئاب الانتشار، ولا تستطيع المجانيق التقدم إلا في صفوف طويلة. إذا سبقناهم إلى الوادي، فلن يقاتلنا خمسة وأربعون ألفًا دفعة واحدة.

نظر سايرن إلى الموضع.

— سيحاولون دفعنا إلى الخلف حتى يبلغوا السهل.

— ولهذا يتولى الفيلق الملكي قلب الجيش. إذا تحركت الدروع الثقيلة خلفه، فلن يعبروا الوادي إلا فوق رجالنا.

قال قائد آخر:

— وإذا أسقطوا صخور المجانيق فوق الصفوف؟

أجاب نائب سايرن بهدوء:

— عندها نقيم جدار الثور.

انتقلت النظرات إليه.

لم يكن الاسم سرًا، فقد سمع أهل دمهار عنه في الأغاني العسكرية، ورأوا جنود الفيلق يتدربون بالدروع في ساحات مغلقة. لكن قلة من خارج الفيلق عرفوا كيف يعمل التشكيل، ولم يُستخدم بكامل قوته منذ سنوات.

نظر سايرن إلى أخته.

— نحتاج إلى الجيش كله.

سألته ميرافا:

— كم تحتاج إلى إخراجه من دمهار؟

قال قائد المخازن:

— يومان لتجهيز العربات والمؤن.
قال نائب سايرن:
— نصف يوم.
التفت إليه القادة.
واصل:
— الطعام الموجود في مخازن الثكنات يكفي الطريق إلى الشمال. تصل العربات الباقية خلفنا. إذا انتظرنا يومين، فسنصل بعد أن تحوّل رهفان حصوننا إلى مواقع تحمي بها تقدمها.
قال قائد المخازن:
— وإذا انقطعت طرق الإمداد؟
— حينها لن ينفعنا الطعام الذي تركناه في دمهار.
ظل سايرن ينظر إلى الخريطة. كانت المسافة بين العاصمة والممر الشمالي طويلة بالنسبة إلى جيشٍ يحملٍ آلاف الدروع، لكنها لم تعد مسافة تقاس بالطرق وحدها. كل ساعة تمر تمنح رهفان حصناً جديداً، وكل حصن يسقط يجعل إخراجهم أكثر كلفة.
قال:
— يتحرك الجيش قبل الغروب.
اعترض أحد القادة:
— لن تكون جميع الكتائب جاهزة.
— تتحرك الجاهزة أولًا، وتلحق بها البقية.
رفعت ميرافا يدها، فسكت الجميع.
نظرت إلى نائب سايرن.
— الفيلق الملكي تحت قيادتك.
ضرب الرجل قبضته فوق صدره.
— سيصل إلى الشمال قبل أن ترى رهفان أسوار دمهار.
ثم نظرت إلى سايرن.
— وأنت تقود الجيش.
أومأ.
— سأوقفهم عند الوادي.
قالت الملكة:

— لا أريد إيقافهم فقط. أريد أن يعرف فاريك أن الأرض التي دخلها من دون إنذار لن تمنحه طريقًا إلى العاصمة.

تحرك القادة نحو الأبواب، يحمل كل منهم أمرًا مختلفًا. خرج قائد المخازن لتجهيز الطعام، وتبعه قائد الرماة لإرسال الاستدعاءات إلى الثكنات. بقي نائب سايرن لحظة أمام الخريطة، يعيد القطع الحديدية إلى جرابه.

قال له سايرن:

— ثمانية آلاف من طليعتهم سبقت الجيش. إذا بلغنا الوادي، فقد نجدهم في انتظارنا.

— إذن نأخذ الوادي منهم.

— لا تستهِن بنيرفا.

رفع النائب عينيه إليه.

— لم أفعل يومًا.

وضع آخر قطعة داخل الجراب، ثم أضاف:

— لكن نيرفا تعتمد على أن يتراجع الرجال عندما يرون الذئاب. رجال الفيلق لن يتراجعوا.

خرج من القاعة.

تبعه سايرن، لكن صوت إيلدار أوقفه عند الباب.

— سايرن.

التفت إليه.

كان الشيخ لا يزال واضعًا كفه فوق الجدار.

قال:

— حين يضرب الحديد الحديد، لا تثق بالصوت الذي تسمعه أولًا.

انتظر سايرن تفسيرًا، لكن إيلدار سحب يده واستند إلى عصاه.

— هل تتحدث عن الجيش؟

أجابه الشيخ:

— أتحدث عن الجدران. هي لا تسقط دائمًا من الجهة التي يضربها العدو.

نظر سايرن إليه لحظة، ثم خرج من القاعة.

وفي الوقت الذي كانت فيه أبواب ثكنات دمهار تُفتح، كان جيش رهفان قد ابتلع الطريق الشمالي.

امتدت طلائع الجيش فوق الأرض من الممر حتى التلال التي تحيط بالجسر. تحرك ثمانية آلاف جندي في المقدمة، يحملون رماحًا طويلة ودروعًا سوداء ضيقة. لم يسيروا في كتلة واحدة؛ انتشرت وحداتهم بين الطرق، تستولي على المرتفعات وتغلق الممرات الصغيرة قبل وصول بقية الجيش.

خلفهم تقدمت الصفوف الرئيسية.

لم تظهر نهاية الجيش لمن يقف عند البرج المحطم. كلما عبرت كتيبة من بين الجبلين، ظهرت وراءها رايات أخرى، ثم عربات، ثم جنود يحملون الفؤوس والسلالم. بلغ عدد الرجال خمسة وأربعين ألفًا، وتحولت خطواتهم فوق الطريق الحجري إلى صوت مستمر يشبه هدير ماء يجري تحت الأرض.

ارتفعت فوقهم رايات رهفان السوداء. تحرك الذئب المرسوم فوقها مع الريح، بينما بدا الهلال الأحمر من بعيد كجرح مفتوح في السماء الرمادية.

سارت المجانيق في قلب الجيش.

كانت سبعين آلة ضخمة صنعت أذرعها من جذوع أشجار الجبال، وثبتت قواعدها فوق عجلات مكسوة بحلقات حديدية. احتاج كل منجنيق إلى عدة دواب لجره، وسار إلى جانبه رجال يحملون الحبال والزيت وقطع الخشب الاحتياطية. كانت حجارتها موضوعة في عربات منفصلة، بعضها مستدير مصقول، وبعضها كتل سوداء انتُزعت من جبال رهفان من دون أن تُشكّل.

أما الذئاب الأسطورية، فقد تحركت على جانبي الجيش.

مئتان وأربعون ذئبًا، أكبرها يعلو رأسه فوق رؤوس الخيول. غطت أقنعة الحديد وجوهها، وانحدرت صفائح الدروع فوق أعناقها وظهورها. حمل بعضها فرسانًا برماح طويلة، بينما سارت أخرى بلا ركاب، مربوطة بسلاسل غليظة يمسك بكل واحدة منها رجلان.

لم تكن تتحرك كالحيوانات المدربة. كانت تشد السلاسل، وتغرس مخالبها في الأرض، وتلتفت نحو رائحة الدم القادمة من الحصون. وكلما مر أحدها قرب جثة، احتاج حارسه إلى ضرب السلسلة بقضيب حديدي حتى يعيده إلى الصف.

في مقدمة الجيش، وقفت نيرفا فوق صخرة تطل على الطريق.

ارتدت درعها الأسود، وثبتت رمحها إلى جانبها. كان الذئب الذي حملها أضخم من بقية الذئاب، وعلى جبهته ندبة بيضاء امتدت من عينه إلى طرف فكه. لم تربطه سلسلة، ولم يحتج إلى رجل يقوده.

وقف أحد ضباطها أمامها.

— سقط الجسر الشرقي.

سألته:

— وطريق المناجم؟

— انسحبت حاميته إلى الجنوب. تركوا خلفهم عربتين محترقتين، لكن الطريق مفتوح.
نظرت نيرفا إلى الدخان المتصاعد من جهة الحصون.
— لا تطاردوا المنسحبين. نحتاج إلى الطرق، لا إلى جثثهم.
— وصلت طلائعنا إلى بداية السهل.
— توقف عند التلال.
رفع الضابط رأسه إليها.
— يمكننا التقدم قبل أن يصل جيش قاسران.
— إذا نزلت الطليعة وحدها إلى السهل، سيغلق سايرن الممر خلفها.
نزعت رمحها من الصخرة.
— تتحرك الطليعة حين تصل المجانيق. الذئاب في الجناحين، والمشاة في القلب. لا يدخل أحد الوادي قبل أن أراه.
هبطت من الصخرة، فخفض الضابط رأسه.
من حولها كان الجيش يواصل العبور. لم يكن هجوم رهفان اندفاعًا غاضبًا بدأ عند الحدود؛ كان غزوًا حُسبت طرقه وعرباته وطعامه قبل أسابيع، ولم يكن سقوط الأبراج سوى أول خطوة فيه.
وفي دمهار، أُفرغت الشوارع المؤدية إلى البوابة الشمالية.
توقفت عربات التجار، وأُغلقت الورش القريبة من الطريق. انتشر الجنود في الساحات، فيما وقف الناس فوق الأسطح والنوافذ يتابعون الرايات الخارجة من الثكنات.



تجمّع اثنان وثلاثون ألف جندي من قاسران داخل العاصمة وخارج أسوارها.
تقدمت كتائب المشاة أولًا، يحمل رجالها رماحًا عريضة النصال وسيوفًا قصيرة صُممت للقتال داخل الممرات الضيقة. لم تكن دروعهم متشابهة؛ بعضها صُنع في دمهار، وبعضها حمل آثار الحصون والمناجم، لكن علامة الثور الحديدي ظهرت فوق صدورهم جميعًا.
وراءهم اصطف ثمانية آلاف من أصحاب الدروع الثقيلة.
كانت دروعهم مستطيلة، تمتد من الكتف إلى ما تحت الركبة، ويزن الواحد منها ما يعجز جندي من الممالك الأخرى عن حمله طوال يوم كامل. تدرب رجال قاسران على السير بها فوق المنحدرات، وعلى تثبيت أطرافها في الأرض حين تبدأ السهام بالسقوط.
تبعهم ستة آلاف من الرماة وأصحاب المقاليع. حمل الرماة أقواسًا قصيرة تناسب القتال بين الصخور، بينما علق أصحاب المقاليع أكياس الحجارة المعدنية إلى أحزمتهم. لم تكن حجارتهم كبيرة، لكنها صُنعت في أفران دمهار، وكانت قادرة على تحطيم خوذة من مسافة لا يبلغها السيف.
أما حرس الممرات، وعددهم خمسة آلاف، فقد ارتدوا عباءات رمادية تشبه لون الجبال. عرفوا الطرق التي لا تظهر في الخرائط، والممرات التي لا يستطيع حصان عبورها، والمواضع التي يمكن فيها لعشرة رجال تعطيل كتيبة كاملة. كان بعضهم قد وصل من الحصون الجنوبية، بينما انتظر الباقون الجيش على امتداد الطريق الشمالي.

وتوزع عشرة آلاف آخرون بين كتائب المشاة ووحدات الإمداد والهندسة. حمل المهندسون المعاول والحبال ومسامير الجسور، وسار عمال المناجم معهم وهم يجرون عربات مليئة بأدوات الحفر والدعامات الخشبية. ففي قاسران، لم يكن الطريق إلى الحرب منفصلًا عن الجبل؛ إذا أُغلق ممر فتحوا غيره، وإذا انهار جسر أقاموا مكانه جسرًا قبل أن تصل مؤخرة الجيش.

لكن الأنظار كلها اتجهت إلى الفيلق الملكي.

خرج رجاله الثلاثة آلاف من الثكنة الأخيرة في صمت.

ارتدوا دروعًا داكنة صُنعت من حديد لا يخرج من مناجم المملكة إلى الأسواق. كان سطح الدرع الواحد يتخلله خط باهت يمتد من أعلاه إلى حوافه، وعند جانبيه خطاطيف قصيرة تتصل بدروع الجنود الواقفين إلى اليمين واليسار.

سار نائب سايرن أمام الفيلق، يتفحص الصفوف بنفسه. توقف عند كل مجموعة، واختبر أقفال الدروع، ثم أمر الجنود بضمها.

ارتفعت ثلاثة آلاف درع في وقت واحد.

اتصلت الحواف، وانغلقت الخطاطيف، فاختفت الفراغات بين الرجال. لم يعد أمام الساحة ثلاثة آلاف جندي منفصل، بل جدار طويل من الحديد.

أعطى القائد إشارة بيده.

ضرب أحد الجنود أول درع بمطرقة ثقيلة.

انتقلت الضربة عبر الخطوط المعدنية الممتدة في الدروع. اهتز الصف كله، وانغرست أحذية الجنود في الأرض، ثم خرجت القوة من المسامير المثبتة تحت الدروع إلى حجارة الساحة. تشققت الأرض أسفل أقدامهم، لكن الرجل الذي تلقى الضربة لم يسقط.

كان ذلك هو تشكيل جدار الثور.

لم تكن الدروع تمنع الصدمة وحدها؛ كانت توزعها على الصف بأكمله، ثم تمرر ما بقي منها إلى الأرض. سهم واحد لا يجد جسدًا يخترقه، واندفاع حصان لا يصطدم برجل، بل بجدار. وحتى حجر المنجنيق، إذا سقط عند الموضع الصحيح واستقبلته الصفوف بثبات، لا يحمل ثقله جندي واحد.

وعندما يتحرك الفيلق، يتحرك الجدار معه.

ضرب الطبال إيقاعًا بطيئًا. تقدم الصف الأول خطوة، ثم لحق به الثاني، وبقيت الدروع متصلة. انعطف التشكيل دون أن ينفتح، واستدار حول الساحة كأن كتلة الحديد كلها جسد واحد.

راقب سايرن الجنود من فوق حصانه.

كان يعرف أن جدار الثور ليس قوة لا تُهزم. يحتاج إلى أرض ثابتة، وإلى رجال يسمعون الإيقاع ويحافظون على مواقعهم مهما سقط حولهم. فإذا اختل جزء واحد في اللحظة الخطأ، انتقلت الصدمة إلى موضع لا يستطيع حملها.

لكن الذين عرفوا ترتيب الصفوف كاملًا كانوا قلة.

كان سايرن واحدًا منهم.

وكان نائبه واحدًا منهم أيضًا.

توقف القائد أمام الصف الأخير، وأعاد بيده تثبيت قفل في طرف أحد الدروع. ثم رفع ذراعه.

انفصلت الدروع دفعة واحدة، وعاد الرجال إلى صفوف السير.

اقترب منه سايرن.

— هل هم مستعدون؟

أجابه:

— منذ اللحظة التي ضُرب فيها الجرس.

نظر سايرن إلى الجيش الممتد بين الأسوار.

— لم يخوض نصفهم حربًا كبيرة.

— سيخوضونها خلف أقوى دروع في الممالك.

— الدروع لا تحمي من الخطأ.

أجابه النائب:

— لهذا سأكون في الصف الأول.

لم يكن في صوته تردد. سمعه الجنود القريبون، فضرب بعضهم قبضاتهم فوق صدورهم. نظر إليه سايرن لحظة، ثم مد ذراعه وصافحه عند المعصم كما يفعل رجال الحصون قبل المعركة.

خرجت الملكة ميرافا إلى أعلى البوابة.

لم تخطب طويلًا. نظرت إلى الرجال وإلى العائلات التي وقفت بعيدًا عن الطريق، ثم قالت:

— دخلت رهفان أرضًا لم تمنحها إياها قاسران. أعيدوا جنودها إلى ما وراء الجبل.

ارتفعت الرماح، وضُربت الدروع، فردت الأسوار الصدى حتى بدا كأن جيشًا آخر يجيب من داخل الجبل.

تحرك سايرن أولًا.

خرج خلفه الفيلق الملكي، ثم توالت الكتائب عبر البوابة الشمالية. احتاج الجيش ساعات حتى غادرت آخر عرباته دمهار. وعندما أُغلقت البوابة خلفه، بقيت آثار آلاف الأقدام والعجلات محفورة في تراب الطريق.

في اليوم الأول، سار الجيش بين القرى والمناجم. كان الناس يقفون على جانبي الطريق يحملون الماء والخبز، بينما مرت أمامهم العربات القادمة من الشمال محملة بالجرحى والعائلات الهاربة.

لم يسمح سايرن للكتائب بالتوقف.

أرسل حرس الممرات إلى الأمام، ووزع الرماة فوق المرتفعات، بينما بقي الفيلق الملكي في قلب الجيش لحماية العربات من أي هجوم يصل عبر الطرق الجانبية.

في الليل، لم تُنصب الخيام.

نام الجنود قرب أسلحتهم، وأُبقيت الدروع الثقيلة واقفة في صفوف تحيط بالمعسكر. انتشرت نيران صغيرة بين الصخور، لكنها لم تكن كافية لتدفئة الرجال أو كشف حجم الجيش لمن يراقبه من بعيد.

وقف سايرن فوق مرتفع ينظر إلى الشمال.

ظهرت في الأفق أضواء لا تنتمي إلى قرى قاسران. امتدت في خط طويل وراء الجبال، ثم ظهرت إلى جانبها نقاط أخرى.

قال أحد الكشافة:

— نيران جيش رهفان.

وقف نائب سايرن إلى جواره.

— إنها كثيرة.

أجابه سايرن:

— خمسة وأربعون ألف نار لا تحتاج إلى أن نراها كلها حتى نعرف أنها كثيرة.

قال النائب:

— غدًا نبلغ الوادي.

نظر سايرن إلى الظلام الذي يفصل الجيشين.

— وغدًا يعرف كل واحد منا إن كانت الأرقام هي أكثر ما ينبغي أن نخافه.

مع الفجر تحرك الجيش من جديد.

صارت الطرق أضيق، وبدأت آثار الهجوم تظهر حولهم. وجدوا برجًا صغيرًا وقد انشق جداره، وعربة حبوب محترقة عند حافة الطريق، وخوذًا لقاسران متناثرة قرب مجرى ماء تحول طرفه إلى لون داكن.

كلما تقدموا، التحق بهم رجال الحصون المنسحبون. لم يكونوا فارين؛ كانوا يعودون إلى الجيش حاملين ما عرفوه عن طرق العدو. أخبر أحدهم سايرن أن الذئاب لا تتحرك كلها مع الطليعة، وأن نيرفا تحتفظ بمعظمها قرب المجانيق. وقال آخر إن جنود رهفان لا يحرقون مخازن الطعام، بل يضعون عليها حراسة ويواصلون التقدم.

لم تكن رهفان تمر عبر الأرض.

كانت تستعد للبقاء فيها.

عند نهاية اليوم الثاني، بلغ حرس الممرات أول مرتفع يطل على الوادي. أرسلوا الإشارة إلى سايرن، فتقدمت الصفوف الأخيرة بصمت، وتوقفت العربات خلف الصخور.

صعد سايرن إلى القمة ومعه نائبه وعدد من القادة.

ظهر جيش رهفان في الجهة الأخرى.

ملأت الرايات السوداء السهل الشمالي، وامتدت صفوف الرجال حتى اختلط آخرها بالضباب عند سفح الجبل. ارتفعت أذرع المجانيق فوق المعسكر كأشجار يابسة، وتحركت بينها ظلال الذئاب الضخمة.

وبين الجيشين امتد الوادي.

كان ضيقًا عند مدخله، ثم يتسع قليلًا قبل أن يعود وينغلق بين جدارين من الصخر. إذا استولت قاسران على جهته الجنوبية، أمكنها إجبار رهفان على القتال في مساحة لا تتسع لقوتها كلها. وإذا سبقهم جنود نيرفا إليه، فسيصبح الطريق إلى دمهار مفتوحًا خلفهم.

سأل أحد القادة:

— هل رأونا؟

أجاب نائب سايرن:

— سيرونا قبل أن ينتهي الغروب.

قال سايرن:

— إذن لا نمنحهم وقتًا لاستقبالنا.

التفت إلى القادة.

— الدروع الثقيلة عند مدخل الوادي. الرماة فوق الجانبين. حرس الممرات يفتشون الصخور قبل حلول الظلام. يبقى الفيلق الملكي خلف القلب، ولا يُقام جدار الثور حتى أعطي الأمر.

نظر نائبُه إلى جيش رهفان، ثم ضرب قبضته فوق صدره.

— كما تأمر.

بدأ جيش قاسران يهبط نحو الوادي.

ظهرت رايات الثور الحديدي فوق المرتفعات، صفًا بعد صف، وأجابت أبواق رهفان من الجهة الأخرى. توقفت الذئاب عن الحركة، ورفعت رؤوسها نحو الجنوب، ثم انتشر عواؤها بين الجبال.

سمعه جنود قاسران.

سمعوا عواء مئتين وأربعين ذئبًا يخرج من السهل كصوت واحد.

ومع ذلك، واصلوا النزول.

وفي الجزيرة البعيدة، كان الصباح قد وصل قبل أن ينام نائل وقتًا كافيًا.

فتح عينيه على طرف العصا الخشبية يدفع كتفه. وقف أوران فوقه، ينظر نحو الأشجار التي غطى الضباب جذوعها.

قال نائل:

— ألم تقل إننا سنبدأ غدًا؟

أجابه أوران:

— هذا هو الغد.

جلس نائل، وأخذ العصا التي أعطاه إياها في الليلة السابقة.

كان الصوت العميق قد توقف، لكن الطيور البيضاء لم تعد إلى الأشجار.

اتجه أوران نحو الغابة وقال:

— تعال. حان الوقت لتعرف لماذا لم تهرب الطيور هذه المرة.

دخل أوران بين الأشجار من غير أن يلتفت ليتأكد أن نائل يتبعه.

كان الضباب يملأ الفراغات بين الجذوع، حتى بدت الغابة أوسع مما كانت عليه في اليوم السابق. أمسك نائل العصا الخشبية بكلتا يديه، وتوقع أن يقفز عليه حيوان من خلف كل صخرة، لكنه لم يسمع سوى خطوات أوران الهادئة أمامه.

بعد مسافة قصيرة توقف الشيخ عند دائرة من الحجارة السوداء يتوسطها جذع مقطوع.

قال:

— قف فوقه.

نظر نائل إلى الأشجار المحيطة.

— وماذا سيخرج من بينها؟

— أنت، إذا تعلمت شيئًا.

صعد نائل فوق الجذع. لم يكن أعرض من قدميه إلا قليلًا، وكانت قشرته رطبة. وقف أوران على بعد خطوات، ثم رفع عصاه وضربه من الجانب.

صد نائل الضربة، فاهتز ذراعاه وكاد يسقط.

جاءت الضربة الثانية من الجهة الأخرى، ثم الثالثة من أسفل. تراجع نائل فوق الجذع، وفقد توازنه وقفز إلى الأرض.

قال محتجًا:

— لم تقل إنك ستضربني.

— ولو قلت، هل كانت العصا ستصبح أبطأ؟

عاد نائل إلى الجذع. هذه المرة راقب كتفي أوران، فنجح في صد ضربتين. ابتسم، لكنه لم ير قدم الشيخ وهي تدفع حجرًا صغيرًا نحو الجذع. تدحرج الحجر تحت كعبه وسقط على ظهره.

قال أوران:

— أنت تقاتل ما تراه فقط.

نهض نائل ومسح الطين عن ثوبه.

— لأن الأشياء التي لا أراها لا تتأدب وتنتظر دورها.

أشار أوران إلى العصا.

— لهذا عليك أن تراها قبل أن تصل.

أعاده إلى الجذع، ثم دار حوله ببطء. لم يهاجمه هذه المرة. بقي نائل مشدودًا، يتابع يديه وقدميه ونظراته. مرت لحظات طويلة، وبدأت ذراعاه تؤلمانه من إبقاء العصا مرفوعة.

ثم سمع حفيفًا خلفه.

استدار وضرب بكل قوته.

توقفت عصاه قبل أن تصيب طائرًا أبيض حط فوق صخرة. وفي اللحظة نفسها لمس طرف عصا أوران صدره.

قال الشيخ:

— مت.

تنفس نائل بحدة، ونظر إلى الطائر الذي لم يهرب.

— جعلته يصدر الصوت.

— لم أجعله يفعل شيئًا.

— لكنه ساعدك.

— الغابة لا تساعد أحدًا. هي تفعل ما تفعله، والأحمق يظن أن كل حركة فيها موجهة إليه.

أنزل أوران عصاه، ثم أشار إلى أثر صغير في الطين قرب الحجارة.

كان الأثر عريضًا، له أربع أصابع تنتهي بحفر عميقة. لم يشبه أثر الطيور ولا أي حيوان رآه نائل في قريته.

قال نائل:
— ما الذي تركه؟
— شيء كان يراقبك منذ دخلنا الدائرة.
التفت نائل بسرعة إلى الضباب.
لم ير شيئًا، لكنه أحس هذه المرة أن الصمت حوله لم يكن فارغًا.
قال أوران وهو يبتعد:
— غدًا ستتعلم كيف تقاتل خصمًا تراه.
— وماذا تعلمت اليوم؟
جاءه صوت الشيخ من بين الأشجار:
— ألا تمنحه ظهرك قبل ذلك.
شد نائل قبضته حول العصا، ثم سار خلفه. وعند خروجه من دائرة الحجارة، التفت مرة أخيرة.
كان الأثر قد اختفى.
وفي الوادي بين قاسران ورهفان، لم يكن أمام الرجال وقت ليتعلموا بالطريقة نفسها.
هبطت أولى كتائب قاسران من المرتفع الجنوبي قبل اكتمال الغروب. ثبت أصحاب الدروع الثقيلة مواقعهم عند المدخل الضيق، بينما صعد الرماة فوق الجدارين الصخريين. تحرك حرس الممرات عبر الشقوق التي لا تظهر من أرض الوادي، واختفوا بين الصخور كأن الجبل ابتلعهم.
في الجهة الأخرى، تحركت رايات رهفان.
لم تنتظر نيرفا وصول الليل. دقت طبولها بإيقاع سريع، فتقدمت ثلاثة صفوف من حملة الرماح، وخلفهم تحركت الذئاب المدرعة على الجانبين. اهتز الوادي تحت أقدامها، وارتفع الغبار حتى حجب نصف الجيش عن النصف الآخر.
رفع سايرن يده.
بقيت أبواق قاسران صامتة.
اقترب جنود رهفان حتى ظهرت فتحات خوذهم، وحتى استطاع رجال الصف الأول سماع أنفاس الذئاب.
أنزل سايرن يده.
ضرب بوق واحد من فوق المرتفع.
ارتفعت دروع قاسران الثقيلة، وغرست أطرافها في الأرض. انطلقت سهام رهفان، فاصطدمت بالحديد كالمطر فوق سقف من معدن. انكسرت بعضها، وانزلقت أخرى بين الحجارة، لكن الصف لم يتحرك.

ثم وصلت الرماح.
اصطدم الجيشان عند فم الوادي. دفع جنود رهفان من الخلف، وحاولت الصفوف الأولى إزاحة الدروع، بينما خرجت سيوف قاسران القصيرة من الفتحات الضيقة بينها. سقط رجال من الجانبين، وامتلأت الأرض بالرماح المكسورة والأقدام التي تبحث عن موضع ثابت فوق التراب المائل.
كان نائب سايرن في الصف الأول كما وعد.
حمل درعًا أعرض من دروع رجاله، وفي يده الأخرى مطرقة قصيرة ذات رأس مربع. لم يقف خلف التشكيل ليصدر الأوامر؛ ثبت كتفه إلى جانب أكتاف الجنود، واستقبل أول اندفاع بنفسه.
قفز ذئب مدرع فوق الرماح، وضرب الجدار بمقدمة جسده. انفتح طرف الصف، وسقط جندي تحت مخالبه. وقبل أن يهبط الوحش فوقه، اندفع النائب داخل الفراغ.
رفع درعه تحت فك الذئب، فتغير اتجاه العضة واصطدمت الأسنان بالحافة الحديدية. انحنى الرجل تحت الوزن، وغاصت ركبتاه في التراب، لكنه لم يسقط. صاح بالجنود:
— أغلقوا الصف!
اتصلت الدروع خلفه من جديد.
ضرب الذئب بمطرقته عند المفصل بين القناع وصفائح العنق. لم تخترق الضربة الدرع، لكنها حطمت القفل. مال القناع فوق عين الحيوان، فاهتز رأسه بعنف. ضربه النائب مرة ثانية، ثم أمسك السلسلة المتدلية من عنقه ولفها حول ساعده.
اندفع الذئب إلى الخلف محاولًا سحبه، لكن النائب ثبت قدميه وصاح:
— الآن!
خرجت ثلاث رماح من بين الدروع، واستقرت في صدر الحيوان. سقط أمام الصف، والنائب لا يزال واقفًا، وقطرات الدم تنزل من تحت واقي كتفه حيث مزقت المخالب الدرع.
قال له أحد الجنود:
— أنت مصاب.
أجابه وهو ينتزع السلسلة من حول ذراعه:
— إذن لا تجعلني أحمل نصيبك أيضًا.
رفع مطرقته وأمر الصف بالتقدم.
من فوق المرتفع، رأى سايرن جناح رهفان الأيمن يلتف حول الصخور. كانت نيرفا تحاول جر قلب جيشه إلى الداخل، ثم إرسال الذئاب خلفه لإغلاق المخرج.
أشار إلى الرماة فوق الجدار الشرقي.

أطلقوا دفعتين على الجنود الملتفين، ثم انسحبوا كما لو أن موضعهم انكشف. اندفع رجال رهفان خلفهم بين الصخور.

هناك كان حرس الممرات ينتظرون.

تدحرجت كتل حجرية من الأعلى، وأغلقت الشق الضيق خلف القوة المتقدمة. خرج رجال قاسران من المخابئ وضربوها من الجانبين. لم يستمر القتال طويلًا؛ من لم يسقط ألقى سلاحه أو قفز نحو المنحدر محاولًا العودة إلى السهل.

لكن نيرفا لم تتوقف.

أمرت المجانيق بالتقدم إلى مدى أقرب. انخفضت أذرعها، وشدت الحبال، ثم انطلقت الحجارة السوداء فوق صفوف رهفان.

صاح سايرن:

— جدار الثور!

تحرك الفيلق الملكي من خلف القلب.

وصل رجاله إلى المدخل في صفوف متتابعة، وارتفعت دروعهم الداكنة. انطبقت الخطاطيف بين الحواف، وتحول ثلاثة آلاف رجل إلى جدار واحد في اللحظة التي بدأت فيها الحجارة تهبط.

ضرب الحجر الأول الصف الأيسر.

انحنت عشرات الأجساد معًا، وانتقلت الصدمة عبر الخطوط المعدنية. تشققت الأرض تحت المسامير، وسقط رجلان، لكن الجدار لم ينفتح.

ارتطم الحجر الثاني في الوسط.

خرج صوت يشبه دق جرس هائل داخل الوادي. اهتزت الدروع كلها، وارتفع الغبار من تحت الأقدام. انكسرت ذراع جندي، وبصق آخر دمًا داخل خوذته، لكن الصف بقي متصلًا.

ركض نائب سايرن خلف الجدار، يضرب بمطرقته الدروع التي اختل موقعها، ويعيد الرجال إلى الإيقاع.

— لا تحملوا الضربة وحدكم! أعطوها للصف! أعطوها للأرض!

سقط حجر ثالث عند الطرف، فانفك قفلان وظهر فراغ صغير.

رآه فرسان رهفان وانطلقوا نحوه.

وصل النائب قبلهم. دفع كتفه داخل الفتحة، وأمسك حافة الدرعين بيديه. كان القفلان قد انحنيا ولم يعودا قادرين على الاتصال، فضم الدرعين بقوة ذراعيه وأبقاهما متلاصقين.

اصطدم أول ذئب بالموضع.

ارتج جسده كله، وانفتح الجرح تحت كتفه، لكنه ظل واقفًا. اصطدم ذئب ثان، فانزلقت قدمه نصف خطوة إلى الخلف. وعندما جاء الثالث، صرخ النائب صرخة غطّت للحظة على أصوات الحديد.

ثبت رجلاه.

انتقلت الصدمة عبر جسده إلى الدرعين، ثم إلى الصف كله. تشققت الأرض تحته، وسقطت حجارة صغيرة من الجدار الصخري، لكن الفتحة لم تنفتح.

وصل سايرن إلى جانبه، وغرس سيفه في عنق الذئب الثالث.

قال له:

— كنت أحتاج إلى جدار، لا إلى رجلين ميتين يحملان درعين.

أجاب النائب من بين أسنانه:

— الجدار لم يسقط.

أشار سايرن إلى جنديين ليأخذا موضعه، لكن النائب دفعهما بعيدًا وأعاد مطرقته إلى يده.

في تلك اللحظة انقطع عواء الذئاب.

لم يضعف تدريجيًا. توقف دفعة واحدة، حتى الحيوانات التي كانت تعض الدروع تجمدت والتفتت نحو الجدار الغربي للوادي.

سمع الجنود صوتًا يأتي من فوق الصخور.

لم يكن عواءً يشبه أصوات ذئاب رهفان. كان أعمق، وأبطأ، حتى إن صداه بدا كأنه خرج من باطن الجبل لا من حلق حيوان.

تراجع أول ذئب مدرع.

ثم ظهر الوحش فوق الحافة.

كان أكبر من أي ذئب في جيش رهفان. ارتفع كتفاه إلى مستوى فارس فوق حصانه، وغطي جسده فراء رمادي داكن تخللته خطوط بيضاء تشبه ندوبًا قديمة. لم يلبس درعًا، ولم تحمل عنقه سلسلة. كانت إحدى أذنيه ممزقة، وفوق عينه اليسرى قرن عظمي قصير خرج من الجمجمة وانحنى إلى الخلف.

نظر إلى الجيشين تحتَه.

ثم قفز.

هبط بين صفوف رهفان، فتناثرت الأجساد من حوله. سحق جنديًا تحت قائمته، وأطبق فكيه على آخر وألقاه فوق الرماح. حاول حراس الذئاب الاقتراب منه بالسلاسل، فمزق الأول بمخالبه وضرب الثاني برأسه حتى ارتطم بالصخر.

صرخ ضابط من رهفان:

— أبعدوا الذئاب عنه!
لكن الحيوانات المدرعة لم تستجب. بعضها تراجع مذعورًا، وبعضها انقلب على راكبه محاولًا الفرار. انكسرت صفوف رهفان، واندفع الوحش عبرها نحو قلب الوادي.
لم يميز بين الرايات.
دخل صفوف قاسران، فقتل أربعة رجال بضربة واحدة من قائمته. عض طرف درع ورفعه مع صاحبه، ثم قذفه فوق الصف الثاني. أطلقت عليه السهام من الجانبين، لكنها غرست في فرائه من غير أن توقفه، وكل إصابة جعلته أشد هياجًا.
صاح سايرن:
— افتحوا له ممرًا!
لم يفهم بعض الجنود الأمر.
كرر بصوت أعلى:
— ابتعدوا عنه! لا تحاصروه!
انفصلت الدروع بصعوبة، واندفع الرجال إلى الجانبين. وجد الوحش أمامه طريقًا خاليًا، لكنه لم يهرب. توقف وسط الوادي، والدم يغطي فكه، ثم ثبت عينيه على سايرن.
تقدم النائب ورفع مطرقته.
مد سايرن ذراعه أمامه.
— ابق مع الفيلق.
— قتل من رجالنا أكثر مما قتلت الكتيبة التي أمامنا.
— وإذا تركت الصف، ستقتل الكتيبة الباقين.
— لن تواجهه وحدك.
نظر سايرن إليه.
— هذا أمر.
عرف النائب من صوته أن الجدال انتهى. تراجع خطوة، لكنه لم يخفض مطرقته.
خلع سايرن عباءته، ثم فك الدرع الثقيل عن كتفه اليمنى وألقاه إلى الأرض. أبقى الدرع الأسود الذي يغطي ذراعه اليسرى، وسحب سيفه الطويل.
تقدّم نحو الوحش.
أصدر الذئب صوتًا منخفضًا، وانخفض جسمه حتى لامس بطنه التراب. كانت رؤوس السهام عالقة في جانبه، لكنه بدا كأنه لا يشعر بها.
توقف سايرن على بعد عشر خطوات.
قال أحد القادة خلفه:

— الرماة يستطيعون إصابته من الجانبين.
أجابه من غير أن يلتفت:
— وسيصيبونني معه. دعوهم يشاهدون.
اندفع الذئب.
لم ير معظم الرجال سوى الغبار. رفع سايرن درعه في اللحظة الأخيرة، فاصطدم به رأس الوحش وطار سايرن عدة خطوات. سقط فوق ظهره، وانزلق حتى ارتطم بصخرة.
تعالت صيحات جنود رهفان.
نهض سايرن قبل أن يصل الذئب إليه. ضربه بالسيف عند الفك، فانزلقت الحافة فوق العظم ولم تخترقه. استدار الوحش، وضربه بقائمته. تلقى سايرن الضربة بالدرع، فانحنت الصفيحة الحديدية واندفع جسده إلى ركبته.
ظهرت أربعة شقوق طويلة فوق الدرع.
هجم الذئب للمرة الثالثة. قفز سايرن إلى الجانب وغرس السيف في كتفه، لكن الحيوان استمر في الحركة، فانتزع المقبض من يده. بقي النصل عالقًا في اللحم، يهتز مع كل خطوة.
أصبح سايرن بلا سلاح.
صاح نائبه:
— سيف!
أمسك أحد الجنود سلاحه ليلقيه، لكن سايرن رفع يده ومنعه.
دار الذئب نحوه. كان الدم ينزل من كتفه، وعينه السليمة لا تفارق الرجل الواقف أمامه.
ضرب سايرن قبضته فوق الدرع المنحني مرة واحدة.
صدر من الحديد صوت خافت.
ضربه مرة ثانية.
امتد الصوت داخل الصفوف المتصلة خلفه. اهتزت دروع الفيلق من غير أن يلمسها أحد، وانتقل الرنين من رجل إلى آخر حتى وصل إلى آخر الجدار.
سكت جنود قاسران.
عرف النائب ذلك الصوت.
لم يسمعه إلا مرة واحدة، قبل أعوام، داخل القاعة السفلى لقصر دمهار، عندما وضع سايرن يده فوق قطعة من الحديد أخرجت من أعمق مناجم المملكة.
قال النائب بصوت منخفض:
— تراجعوا عن الأرض المتشققة.
لم يسمعه الجميع، فصرخ:

— إلى الخلف! الآن!

ابتعد الفيلق خطوات، وبقي سايرن وحده وسط المساحة الخالية.

وضع كفه اليمنى فوق الأرض.

تحرك الغبار حول أصابعه.

لم تخرج نار، ولم يلمع ضوء. لكن الخطوط السوداء داخل صخور الوادي بدأت تظهر، كأن الحديد المدفون في الجبل وجد فجأة طريقه إلى السطح. امتدت من تحت كفه عروق رفيعة، واتجهت نحوه من الجهات كلها.

صعد السواد إلى أصابعه، ثم انتشر تحت جلد ساعده مثل شقوق امتلأت بمعدن سائل.

انخفض كتفاه، وغرست قدماه في التراب.

اندفع الذئب.

هذه المرة لم يبتعد سايرن.

رفع ذراعه اليسرى، وأطبق فك الوحش على الدرع. انغرست الأسنان في الحديد حتى لامست اللحم، لكن سايرن أمسك الناب العلوي بيده اليمنى.

دفع الذئب بكل ثقله.

تراجع سايرن خطوة.

ثم توقف.

انتقلت الصدمة من ذراعيه إلى صدره، وظهرت الخطوط السوداء فوق عنقه. تشققت الأرض خلف قدميه، وامتد الشق إلى الصخور المحيطة، لكن جسده لم يتحرك.

رأى جنود الفيلق ما صُممت دروعهم لتفعله وهم مجتمعون، يفعله رجل واحد بجسده.

أعطى سايرن الضربة للأرض.

حرر الذئب فكه وحاول الابتعاد، لكن سايرن شد الناب نحوه وضرب رأسه بجبهته. تراجع الوحش مترنحًا. أمسك سايرن بالسيف العالق في كتفه، وانتزعه مع دفعة من الدم.

هوى الذئب بقائمته.

تلقى سايرن الضربة فوق كتفه. انحنى، وسمع الواقفون قربه صوت عظم يتصدع، لكنه لم يسقط. غرس السيف في الأرض، وأمسك قائمة الحيوان بكلتا يديه.

دارت الخطوط السوداء حول معصميه.

استدار بجسده كله، مستخدمًا اندفاع الوحش ووزنه، وقلبه فوق الصخور.

اهتز الوادي حين سقط الذئب على جانبه.

قفز سايرن فوق صدره. حاول الفك أن ينغلق حوله، فوضع الدرع المحطم بين النابين. انطبق الفك، وانكسر الحديد، لكنه منحه لحظة واحدة.

رفع السيف بكلتا يديه.
فتح الذئب عينه.
لم ير سايرن فيها غضبًا هذه المرة، بل شيئًا أقدم من المعركة وأقدم من الممالك التي أحاطت به. للحظة قصيرة، تردد.
ثم تحركت مخالب الوحش نحو صدره.
أنزل السيف.
دخل النصل تحت القرن العظمي، واخترق الرأس حتى بلغ الصخر. ارتج جسد الذئب، وخدشت مخالبه درع سايرن، ثم سكنت.
بقي سايرن راكعًا فوقه، ويداه حول المقبض.
اختفت الخطوط السوداء من عنقه ببطء. وحين نهض، ترنحت ساقه، لكنه رفض اليد التي مدها إليه أحد الجنود.
ساد الوادي صمت لم يقطعه سوى صوت الحجارة الصغيرة وهي تسقط من الجدار.
نظر جنود رهفان إلى الوحش الميت، ثم إلى الرجل الواقف فوقه. حتى ذئابهم تراجعت وخفضت رؤوسها.
رفع نائب سايرن مطرقته.
— جدار الثور!
ارتفعت ثلاثة آلاف درع.
— تقدموا!
ضرب الفيلق الأرض بخطوة واحدة.
انطلقت كتائب قاسران خلفه. كان نائب سايرن في المقدمة، والدم يغطي ذراعه، لكنه تحرك كأن الجرح أصاب رجلًا آخر. ضرب أول رمح بمطرقته فكسره، ثم اندفع داخل صف رهفان وفتح لجنوده ممرًا. حاول ثلاثة رجال إيقافه، فأسقط الأول بدرعه، وحطم خوذة الثاني، وأمسك رمح الثالث وسحبه حتى اصطدم صاحبه بجدار الثور المتقدم.
لم تستعد رهفان صفوفها بعد فوضى الذئب الضخم.
ضغط الفيلق من القلب، بينما نزل حرس الممرات من المرتفعات وضربوا الجناح الأيسر. أطلق رماة قاسران سهامهم فوق الدروع، وأجبروا رجال المجانيق على ترك آلاتهم. حاولت الذئاب المدرعة شن هجوم أخير، لكنها رفضت الاقتراب من جثة الوحش، وانقلب بعضها نحو السهل.
أمر ضباط رهفان بالتراجع.
تحول التراجع إلى انسحاب واسع. تركوا سبعة مجانيق وعشرات العربات، وعادوا نحو التلال الشمالية وهم يسحبون جرحاهم ويحاولون جمع الذئاب الهاربة.

لم يسمح سايرن لجنوده بمطاردتهم بعيدًا.
وقف عند وسط الوادي، وكتفه اليمنى منخفضة بسبب الإصابة، وقال لنائبه:
— أعد الصفوف. الجرحى أولًا، ثم الطعام والماء. نحرق المجانيق التي لا نستطيع سحبها.
مسح النائب الدم عن فمه.
— إن أعطيناهم الليل سيبنون خطًا جديدًا فوق التلال.
— وإن صعدنا خلفهم متفرقين، ستأخذ نيرفا نصف الجيش من فوق الصخور.
نظر النائب إلى جثة الذئب.
— ما كان ذلك؟
أخرج سايرن سيفه من رأس الوحش ومسح النصل بفرائه.
— شيء لم تستطع خرائطنا أن تخبرنا بأنه يعيش هنا.
— وقوتك؟ هل كانت الخرائط تعرفها؟
ثبت سايرن عينيه عليه.
لم يكرر النائب السؤال.
مع حلول الليل كانت رايات قاسران قد ارتفعت فوق الوادي. جُمعت أسلحة القتلى، وحُملت الجثث بعيدًا عن الماء، ووُضعت الحراسة عند الممرين. لم يكن النصر كاملًا، لكنه أوقف زحف رهفان وفتح الطريق أمام جيش قاسران ليتقدم شمالًا للمرة الأولى منذ بدء الغزو.
وعند الفجر تحركوا.
تركوا خلفهم قوة لحراسة الوادي، وصعدت الكتائب الباقية نحو التلال. وجدوا معسكرات رهفان الأولى خالية، ونيرانها لا تزال مشتعلة. كانت آثار الانسحاب تتجه نحو هضبة ضيقة بين قمتين، حيث يتقاطع الطريق الرئيسي مع ممر قديم يؤدي إلى الحصون الشمالية.
تقدمت الطليعة بحذر.
عند منتصف النهار، عاد أحد الكشافة إلى سايرن.
— هناك قوة تنتظرنا فوق الهضبة.
سأله النائب:
— كم عددها؟
— أقل من جيش الأمس. لكن الراية الكبرى معها.
عرف سايرن المقصود.
واصل الصعود.



حين بلغ أعلى الطريق، ظهرت أمامه صفوف رهفان. لم تكن منهارة ولا هاربة. أعادت نيرفا ترتيبها خلال الليل، وثبتت الرماح بين الصخور، ووضعت الذئاب الباقية خلف الجناحين. ارتفعت رايتها السوداء في الوسط، والهلال الأحمر فوقها يتحرك مع الريح.

وقفت نيرفا أمام الجيش.

لم تكن فوق ذئبها هذه المرة. وقفت على قدميها، تحمل رمحها الطويل، ودرعها الأسود يحمل خدوش معركة اليوم السابق. كان ذئبها ذو الندبة البيضاء خلفها، يراقب سايرن من غير أن يعوي.

توقف جيش قاسران عند الطرف الآخر من الهضبة.

تحرك نائب سايرن ليقف أمام قائده، لكن سايرن أشار إليه بالبقاء. تقدم وحده عدة خطوات.

خرجت نيرفا من بين صفوفها.

التقيا في منتصف المسافة، وبينهما أرض امتلأت بشقوق قديمة كأن الجبل نفسه رسم حدودًا لا يعترف بها الجيشان.

نظرت نيرفا إلى كتفه المصابة، ثم إلى السيف في يده.

قالت:

— سمعت أنك قتلت ذئب القرن.

أجاب سايرن:

— وسمعت أنك دخلت أرض قاسران من دون دعوة.

— لم آت ضيفة.
— لهذا خرجنا لاستقبالك بالسلاح.
غرست طرف رمحها في الصخر.
— انتصرت في الوادي لأن الوحش كسر صفوفي.
قال سايرن:
— وكسر رجالي أيضًا. الفرق أن رجالي عادوا إلى مواقعهم.
لم تغضب. مررت نظرها فوق الفيلق الملكي، ثم عادت إليه.
— كان يمكن أن تبقى خلف أسوار دمهار.
— وكان يمكن أن تبقي خلف حدودك.
رفعت نيرفا رمحها، وأدارته مرة واحدة حتى استقر نصله أمامها.
— الحدود تتغير حين يعجز أصحابها عن حمايتها.
قبض سايرن على سيفه. عاد ألم كتفه مع الحركة، وظهرت لحظة واحدة من الخطوط السوداء تحت جلد يده، ثم اختفت.
قال:
— إذن اقتربي، وحاولي تغييرها.
خلف نيرفا انخفض الذئب ذو الندبة واستعد للقفز.
وخلف سايرن ارتفعت مطرقة نائبه، ثم اتصلت دروع الفيلق بعضها ببعض.
لم تصدر الأوامر بعد.
لم تتحرك الجيوش.
في منتصف الهضبة، رفع سايرن سيفه، وخفضت نيرفا رمحها نحوه.
وللحظة قصيرة، بدا أن الحرب كلها قد تقلصت إلى المسافة الفاصلة بين نصليهما.
في الجزيرة البعيدة، لم يكن نائل يعرف أن جيشين يقفان على حافة معركة جديدة.
كان واقفًا داخل دائرة الحجارة السوداء، يحمل العصا أمامه، بينما شد أوران قطعة قماش حول عينيه.
قال نائل:
— أتريدني أن أقاتل وأنا لا أرى؟
— أنت لا ترى حتى حين تكون عيناك مفتوحتين.
— هذه طريقتك في التشجيع؟
— هذه طريقتي في اختصار الوقت.

ابتعد أوران عنه، ثم ضرب عصاه بالأرض.
جاء الصوت من جهة اليمين، فاستدار نائل ورفع عصاه. لم تصله ضربة. سمع احتكاك قدم بالتراب خلفه، فدار بسرعة، لكن عصا أوران أصابت ساقه وأسقطته.
قال أوران:
— مرة أخرى.
نهض نائل وهو يتحسس ركبته.
— كنت في الجهة الأخرى.
— كنتَ تظن أنني في الجهة الأخرى.
أعاد نائل وضع العصا أمامه. حاول هذه المرة ألا يتبع الأصوات. سمع طائرًا فوق الأغصان، ثم حركة بين الأعشاب، ثم تنفس أوران في مكان لا يستطيع تحديده.
انتظر.
جاءت الضربة من أمامه.
رفع عصاه في اللحظة الأخيرة، فاصطدم الخشبان. اهتزت ذراعاه، لكنه بقي واقفًا.
ابتسم تحت العصابة.
— أمسكتك.
لم يجبه أوران.
جاءت ضربة ثانية، ثم ثالثة. صد نائل الأولى، وانحنى تحت الثانية، لكنه لم يسمع الثالثة.
شعر بها.
قبل أن تلامس كتفه، تحركت العصا في يده وحدها تقريبًا، واعترضت ضربة أوران.



تراجع الشيخ خطوة.
نزع نائل العصابة عن عينيه.
— رأيتها.
— كنت معصوب العينين.
— لا أعرف كيف أشرح ذلك.
نظر أوران إلى العصا في يده، ثم إلى الحجارة السوداء المحيطة بالدائرة.
ظهر فوق أقرب حجر خط رفيع، كأن شيئًا حادًا خدش سطحه من الداخل. امتد الخط لحظات، ثم اختفى.
قال نائل:
— هل رأيت؟
أجابه أوران:
— لم أر شيئًا.
— أنت تكذب.

— وهذه أول ملاحظة صحيحة لك هذا الصباح.
استدار الشيخ وغادر الدائرة.
لحق به نائل.
— ماذا حدث للعصا؟
— لم يحدث لها شيء.
— والحجر؟
توقف أوران، ونظر نحو الأشجار. كان الضباب يتحرك بينها في اتجاه معاكس للريح.
قال:
— السؤال ليس ماذا حدث للحجر.
— وما السؤال؟
تابع أوران سيره.
— لماذا أجابك؟
بقي نائل في مكانه لحظة، ثم نظر إلى العصا بين يديه.
من أعماق الجزيرة، جاء الصوت الثقيل مرة أخرى.
لكنه هذه المرة لم يشبه تنفس مخلوق نائم.
بدا كأنه دقّة واحدة صادرة عن قلب هائل تحت الأرض.
وفي قصر دمهار، كانت الملكة ميرافا تنتظر دقة أخرى على باب قاعة الحرب.
منذ خروج سايرن، لم تغادر القاعة إلا ساعات قليلة. امتلأت الطاولة الحجرية بقطع الحديد التي تمثل كتائب قاسران، وبعلامات سوداء تشير إلى المواضع التي عبرتها رهفان.
وقف القادة حولها، بينما جلس إيلدار بعيدًا عن الطاولة، واضعًا عصاه بين ركبتيه.
انفتح الباب، ودخل رسول مغطى بالغبار.
لم ينتظر الإذن. تقدم حتى بلغ الطاولة، ثم انحنى ووضع أنبوبًا صغيرًا أمام الملكة.
نزعت ميرافا غطاءه وأخرجت رقعة ضيقة.
قرأت السطر الأول، ثم عادت إليه مرة ثانية.
سألها قائد الحرس:
— ما الخبر؟
وضعت الرقعة فوق الطاولة.
— سايرن أوقف الزحف عند الوادي.
تحرك القادة في أماكنهم، وارتفعت همسات قصيرة قبل أن تسكتها نظرة الملكة.

قال أحدهم:

— هل تراجعت رهفان؟

أجاب الرسول:

— انسحبت كتائبها إلى التلال الشمالية. استولى جيشنا على سبعة مجانيق وعدد من عربات الإمداد.

سألت ميرافا:

— والخسائر؟

خفض الرسول عينيه.

— كثيرة من الجانبين، يا مولاتي.

اقترب إيلدار من الطاولة للمرة الأولى.

— ماذا عن الذئاب؟

نظر الرسول إليه، كأنه لم يفهم سبب السؤال.

— تفرقت أعداد منها أثناء المعركة. ظهر في الوادي ذئب لم يكن ضمن قطعان رهفان.

قال قائد الحرس:

— ذئب آخر؟

— كان أكبر من خيول الفرسان، وفوق عينه قرن عظمي. هاجم الجيشين وقتل عشرات الرجال.

ثبتت ميرافا نظرها عليه.

— ومن قتله؟

تردد الرسول لحظة، كأنه لا يزال غير مصدق للكلمات التي جاء بها.

— القائد سايرن.

ساد الصمت في القاعة.

قالت الملكة:

— وحده؟

— أمر الجنود بالابتعاد، ثم قاتله وحده.

أغلق إيلدار يده حول عصاه.

سأل:

— ماذا رأى الرجال؟

— رأوه يوقف الوحش بيديه. قال بعضهم إن خطوطًا سوداء ظهرت تحت جلده، وإن صخور الوادي تشققت حول قدميه.

التفتت ميرافا نحو إيلدار.

كان الشيخ ينظر إلى القطعة الحديدية التي تمثل الفيلق الملكي فوق الطاولة.

قالت:

— كنت تعرف أن هذه القوة موجودة فيه.

أجاب:

— كنت أعرف أنها قد تستيقظ.

— ولم تخبرني.

— لأن استيقاظها ليس دائمًا خبرًا جيدًا.

رفعت ميرافا الرقعة مرة أخرى.

— لقد أوقف جيشًا وقتل وحشًا كان يمزق رجالنا. يبدو خبرًا جيدًا من مكاني.

قال إيلدار:

— الحديد لا يمنح قوته مجانًا.

سمعوا الرسول يبتلع ريقه.

سألته الملكة:

— أين سايرن الآن؟

— واصل التقدم خلف قوات رهفان. بلغ الهضبة الشمالية عند الظهيرة.

— ونيرفا؟

— تنتظره هناك.

توقفت عينا ميرافا فوق قطعة سوداء صغيرة وُضعت عند طرف الخريطة لتمثل جيش رهفان.

حركتها بإصبعها خطوة إلى الخلف، ثم دفعت قطعة الفيلق الملكي وراءها.

قال قائد الحرس:

— إذا هزمها، سيستعيد الطريق إلى الحصون.

قالت ميرافا:

— وإذا اندفع بعيدًا، سيصبح بينه وبين دمهار ثلاثة ممرات تستطيع رهفان إغلاقها.

أمرت بإرسال فرق جديدة لحماية طرق الإمداد، ثم نظرت إلى الرسول.

— تأكل وتغير حصانك وتعود إليه قبل الليل.

انحنى الرجل.

— ماذا أحمل إليه؟
نظرت الملكة إلى خطوط الجبال المنحوتة فوق الطاولة.
— قل له إن دمهار سمعت بانتصاره.
توقفت قليلًا، ثم أضافت:
— وقل له إن النصر الذي يأخذ القائد بعيدًا عن أسواره قد يكون طريقًا آخر إلى الهزيمة.
غادر الرسول مسرعًا.
بقي إيلدار ينظر إلى موضع الهضبة.
قالت ميرافا:
— ما الذي لا تقوله؟
أجاب من دون أن يرفع رأسه:
— إن الحديد حين يستيقظ يسمعه من يعرف صوته.
— ومن يعرف صوته؟
رفع الشيخ عينيه إليها.
— الذين كانوا ينتظرونه.
وفي الحصن الشرقي الذي استولت عليه رهفان عند بداية الغزو، وصلت أخبار الوادي إلى الملك فاريك.
كانت راية الذئب الأسود ترتفع فوق البرج الذي حمل، قبل يومين فقط، راية الثور الحديدي.
بقيت آثار المعركة ظاهرة عند البوابة المحطمة، وانتشرت عربات رهفان داخل الساحة إلى جانب أكوام السلاح التي جُمعت من جنود قاسران.
اتخذ فاريك القاعة العسكرية مقرًا له. لم يجلس فوق عرش، ولم يحمل تاجه. ارتدى درعه الكامل، ووضع سيفه قرب خريطة كبيرة ثبتت فوق الطاولة بأربعة خناجر.
وقف حوله قادة الاحتياط، بينما تحرك الجنود فوق الأسوار استعدادًا لأي هجوم يأتي من الجنوب.
دخل رسول من البوابة الداخلية، وثيابه مغطاة بالغبار والدم. تقدم حتى بلغ الطاولة، ثم ركع.
قال فاريك:
— تكلم.
— أوقف جيش قاسران زحفنا عند الوادي، يا مولاي.
لم يتغير وجه الملك.
— ومن يقوده؟

— سايرن ونائبه. الفيلق الملكي يقاتل في القلب، وحرس الممرات استولى على المرتفعات.
أشار فاريك إلى موضع الوادي فوق الخريطة.
— ونيرفا؟
— أعادت تنظيم القوات فوق الهضبة الشمالية. تستعد لمواجهة سايرن.
سأل أحد القادة:
— ماذا حدث للمجانيق؟
— خسرنا سبعًا منها، واضطر الرجال إلى ترك عدد من عربات الإمداد.
ضرب القائد قبضته فوق الطاولة، لكن فاريك لم ينظر إليه.
سأل:
— كيف اخترقوا الجيش؟
تردد الرسول قبل أن يجيب:
— ظهر ذئب القرن من الجبل.
تحركت عينا الملك نحوه.
— ذئب القرن؟
— هاجم الجيشين وقتل عشرات الرجال. تفرقت الذئاب المدرعة، وانفتح قلب قواتنا.
— ومن قتله؟
رفع الرسول رأسه.
— سايرن.
ساد الصمت داخل القاعة.
اقترب فاريك من الرسول.
— هل قتله الفيلق معه؟
— قاتله وحده، يا مولاي. يقول الجنود إن الحديد تحرك داخل الصخور، وإن الأرض تشققت تحت قدميه.
نظر الملك إلى الخريطة.
كان الحصن الذي يقف داخله يسيطر على الطريق المؤدي إلى عمق أراضي قاسران. إذا احتفظت رهفان به، بقي الغزو ممكنًا. أما إذا خسر الجيش قواته فوق الهضبة، فسيصبح الحصن محاصرًا بعيدًا عن خطوط الإمداد.
قال أحد القادة:
— نرسل الاحتياط لمساندة نيرفا.

أجاب فاريك:
— إذا خرج الاحتياط من الحصن، تركنا الطريق خلفنا بلا حماية.
— لكنها تواجه سايرن.
— ولهذا لن تتراجع من تلقاء نفسها.
أخذ فاريك خاتمه الملكي، وضغطه فوق الشمع الأسود أسفل رقعة صغيرة.
قال:
— يصل هذا الأمر إليها فورًا. تنسحب القوات إلى ما وراء الحصن الشرقي، وتعيد تشكيل صفوفها تحت أسواره. تُنقل المجانيق الباقية إلى الداخل، وتبقى وحدات الرماح في المؤخرة لحماية الانسحاب.
نظر إليه أحد القادة بدهشة.
— سيقول جنود قاسران إنهم هزمونا.
رفع فاريك عينيه إليه.
— لقد أوقفوا الزحف وهزموا مقدمة جيشنا. من يخفي الحقيقة عن نفسه يخسر المعركة التالية أيضًا.
أشار إلى الجدران المحيطة بهم.
— فوق الهضبة يقاتل جيشنا في أرض يختارها سايرن. هنا سيقاتل تحت سهامنا، وأمام جدران دفع رجاله دمهم لبنائها.
سلّم الرقعة إلى الرسول.
— لا تعطيها إلى قائد أو ضابط. تضعها في يد نيرفا.
أخذ الرسول الأمر ونهض.
قال فاريك قبل أن يغادر:
— إذا كانت تقاتل سايرن، فلن تسمع صوتك.
توقف الرجل عند الباب.
— ماذا أفعل، يا مولاي؟
— ارفع الختم أمامها. ستعرف أن المعركة انتهت، حتى لو لم ينتهِ النزال.
خرج الرسول من القاعة، وقفز فوق حصان جديد كان ينتظره في الساحة. فُتحت البوابة الشمالية الصغيرة، وانطلق عبر الطريق المحمي خلف الحصن، ثم انعطف نحو الهضبة.
بقي فاريك أمام الخريطة.
حرّك القطع التي تمثل جيشه إلى خلف الحصن، ثم وضع قطعة سايرن أمام الأسوار مباشرة.

قال أحد القادة:
— هل تتوقع أن يطاردها؟
أجاب فاريك:
— أتمنى ذلك.
وفي الهضبة، كان سايرن ونيرفا يرفعان سلاحيهما، غير عالمين أن فارسًا يحمل أمر الانسحاب كان يصعد نحوهما بأقصى ما يستطيع حصانه.
لم يكن سايرن ونيرفا يسمعان سوى الريح.
ظل الجيشان خلفهما ساكنين، لكن السكون لم يكن سلامًا. كانت الرماح مرفوعة، والسهام موضوعة فوق الأوتار، والذئاب تخفض قرب الأرض في انتظار إشارة واحدة.
تحركت نيرفا أولًا.
دفعت طرف رمحها إلى الأمام من غير إنذار.
مال سايرن برأسه، فمر النصل قرب وجهه وشق الهواء إلى جانب أذنه. قبل أن يكمل الرمح طريقه، أدارت نيرفا المقبض بين كفيها وضربته بالطرف الخشبي في كتفه المصابة.
تراجع سايرن خطوتين.
لم تمنحه وقتًا ليستعيد توازنه.
تقدمت، وضربت بالرمح من الأعلى. رفع سيفه، فاصطدم النصلان واهتزت الأرض تحت قدميه. لم تكن ضربة امرأة تختبر خصمها، بل ضربة قادرة على كسر درع كامل.
انحنى سايرن تحت القوة.
ظهرت الخطوط السوداء حول أصابع يده التي تحمل السيف، وانتقلت الضربة عبر ذراعه إلى جسده. تشققت الأرض تحت كعبه، وغاصت قدمه في التراب.
ابتعدت نيرفا قبل أن يرد.
قالت:
— هذه القوة التي قتلت بها ذئب القرن؟
أدار سايرن كتفه المصابة.
— لم يحتج الذئب إلى السؤال.
هجم عليها.
التقى سيفه برمحها ثلاث مرات متتابعة. صدت الضربة الأولى بالنصل، والثانية بمنتصف المقبض، ثم انحنت تحت الثالثة وأدارت الرمح حول ساقيه.
قفز سايرن فوقه، لكنها تركت إحدى يديها عن المقبض وضربته بقبضتها في صدره.
طار إلى الخلف واصطدم بالأرض.

تعالت صيحات جنود رهفان، وردت عليها دروع قاسران بضربة واحدة.

نهض سايرن.

وجد نيرفا أمامه.

اندفع رمحها نحو صدره، فضربه بسيفه إلى الجانب. انزلق النصل فوق درع كتفه، وترك خطًا طويلًا في المعدن. أمسك سايرن بالمقبض قبل أن تسحبه، وحاول جرها نحوه.

ثبتت قدميها.

شد بكل قوته، لكنها لم تتحرك.

ابتسمت نيرفا.

ثم جذبت الرمح دفعة واحدة.

انزلق سايرن نحوها، فرفعت ركبتها وضربته في بطنه. ترك المقبض قبل أن يتلقى ضربة ثانية، وتراجع وهو يلتقط أنفاسه.

قالت:

— تحمل الحديد جيدًا.

مسح الدم عن طرف فمه.

— وأنت تتكلمين كثيرًا.

دارت بالرمح، ثم اندفعت.

هذه المرة لم يحاول سايرن تفادي الضربات. استقبل الأولى بالسيف، والثانية بدرع ذراعه، والثالثة بكتفه.

مع كل اصطدام كانت الخطوط السوداء تنتشر تحت جلده.

لاحظت نيرفا ذلك.

رأت القوة تدخل إليه مع كل ضربة بدل أن تحطمه. رأت قدميه تنغرسان في الأرض، والشقوق تمتد خلفه، والحديد الداكن في سيفه يرتج كأنه يحتفظ بصوت كل اصطدام.

توقفت فجأة.

لم تضربه للمرة الرابعة.

كان سايرن ينتظرها.

قالت:

— أنت لا تصد الضربات.

لم يجب.

— أنت تأخذها.

ثبت سيفه أمامه.
— اقتربي واكتشفي الباقي.
خفضت نيرفا رمحها.
ثم تغير أسلوبها.
لم تعد تضرب بقوتها كاملة. بدأت تتحرك حوله، توجه طعنات قصيرة وسريعة، ثم تسحب الرمح قبل أن يستقبل النصل قوتها. خدشت ساقه، وأصابت جنبه، وضربت كتفه المصابة مرتين.
حاول سايرن الإمساك بإيقاعها، لكنها لم تمنحه الضربة التي يريدها.
كلما رفع سيفه لاستقبال الرمح، غيرت اتجاهه.
قالت:
— لا تستطيع أخذ ما لا أمنحك إياه.
اندفعت من جانبه الأيمن، حيث أبطأت الإصابة حركة كتفه. اخترق الرمح طرف درعه، ودخل النصل تحت الصفيحة.
تراجع سايرن وسحب جسده من النصل قبل أن يبلغ العظم، لكن الدم ظهر عند جنبه.
دارت نيرفا خلفه.
استدار في اللحظة نفسها، وأطلق بالسيف ضربة أفقية.
صدتها بمقبض رمحها.
خرج من الاصطدام صوت مختلف.
لم تكن قوة الضربة قوة سايرن وحده. كانت تحمل كل ما أخذه من ضرباتها السابقة، وكل ما مرره الحديد إلى جسده منذ بداية النزال.
انكسر منتصف رمح نيرفا.
طارت إلى الخلف، وارتطمت بصخرة حتى انشقت خلفها.
ساد الصمت بين الجيشين.
نهضت من وسط الغبار، وفي يدها نصف الرمح الذي يحمل النصل. سال خط دم رفيع من جبينها.
نظرت إلى السلاح المكسور، ثم إلى سايرن.
ألقت النصف الخشبي الباقي بعيدًا.
قال سايرن:
— الآن أصبحت المعركة أقصر.
أجابته:

— بل أصبحت المسافة بيننا أقصر.
هجمت وهي تحمل نصف الرمح كأنه سيف قصير.
تفادى الطعنة الأولى، لكنها أمسكت رسغه بيدها الأخرى. حاول تحرير يده، فشدته نحوها وضربت جبينه برأسها.
تراجع مترنحًا.
أمسكت حافة درعه المنكسر واقتلعته من ذراعه. ألقته بعيدًا، ثم ضربته بمقبض الرمح في الوجه.
سقط على ركبة واحدة.
رفعت النصل لتطعنه عند العنق.
غرس سايرن كفه في الأرض.
تحرك الحديد داخل الصخر.
خرج خط أسود من تحت يده، وامتد بين قدمي نيرفا. اهتزت الأرض وارتفعت كتلة صخرية صغيرة، فاختل توازنها. مال النصل عن عنقه واخترق طرف عباءته.
دفعها سايرن بكتفه، ثم ضربها بقبضته.
استقبلت الضربة بذراعها، لكنها دفعتها عدة خطوات إلى الخلف.
نهض سايرن ببطء.
كانت الخطوط السوداء قد صعدت من يديه إلى عنقه. نزف أنفه، وارتجفت أصابع يده اليمنى.
رأت نيرفا ذلك.
قالت:
— القوة تأكلك.
— كل قوة تفعل.
— بعضها يأكل صاحبه قبل خصمه.
أجابها:
— سنعرف أيّنا يحدث له ذلك أولًا.
ركضا نحو بعضهما.
تحول النزال إلى سلسلة من الضربات لم يعد الجنود قادرين على تتبعها. لمع السيف، ودارت قطعة الرمح، وتصادما بين الصخور وعلى حافة المنحدر.
كانت نيرفا أسرع كلما اقتربت، وأقوى كلما ضاقت المسافة. أمسكت سايرن من درعه وقذفته فوق صخرة، فلحق بها قبل أن تبتعد وضرب الأرض بسيفه.

خرجت القوة المخزنة في الحديد.
انشق الصخر أمامه، واندفعت موجة من الغبار والحجارة نحوها. غرست نيرفا نصل رمحها المكسور في الأرض، وثبتت جسدها خلفه. مرت القوة عبر ذراعيها، ومزقت أطراف درعها، لكنها لم تسقط.
رفع جنود رهفان رماحهم وهم يهتفون باسمها.
خرجت من الغبار واندفعت نحو سايرن.
ضربت سيفه من يده.
دار السلاح في الهواء وسقط بعيدًا.
وجهت نصلها إلى صدره، لكنه أمسك طرف الرمح بيده العارية. اخترق الحديد كفه، وخرج الدم من الجهة الأخرى.
شدها نحوه.
حاولت سحب السلاح، فثبت يده حول النصل رغم الجرح. ضربها بقبضته الأخرى، فتراجعت، لكنها لم تترك المقبض.
ظلا لحظة يشدان السلاح بينهما.
ثم كسرت نيرفا المقبض بيد واحدة.
بقي النصل في قبضة سايرن، وبقيت في يدها قطعة خشبية قصيرة.
ألقتها جانبًا.
أصبحا بلا سلاح.
تقدمت نيرفا وضربته في وجهه. رد بقبضته إلى جنبها. أمسكت ذراعه وأدارته، لكنه مرر قوة الحركة إلى الأرض، وثبت مكانه ثم قلبها فوق كتفه.
سقطت على ظهرها.
قبل أن يثبتها، ضربته بقدمها في صدره وأبعدته. نهضت معه في اللحظة نفسها.
كان الدم يغطي كليهما.



انخفض كتف سايرن المصاب، وأصبحت أنفاسه أثقل. أما نيرفا، فقد انكسر جزء من درعها عند جانبها، وظهرت كدمة داكنة فوق وجهها.

ومع ذلك، ابتسما.

قالت نيرفا:

— ظننت قادة قاسران يجلسون خلف الجدران ويتركون الحديد يقاتل عنهم.

أجاب:

— وظننت أميرات رهفان يرسلن الذئاب بدلًا منهن.

من خلفها، أصدر ذئبها ذو الندبة البيضاء زمجرة غاضبة.

رفعت نيرفا يدها من غير أن تنظر إليه.

سكن الحيوان، لكنه بقي منخفضًا مستعدًا للقفز.

وجد سايرن سيفه قريبًا من قدمه. دفعه بطرف حذائه، فارتفع عن الأرض، وأمسكه بيده السليمة.

التقطت نيرفا رمحًا سقط من أحد جنودها عند طرف الهضبة. كان أقصر من رمحها، لكنه كامل النصل.

عادا إلى موقعيهما.

هذه المرة لم ينتظر أي منهما الآخر.

ضربت نيرفا الرمح في الأرض، فاندفعت نحوه بقوة جعلت التراب ينفجر خلف قدميها. رفع سايرن سيفه، واستقبل النصل.

دخلت قوة الضربة في الحديد.

ظهرت الخطوط السوداء فوق صدره، ووصلت إلى جانب وجهه. تشققت الأرض تحت قدميه، لكنه لم يرسل القوة إليها.

احتفظ بها.

ضغطت نيرفا أكثر.

بدأ سيفه ينحني.

خرج الدم من كفه المجروحة، وسال فوق النصل.

قالت من بين أسنانها:

— لن يحتمل جسدك.

أجاب:

— لا يحتاج إلى احتمالها طويلًا.

أطلق القوة.

انفجر الهواء بينهما.

تكسرت الصخور المحيطة، واندفع الجنود الواقفون في الصفوف الأولى إلى الخلف. طارت نيرفا عدة خطوات، وسقط رمحها بعيدًا.

أما سايرن، فتراجع حتى انغرست إحدى ركبتيه في الأرض. انطفأت الخطوط السوداء للحظة، ثم عادت بصورة أضعف.

نهضت نيرفا.

ترنحت، ثم ثبتت قدمها.

نظر إليها جنود الجيشين غير مصدقين.

كان ينبغي للضربة أن تكسر جسدها.

لكنها رفعت رأسها ومسحت الدم عن فمها.

قالت:

— هذه قوتك الحقيقية إذن.
وقف سايرن بصعوبة.
— لم تريها كلها.
— وأنت لم ترني غاضبة بعد.
نزعت خنجرًا طويلًا من خلف درعها.
أمسك سايرن سيفه بكلتا يديه رغم جرح كفه.
تقدمت نحوه.
وفي اللحظة نفسها، اشتعل القتال خلفهما.
كان نائب سايرن قد انتظر طويلًا.
رأى الجناح الأيسر لرهفان يتحرك لمساندة نيرفا، فأمر الفيلق الملكي بالتقدم. اتصلت الدروع، وضربت ثلاثة آلاف قدم الأرض في وقت واحد.
اصطدم جدار الثور بصفوف رهفان.
ثبت جنودها في البداية، لكن النائب ركز الضربة على الموضع الذي تضرر في معركة الوادي. قاد الصف الأول بنفسه، ومطرقته ترتفع وتهبط فوق الرماح والدروع.
حاولت ذئاب رهفان مهاجمة الجدار من الجانب.
أمر النائب أصحاب المقاليع بإطلاق الحجارة المعدنية عند الأرض أمامها. ضربت الحجارة قوائم الذئاب، وتعثر أول صف منها، فسقطت الحيوانات فوق بعضها وقطعت طريق الفرسان خلفها.
تقدم جدار الثور.
انفتح جناح رهفان.
دخلت كتائب قاسران من خلاله، وفصلت الرماة عن المشاة. حاول الضباط إعادة الصفوف، لكن حرس الممرات ظهروا فوق المرتفع واستولوا على الطريق المؤدي إلى المجانيق.
ارتفعت راية الثور الحديدي فوق الجناح الغربي.
وصل صوت القتال إلى سايرن ونيرفا، لكنهما لم يلتفتا.
اندفعت نيرفا بالخنجر.
اعترض سايرن يدها عند الرسغ، ومر سيفه قرب عنقها. انحنت، وضربت جرح كتفه بمرفقها. تراخت يده، فحررت رسغها ووجهت الخنجر نحو قلبه.
أمسك معصمها قبل أن يدخل النصل.
تقاربا حتى لم يبق بينهما سوى السلاحين.
دفع سايرن سيفه نحو عنقها.

دفعت هي خنجرها نحو صدره.
توقف حد السيف عند جلدها.
وتوقف رأس الخنجر فوق قلبه.
لم يستطع أي منهما دفع سلاحه أكثر.
كانت قوتهما متعادلة.
اهتزت ذراع سايرن من أثر الحديد الذي استهلك جسده، بينما انحدر الدم من جبين نيرفا إلى عينها. ومع ذلك، لم يتراجع أي منهما.
قالت بصوت منخفض:
— حركة واحدة، ونموت معًا.
أجاب:
— جربي.
قبل أن تتحرك، دوّى بوق طويل من خلف جيش رهفان.
لم يكن بوق هجوم.
تكرر الصوت ثلاث مرات.
اتسعت عينا نيرفا قليلًا.
عرفت الإشارة.
وصل الفارس القادم من الحصن الشرقي، يخترق الصفوف المنسحبة. رفع فوق رأسه رقعة مختومة بالشمع الأسود.
صاح:
— أمر من الملك فاريك!
لم تلتفت نيرفا.
بقي خنجرها فوق قلب سايرن.
صاح الرسول مرة ثانية:
— بأمر ملك رهفان، تنسحب القوات إلى ما وراء الحصن الشرقي!
ارتفع الغضب في وجهها.
قالت:
— ليس الآن.
جاءها صوت أحد ضباطها من الخلف:
— الجناح الغربي سقط! سيطر جيش قاسران على الطريق، والفيلق الملكي يتقدم نحو المجانيق!

نظرت نيرفا أخيرًا إلى ميدان القتال.
رأت راية الثور الحديدي تتحرك بين صفوف جيشها. كان نائب سايرن يقف فوق صخرة، يوجه الفيلق بمطرقته، بينما تتراجع كتائب رهفان نحو الحصن.
أدركت أن بقاءها سيحوّل الانسحاب إلى حصار.
عادت بعينيها إلى سايرن.
ظل سيفه عند عنقها، وظل خنجرها فوق قلبه.
لم يكن أي منهما قد انتصر.
سحبت نيرفا خنجرها أولًا.
أنزل سايرن سيفه، لكنه لم يبتعد.
تراجعت خطوتين، وصفرت لذئبها.
اندفع الحيوان ذو الندبة البيضاء نحوها، وانخفض حتى أمسكت بفرائه وصعدت فوق ظهره.
بدأت أبواق رهفان تعطي إشارة الانسحاب. تحركت الصفوف نحو الشمال، بينما بقيت وحدات الرماح في الخلف لحماية الطريق إلى الحصن.
قال سايرن:
— انتهت المعركة.
نظرت نيرفا إليه من فوق ذئبها.
كانت الدماء تغطي وجهها، لكن الابتسامة عادت إلى شفتيها.
قالت:
— اليوم أفلتَّ من الموت، يا سايرن.
أدار الذئب جسده نحو الشمال.
أضافت وهي ترفع خنجرها:
— في المرة القادمة لن تفلت.
ثم انطلقت خلف جيشها، ومضت وهي تقهقه.
ظل سايرن واقفًا فوق الهضبة حتى اختفت آخر رايات رهفان خلف الطريق المؤدي إلى الحصن الشرقي.
لم يأمر بالمطاردة.
كان بعض فرسان قاسران قد بدأوا التقدم من تلقاء أنفسهم، مدفوعين بحماسة الانتصار، فأوقفهم صوت البوق الصادر من موقع الفيلق الملكي.

اقترب نائب سايرن ممتطيًا حصانًا غطى الغبار جانبيه. كان الدم قد جف فوق درعه، وظلت مطرقته معلقة عند سرجه.

قال:

— نستطيع اللحاق بالمؤخرة قبل أن تبلغ الحصن.

نظر سايرن إلى الطريق الشمالي.

كانت وحدات الرماح التابعة لرهفان تنسحب ببطء، محافظة على صفوفها، بينما تتحرك الذئاب بين الصخور لحماية جانبي الجيش.

قال سايرن:

— هذا ما ينتظرونه.

— لقد خسروا الجناح الغربي.

— ولم يخسروا الحصن الشرقي.

أشار بسيفه إلى المرتفعات المحيطة بالطريق.

— إذا طاردناهم، قاتلنا تحت سهام الحصن، وتركنا جرحانا خلفنا.

نظر النائب إلى الصفوف المنسحبة، ثم ضرب قبضته فوق صدره.

— كما تأمر.

أمر سايرن الجيش باستعادة المواقع الواقعة خلف الهضبة قبل حلول الليل. تقدمت كتائب حرس الممرات أولًا، تتفحص الطرق والصخور بحثًا عن كمائن أو أنفاخ تركها جنود رهفان. وجدوا برج الممر خاليًا.

كانت بوابته محطمة، وأرض ساحته مغطاة بالرماد. انسحبت منه رهفان على عجل، وتركت برميلين من الزيت وعددًا من الرماح المكسورة.

رفع جنود قاسران راية الثور الحديدي فوق البرج من جديد.

واصلت قوة أخرى طريقها نحو حصن المناجم. وجدته مغلقًا، لكن لم يبق داخله سوى عشرات الجنود من رهفان لحماية انسحاب الجيش. قاوموا وقتًا قصيرًا، ثم تركوا الجدار الشمالي ونزلوا عبر طريق ضيق يصل إلى الحصن الشرقي.

عند الغروب، فُتحت أبواب حصن المناجم أمام سايرن.

دخل جيش قاسران ببطء.

لم ترتفع هتافات النصر.

كان الرجال متعبين أكثر من قدرتهم على الاحتفال. حمل بعضهم رفاقهم فوق الدروع، وسار آخرون وهم يضغطون قطع القماش فوق جروحهم. امتلأ الطريق المؤدي إلى الساحة الداخلية بالجنود والخيول والعربات التي جُمعت من ميدان القتال.

تحولت قاعة الطعام إلى مكان لمعالجة المصابين. وُضعت الأبواب القديمة فوق الصناديق لتصبح أسرّة، وغُلي الماء داخل قدور الجنود، بينما تنقل المعالجون بين الرجال يحملون الإبر والضمادات والمناشير.

وقف نائب سايرن عند المدخل، يقرأ أسماء الوحدات القادمة.

كلما دخلت كتيبة، سأل قائدها عن عدد رجالها، وعدد القتلى، ومن بقي خلفها.

قال له أحد الضباط:

— لم تأكل منذ الأمس.

لم يرفع النائب رأسه عن الرقعة التي يكتب فوقها.

— عندما يدخل آخر جندي، ذكرني بأنني جائع.

— دخلت كل الكتائب.

— حرس الممر الغربي لم يدخل.

— أرسلوا إشارة من البرج. سيبقون هناك حتى الفجر.

توقف النائب عن الكتابة، ثم نظر إلى الساحة.

— إذن أغلقوا البوابة.

تحركت السلاسل، وهبط العارض الخشبي خلف الباب.

للمرة الأولى منذ خروجهم من دمهار، أصبح بين جيش قاسران وعدوه جدار يستطيعون النوم خلفه.

دخل سايرن قاعة المعالجة.

كانت عباءته ممزقة، والدم قد جف فوق يده وجنبه. حاول المرور نحو الجرحى، فأوقفه أحد المعالجين.

— اجلس.

قال سايرن:

— هناك رجال إصاباتهم أسوأ.

— وهؤلاء لا يحاولون إخفاء جروحهم تحت عباءة.

أمسك المعالج طرف القماش وسحبه، فظهر الجرح الذي تركه رمح نيرفا تحت صفيحة الدرع.

جلس سايرن قرب الجدار.

نظف المعالج الجرح وخاطه، ثم انتقل إلى كتفه المصابة. ضغط حول العظم، فتصلب وجه سايرن.

قال:

— الكتف لم ينكسر، لكنه لن يحتمل قتالًا آخر قريبًا.
— احتمل القتال السابق.
— وهذا سبب أنني أتحدث إليك الآن بدل أن أطلب منك تحريك ذراعك.
ربط كتفه بقطعة قماش عريضة، ثم لاحظ السواد الخفيف الذي بقي تحت جلد ساعده.
مد يده نحوه، فأبعد سايرن ذراعه.
قال المعالج:
— هل أصابك شيء مسموم؟
— لا.
— هذه الخطوط لم تكن موجودة عندما خرجت من دمهار.
نظر سايرن إلى ساعده.
كانت آثار القوة قد اختفت تقريبًا، لكن بعض الخطوط بقيت كعروق داكنة تحت الجلد.
قال:
— إنها من الحديد.
انتظر المعالج تفسيرًا، فلم يجده.
— هل ستختفي؟
— اختفت من قبل.
لم يكن سايرن يعرف إن كان ذلك صحيحًا.
دخل نائبه القاعة، فتوقف عند رؤية الضماد حول كتفه.
قال سايرن:
— التقرير.
اقترب النائب وفتح الرقعة.
— استعدنا برج الممر وحصن المناجم وثلاث نقاط للحراسة على طريق الجسر. خسرنا مئة وسبعة وثمانين رجلًا منذ دخول الوادي، وهناك أكثر من أربعمئة جريح.
نظر سايرن إلى الرجال الممددين داخل القاعة.
— ورهفان؟
— تركوا وراءهم أكثر من ضعف هذا العدد، لكن معظم جيشهم دخل نطاق الحصن الشرقي.
— الإمدادات؟
— تكفينا خمسة أيام إذا وصلتنا العربات من الجنوب في موعدها.
— لن تصل في موعدها.

رفع النائب عينيه.
قال سايرن:
— رهفان خسرت الهضبة، وستحاول تعويضها بقطع الطريق بدل مهاجمة الجدران.
طوى النائب الرقعة.
— سأضاعف حراسة القوافل.
نهض سايرن، فأمسك المعالج بكتفه ليعيده إلى مكانه.
قال النائب:
— يمكنك إصدار الأوامر وأنت جالس.
أجابه سايرن:
— ويمكنك تنفيذها من دون أن تتحول إلى معالج.
خرج النائب من القاعة وهو يخفي ابتسامة قصيرة.
أما سايرن، فبقي ينظر إلى الخطوط الداكنة تحت جلده.
سمع في ذاكرته صوت نيرفا:
«في المرة القادمة لن تفلت.»
أغلق يده حتى اختفت الخطوط تحت قبضته.
وفي الجزيرة، كان نائل يحاول إصابة أوران منذ شروق الشمس.
ربط الشيخ قطعة القماش حول عينيه، ثم وضعه في ساحة صغيرة بين الأشجار. لم تكن الأرض مستوية؛ خرجت منها الجذور والحجارة، وانحدرت من جهة واحدة نحو جدول ضيق.
قال أوران:
— لا تتحرك حتى تسمعني.
وقف نائل ممسكًا بعصاه.
انتظر وقع قدم، أو احتكاك ثوب، أو تنفسًا قريبًا.
لم يسمع شيئًا.
مرت لحظات طويلة.
قال:
— هل ما زلت هنا؟
جاءته الضربة من الخلف.
انحنى نائل، فمرت العصا فوق رأسه. استدار وضرب، لكنه لم يصب سوى الهواء.
وصلت ضربة ثانية إلى جانبه.

تراجع، فاصطدمت قدمه بجذر وسقط.
قال أوران:
— مت.
نهض نائل.
— لو مت بعدد المرات التي تقولها، لاحتجنا إلى مقبرة خاصة بي.
— المقابر لا تميز بين من مات مرة ومن مات مئة مرة.
أعاد نائل العصابة إلى مكانها.
— مرة أخرى.
تحرك أوران من حوله.
سمع نائل حفيف الأوراق إلى اليسار، لكنه لم يتبعه. ركز على الأرض تحت قدميه. شعر باهتزاز خفيف داخل الجذر القريب، ثم حركة صغيرة انتقلت عبر التراب.
رفع عصاه.
اصطدمت بها عصا أوران قبل أن تبلغ كتفه.
لم يتوقف نائل.
دار مع الضربة، وتقدم نحو الموضع الذي جاءت منه. وجه عصاه إلى الأمام، فتراجع أوران لأول مرة.
سمع نائل قدمه تتحرك فوق الحصى.
ضرب من الأسفل.
أبعد أوران الضربة، لكن طرف العصا لمس كم عباءته.
توقف الاثنان.
نزع نائل العصابة.
نظر إلى طرف عصاه، ثم إلى القماش فوق ذراع أوران.
— أصبتك.
تفحص الشيخ كم العباءة.
— لم تقل إن عليك أن تصيبني.
— وأنت لم تقل إنني لا أفعل.
— لمست ثوبي.
— الثوب جزء منك عندما ترتديه.
قال أوران:

— بهذه الطريقة، تستطيع الادعاء أنك أصبت شجرة إذا وقفت خلفها.
ابتسم نائل.
— هل ستقف خلف شجرة في المرة القادمة؟
استدار أوران من غير جواب، فتبعته ابتسامة نائل حتى ابتعد.
قال نائل:
— نجحت إذن.
توقف الشيخ.
— نجحت في سماع خطوة واحدة.
— لم أسمعها.
نظر أوران إليه.
أشار نائل إلى الأرض.
— شعرت بها هنا.
انحنى الشيخ ولمس الجذر الذي وقف نائل قربه.
— ماذا شعرت؟
— كأن الجذر أخبرني بأن شيئًا يضغط عليه.
— الجذور لا تتكلم.
— والحجارة لا تجيب، ومع ذلك سألتني أمس لماذا أجابتني.
وقف أوران.
كانت ابتسامة نائل قد اتسعت. أدرك أنه استعمل كلمات الشيخ ضده.
قال أوران:
— خذ خريطتك.
أخرج نائل ورقة مطوية من حقيبته.
قادَه أوران إلى موضع لا يرى منه البحيرة ولا السفينة. أحاطت بهما الأشجار من كل جانب، وتشابهت الممرات حتى بدت الغابة كأنها تكرر نفسها.
قال:
— ارسم طريق العودة.
نظر نائل إلى الورقة البيضاء.
— لا أعرف أين نحن.
— لهذا طلبت منك رسم الطريق.

– يجب أن أعرف المكان أولًا.
– لو كنت تعرفه، لما احتجت إلى الخريطة.
جلس نائل فوق صخرة، ووضع الورقة فوق ركبته. حاول تذكر اتجاه البحيرة، ثم رسم الأشجار التي مر بها والمنحدر القريب.
راقبه أوران في صمت.
بعد وقت قصير رفع نائل الخريطة.
– البحيرة هناك.
أشار إلى ممر بين شجرتين.
لم يتحرك أوران.
– هل أنت متأكد؟
نظر نائل إلى الخريطة، ثم إلى الممر.
– تقريبًا.
– البحر يبتلع الذين يكونون متأكدين تقريبًا.
مسح نائل جزءًا من الرسم، ثم وضع طرف قلم الفحم فوق الورقة.
قبل أن يرسم، شعر بالاهتزاز نفسه الذي أحسه تحت قدميه.
لم يأت هذه المرة من جذر واحد.
جاء من الأرض كلها.
تحرك القلم في يده ورسم خطًا منحنيًا بين الأشجار التي وضعها فوق الخريطة. لم يكن الخط في الاتجاه الذي اختاره.
توقف نائل ونظر إليه.
قال أوران:
– هل رسمته؟
– تحركت يدي.
– اليد لا تتحرك وحدها.
رفع نائل الورقة.
– هل هذا هو الطريق؟
أخذ أوران الخريطة ونظر إلى الخط.
لم يتغير وجهه، لكن أصابعه بقيت فوق الورقة وقتًا أطول مما ينبغي.
أعادها إليه.

— اتبعه.
سارا بين الأشجار.
كلما وصلا إلى ممرين، وجد نائل أن الخط يقوده إلى الأضيق والأقل وضوحًا. وبعد وقت قصير سمع صوت ماء البحيرة.
خرج من الغابة، فوجد السفينة السوداء أمامه.
ضحك ورفع الخريطة.
— كنت محقًا.
قال أوران:
— لم تكن تعرف ما ترسم.
— لكنها أوصلتنا.
— هذه هي المشكلة.
اختفت ابتسامة نائل.
نظر إلى الخط المرسوم فوق الورقة.
كان قد تغير.
لم يعد ينتهي عند البحيرة.
امتد طرفه قليلًا نحو وسط الماء، ثم توقف عند مساحة فارغة لا تحمل جزيرة ولا صخرة.
رفع نائل الخريطة نحو أوران، لكن الشيخ كان قد أدار ظهره.
قال:
— انتهى التدريب اليوم.
— والخط؟
— غدًا.
— كل شيء عندك يحدث غدًا.
أجابه أوران وهو يصعد إلى السفينة:
— لأنك لم تصبح مستعدًا اليوم.
طوى نائل الخريطة، لكنه أبقاها في يده.
وتحت الخط الجديد، ظهرت نقطة سوداء صغيرة ثم اختفت.
في الشمال، أصبحت الأيام متشابهة.
لم يعد الجيشان يخوضان معركة واحدة كبيرة، بل عشرات المعارك الصغيرة.

تهاجم رهفان عند الفجر، وتتراجع قبل الظهيرة. يخرج جنود قاسران لإصلاح جسر، فتسقط عليهم السهام من الصخور. تنطلق قافلة طعام من الجنوب، فتجد الطريق مسدودًا بأشجار قُطعت ليلًا.

ثبت جيش قاسران داخل الحصون المستعادة.

وضع الرماة فوق الأبراج، وانتشر حرس الممرات بين الجبال، وأقام الفيلق الملكي في حصن المناجم، مستعدًا للتحرك نحو أي موضع يتعرض للهجوم.

لكن الصمود كان له ثمن.

تأخرت القوافل، وبدأ الخبز يصغر كل يوم. نام الجنود بدروعهم، ولم يجف الدم عن أرض قاعة المعالجة قبل وصول جرحى جدد.

في اليوم الرابع، حاولت قوة من رهفان الاقتراب من برج الممر تحت غطاء الضباب.

اكتشفها حرس قاسران قبل أن تبلغ الأسوار. اندلعت مناوشة قصيرة بين الصخور، ثم انسحب جنود رهفان نحو ممر ضيق يقع شمال البرج.

وصل الخبر إلى حصن المناجم عند الظهيرة.

كان سايرن يتفقد الجرحى، فتولى نائبه قيادة القوة الخارجة لمساندة البرج.

بلغ الممر ومعه ثمانمئة رجل من الفيلق الملكي ومئتان من الرماة. وجد جنود رهفان ينسحبون أمامه، تاركين دروعًا مكسورة وآثار دم فوق الطريق.

قال قائد الرماة:

— يتراجعون بسرعة.

راقب النائب المرتفعات.

لم ير رايات، ولم يسمع عواء الذئاب.

قال أحد ضباطه:

— ربما كانوا يستطلعون دفاعات البرج.

أشار النائب إلى نصف كتيبة من الفيلق.

— اتبعوهم حتى المنعطف. لا تسمحوا لهم بالعودة ومعهم عدد رجالنا ومواقع الرماة.

قال قائد الرماة:

— لم يعد الكشافة بعد.

نظر النائب إلى جنود رهفان الذين بدأوا يختفون خلف المنعطف.

— إذا انتظرنا الكشافة، سيبلغون الحصن الشرقي.

تحركت القوة.

دخل رجال الفيلق الممر في صفين، وتبعهم الرماة. وجدوا آثار العدو واضحة فوق التراب، فواصلوا التقدم حتى ابتعدوا عن البرج.

عند المنعطف، اختفت الآثار.

توقف قائد الرماة.

رفع رأسه نحو الصخور.

كان أول سهم قد انطلق.

أصاب جنديًا عند العنق.

ثم سقطت السهام من الجانبين.

ظهرت قوات رهفان فوق المرتفعات، وأغلقت قوة أخرى الطريق خلف رجال قاسران. لم يكن الانسحاب الذي رأوه هزيمة، بل طريقًا رُسم لهم حتى يدخلوا بين الصخور.

صاح النائب:

— الدروع إلى الأعلى! الرماة نحو الجهة الغربية!

ارتفعت دروع الفيلق، لكنها لم تستطع الاتصال في الممر غير المستوي. بقيت فراغات بين الرجال، ودخلت منها السهام.

أمر النائب الصف الأول بالتقدم لكسر القوة التي تسد الطريق أمامهم.

اندفع الفيلق.

لكن جنود رهفان تراجعوا خطوة، وخرجت من خلفهم ثلاثة ذئاب مدرعة.

قفز أولها داخل الصف، وأسقط رجلين. ضربه النائب بمطرقته، لكنه لم يصل إلى المفصل بين دروعه. استدار الذئب نحوه، فرفع درعه واستقبل مخالبه.

اندفع معه حتى اصطدم الاثنان بجدار الصخر.

دخلت المخالب في حافة الدرع.

ضربه النائب مرة ثانية عند الفك، فتراجع الحيوان. غرس جندي رمحه في جانبه، ثم دفعه ثلاثة رجال نحو حافة الطريق.

سقط الذئب في المنحدر، لكنه أخذ اثنين منهم معه.

سمع النائب أبواقًا خلفه.

كانت قوة جديدة من رهفان تدخل الممر.

أدرك أن قراره بالمطاردة وضع رجاله داخل نفق.

صاح قائد الرماة:

— يجب أن نعود إلى البرج!

نظر النائب إلى الجرحى المنتشرين خلف الدروع.
— إذا انسحبنا الآن، تركناهم.
— وإذا بقينا، سنترك الجميع.
تردد النائب لحظة.
كانت تلك اللحظة كافية لوصول وابل جديد من السهام.
سقط عدد آخر من رجاله.
ضرب النائب مطرقته فوق درعه.
— نشكل نصف جدار! الصف الأول نحو الشمال، والثاني يحمي الجرحى! نتراجع خطوة خطوة!
بدأ الفيلق يتحرك إلى الخلف.
لم تستطع الدروع الاتصال كاملة، لكن الرجال ثبتوها فوق رؤوسهم وعلى جانبي الممر، وصنعوا ممرًا ضيقًا يمر عبره الجرحى.
بقي النائب في المؤخرة.
كلما اقترب جنود رهفان، تقدم نحوهم بمطرقته وأجبرهم على التراجع، ثم عاد خطوة أخرى مع رجاله.
استمر الانسحاب حتى ظهرت رايات قاسران فوق الصخور.
وصل حرس الممرات أخيرًا.
هاجموا رماة رهفان من الخلف، فاضطروا إلى ترك المرتفعات. فتح الطريق، وعادت بقايا القوة إلى برج الممر.
دخل النائب آخر الرجال.
كان درعه مثقوبًا بثلاثة سهام، والدم ينزل من جانب رأسه.
وجد سايرن ينتظره داخل الساحة.
كان قد وصل من حصن المناجم بعد أن بلغته إشارة الكمين.
نظر إلى الرجال المحمولين فوق الدروع، ثم إلى نائبه.
سأله:
— كم خسرنا؟
أجاب قائد الرماة بدلًا منه:
— ثلاثة وسبعين قتيلًا، وأكثر من مئة جريح. وقد يرتفع العدد قبل الليل.
خلع النائب خوذته.
قال سايرن:

— أين الكشافة؟
لم يجبه أحد.
ثبت عينيه على نائبه.
قال الرجل:
— أرسلت القوة قبل عودتهم.
— لماذا؟
— خشيت أن يصل جنود رهفان إلى الحصن الشرقي ومعهم مواقعنا وأعدادنا.
— فقررت أن تعطيهم رجالنا بدلًا من المعلومات.
خفض النائب رأسه.
كان الجنود القريبون يسمعون الحوار، لكنه لم يحاول الدفاع عن نفسه.
قال:
— أخطأت.
اقترب سايرن منه.
— أنت لا تقود ثمانمئة درع. تقود ثمانمئة رجل. عندما تخسر صبرك، لا يموت القرار. الرجال هم الذين يموتون.
شد النائب قبضته حول خوذته.
— أعرف.
— لم تعرف عندما أعطيت الأمر.
رفع النائب عينيه. ظهر الغضب فيهما، لكنه لم يكن موجهًا نحو سايرن.
— رأيتهم يهربون بعد كل ما فعلوه برجالنا. أردت أن أضربهم قبل أن يختبئوا خلف الحصن.
— فاختبأت خلف غضبك بدل أن تنتظر الكشافة.
ساد الصمت في الساحة.
وضع النائب خوذته فوق الأرض، ثم فك مشبك رأس الثور عن كتفه.
مده إلى سايرن.
— أخفقت في قيادة الفيلق. أعفني من منصبي.
نظر سايرن إلى المشبك في يده.
— وهل يعيد ذلك الرجال؟
— لا.
— وهل يجعل القائد القادم أقل غضبًا؟

لم يجب النائب.
أعاد سايرن دفع المشبك نحو صدره.
— ستحتفظ به.
رفع الرجل رأسه.
— أخطأت، ويجب أن أدفع الثمن.
— ستدفعه عندما تنظر في وجوه عائلات الرجال الذين فقدتهم، لا عندما تهرب من موقعك.
تردد النائب، ثم أعاد تثبيت المشبك فوق كتفه.
قال سايرن:
— لن تتحرك كتيبة من الفيلق خارج الأسوار قبل عودة الكشافة. حتى لو وقف ملك رهفان نفسه أمام البوابة.
— كما تأمر.
ابتعد سايرن، ثم توقف.
— لقد بقيت في المؤخرة حتى خرج آخر جريح.
قال النائب:
— كانوا رجالي.
— تذكر ذلك قبل أن تغضب، لا بعده.
غادر الساحة.
بقي النائب وسط الجنود.
نظر إلى الدروع التي حُملت فوقها الجثث، ثم انحنى والتقط خوذته.
في تلك الليلة، لم يدخل قاعة الطعام.
جلس قرب المصابين، وساعد المعالجين في حمل الماء وتغيير الضمادات. وحين مات أول جندي متأثرًا بسهم في صدره، بقي النائب إلى جانبه حتى أغلق وجهه بقطعة القماش.
لم تكرر قاسران الخطأ في اليوم التالي.
هاجمت رهفان طريق الإمدادات عند الفجر، لكن الكشافة اكتشفوا القوة قبل أن تغلق الممر. خرج الفيلق الملكي في تشكيل ضيق، ورافقته وحدات من حرس الجبال.
قاد النائب الرجال مرة أخرى.
هذه المرة توقف عند كل منعطف حتى تأتيه الإشارة من المرتفعات. وعندما تظاهرت قوة رهفان بالانسحاب، بقي في موقعه.
انتظر.

بعد دقائق ظهرت الذئاب التي كانت مختبئة خلف الصخور.
أمر الرماة بإطلاق سهامهم، ثم أغلق الطريق بجدار الثور.
فشلت رهفان في بلوغ القافلة.
عادت العربات إلى الحصن محملة بالقمح والزيت والأدوية، واستقبلها الجنود كأنها جيش جاء لإنقاذهم.
لكن الانتصار لم ينه الحرب.
مرت أيام أخرى.
استعادت قاسران برجًا، ثم خسرته ليلًا. قطعت رهفان جسرًا صغيرًا، فأصلحه مهندسو قاسران تحت وابل من السهام. هاجمت الذئاب حراس القوافل، ورد أصحاب المقاليع بإسقاط الحجارة فوق الطرق.
كل يوم يحمل انتصارًا صغيرًا وخسارة جديدة.
لم يعد أحد يسأل متى تبدأ المعركة التالية.
كانت المعركة مستمرة دائمًا.
وفي الحصن الشرقي، وقف الملك فاريك أمام نافذة القاعة العسكرية، يتابع الدخان المتصاعد من الجبال.
جلست نيرفا إلى جانب الطاولة، وقد استبدلت درعها المكسور بآخر أخف. بقي جرح صغير فوق جبينها، ولفت قطعة قماش حول جانبها حيث أصابتها ضربة سايرن.
اجتمع حولهما قادة الجيش ومسؤولو الإمداد.
قال مسؤول المخازن:
— بقي لدينا طعام يكفي اثني عشر يومًا إذا استمر الاستهلاك بالمعدل نفسه.
سأله فاريك:
— وإذا خفضنا حصص الجنود؟
— سبعة عشر يومًا. لكن الذئاب تحتاج إلى اللحم، ولا يمكن خفض طعامها أكثر.
قال أحد القادة:
— نرسل قوة إلى القرى الجنوبية.
أجاب مسؤول المخازن:
— أُخليت القرى. أخذ أهلها الحبوب وأحرقوا ما لم يستطيعوا حمله.
أشار قائد آخر إلى الخريطة.
— نستطيع فتح طريق جديد عبر الممر الغربي.

قالت نيرفا:

— حاولنا مرتين. حرس قاسران يعرفون الصخور أفضل من رجالنا. سنخسر قوة أخرى قبل أن تمر عربة واحدة.

ضرب القائد إصبعه فوق الخريطة.

— إذن نهاجم حصن المناجم وننهي الأمر.

نظرت إليه.

— حاولتَ مهاجمته قبل ثلاثة أيام.

— لم يكن معي عدد كاف.

— كان معك ألفا رجل وأربعون ذئبًا، وعدت بنصفهم.

خفض القائد عينيه.

قال فاريك:

— يكفي.

ساد الصمت.

نظر الملك إلى الطرق الممتدة بين الحصن وحدود رهفان.

كانت المسافة التي عبرها الجيش في أيام الغزو الأول تبدو الآن أطول بكثير. كل ممر احتاج إلى حراسة، وكل جسر إلى رجال، وكل عربة طعام إلى كتيبة تحميها.

قال:

— خرجنا من رهفان ونحن نعتقد أن سقوط الحصون الأولى سيفتح الطريق إلى دمهار.

قال أحد القادة:

— سقطت الحصون الأولى.

— ثم أخذها سايرن منا واحدة بعد الأخرى.

قالت نيرفا:

— ما زال هذا الحصن في أيدينا.

أجاب فاريك:

— لأنه يعرف أن مهاجمته سيكلفه أكثر مما يحتمل.

— أو لأنه يخشى العودة إلى القتال معي.

نظر إليها الملك.

ابتسمت، لكن يدها انغلقت قليلًا فوق الجرح في جانبها.

قال فاريك:

— لو كان يخشاك، لطاردك عندما انسحبت.
اختفت ابتسامتها.
تابع:
— سايرن لا يريد الحصن فقط. يريد أن يجعلنا نبقى داخله حتى نأكل آخر ما في مخازنه.
قال مسؤول الإمداد:
— إذا لم يصلنا الطعام من رهفان خلال أسبوع، سنضطر إلى ذبح بعض الذئاب لإطعام الجنود.
رفع حراس الذئاب رؤوسهم بغضب.
قال أحدهم:
— الذئاب ليست ماشية.
أجابه المسؤول:
— والجنود ليسوا حجارة تستطيع تركها بلا طعام.
تعالت الأصوات داخل القاعة.
طالب بعض القادة بهجوم شامل قبل نفاد المؤن، بينما رأى آخرون أن الجيش يجب أن يعود إلى الحدود ويحتفظ بما يستطيع الدفاع عنه. تحدث مسؤولو الذئاب عن الحيوانات المصابة، وتحدث المهندسون عن المجانيق التي لا يمكن نقلها فوق الطرق المهدمة.
ضرب فاريك الطاولة بقبضته.
سكت الجميع.
قال:
— لم نعبر الجبال كي نعود من أول حصن.
أشار إلى دمهار المرسومة في نهاية الطريق.
— لكننا لن نصل إلى العاصمة إذا استمررنا في دفع الرجال مقابل كل صخرة.
سأله أحد القادة:
— ما أمرك إذن؟
بقي فاريك ينظر إلى الخريطة.
لم يكن أمامه طريق لا يدفع فيه ثمنًا.
إذا هاجم، قاتل جيشًا أصبح يعرف أرضه ويزداد صلابة كل يوم. وإذا بقي، نفد الطعام. وإذا انسحب، عاد إلى رهفان بانتصارات تحولت إلى حصن واحد محاصر.
قالت نيرفا:
— دعني أخرج بقوة صغيرة.

نظر إليها.
— إلى أين؟
— خلف حصن المناجم. إذا قطعت الطريق الجنوبي، فلن تصلهم القوافل. سيضطر سايرن إلى الخروج، وعندها نختار نحن مكان القتال.
قال مسؤول الإمداد:
— والطعام؟
— نأخذه من القوافل التي نستولي عليها.
أجاب فاريك:
— وإذا لم تأتِ القوافل؟
— ستأتي. جيش قاسران لا يأكل الحديد.
فكر الملك في اقتراحها.
وقبل أن يجيب، جاء طرق قوي على باب القاعة.
دخل قائد الحرس.
قال:
— وصل رسول إلى البوابة الشمالية.
لم ينظر فاريك إليه.
— من رهفان؟
— لا يا مولاي.
— من دمهار؟
— لا يحمل راية قاسران.
رفع الملك رأسه.
تردد قائد الحرس قبل أن يضيف:
— يقول إنه جاء من زافرين.
تبادلت نيرفا والقادة النظرات.
قال فاريك:
— زافرين بعيدة عن هذه الحرب.
— هذا ما قلته له. لكنه رفض تسليم رسالته إلى أي شخص غيرك.
سألته نيرفا:
— هل جاء وحده؟

— معه رجلان بقيا خارج الحصن. يحملون أوراق عبور مختومة بختم ملك زافرين.
قال فاريك:
— أدخله.
فُتح الباب.
دخل رجل طويل يرتدي عباءة بلون الرمل، حُددت أطرافها بخيوط سوداء. لم يحمل سيفًا ظاهرًا، ولم ينحنِ إلا بمقدار قليل حين بلغ وسط القاعة.
عُلقت فوق صدره علامة الطائر الذهبي والريشة السوداء.
كان يحمل أنبوبًا ضيقًا من الخشب الأسود، أغلق طرفه بختم ملكي.
توقفت عيناه فوق الخريطة، ثم انتقلتا إلى نيرفا والقادة، قبل أن تستقرا على فاريك.
قال الملك:
— قطعت طريقًا طويلًا لتدخل حصنًا محاصرًا.
أجاب الرسول:
— الطريق الطويل أقصر من حرب لا تعرف كيف تنتهي.
تحرك أحد قادة رهفان غاضبًا، لكن فاريك رفع يده وأوقفه.
قال:
— تكلم.
رفع الرسول الأنبوب بين يديه.
— أحمل إلى ملك رهفان عرضًا قد ينهي هذه الحرب...
توقف، ونظر إلى الرجال الواقفين حول الطاولة.
ثم أضاف:
— من دون أن يضطر إلى الانتصار فيها.
لم يمد فاريك يده إلى الأنبوب فورًا.
ظل ينظر إلى الرسول، محاولًا أن يقرأ في وجهه ما لم يقله. لكن ملامح الرجل بقيت ساكنة، كأن الطريق الطويل والغبار والعيون المتحفزة حوله لم تكن تعنيه.
قال الملك:
— لا تنتهي الحروب بالعروض، بل بما يملكه صاحب العرض خلف كلماته.
أجاب الرسول:
— ولهذا لم آتِ بالكلمات وحدها.
وضع الأنبوب فوق الطاولة ودفعه ببطء نحو فاريك.

كسر الملك الختم، وأخرج رقعة سميكة كُتبت فوقها أسطر قليلة بحبر أسود. قرأها مرة، ثم أعاد قراءتها دون أن تتغير ملامحه.

اقتربت نيرفا خطوة.

— ماذا يريدون؟

طوى فاريك الرقعة، لكنه لم يبعد يده عنها.

— يريدون سقوط سايرن.

ساد الصمت داخل القاعة.

توقفت أصابع أحد القادة فوق حافة الخريطة، بينما تحولت عينا نيرفا إلى الرسول.

قالت:

— ومنذ متى تهتم زافرين بمن يقود جيوش قاسران؟

أجاب الرسول:

— منذ أظهر ذلك القائد قوة لم تعد تخص ساحة المعركة وحدها.

قال فاريك:

— الحديد.

أومأ الرسول.

— ما حدث في الوادي وصل إلى ممالك أبعد مما تظنون. رجل يرفع الحديد من الأرض ويحطم به وحشًا عجزت أمامه الكتائب لن يبقى مجرد قائد جيش. إن نمت قوته، تغيرت طرق التجارة والمناجم وموازين الحدود معه.

ضرب أحد قادة رهفان الطاولة بقبضته.

— إذن تخافه زافرين، وتريد منا أن نموت بدلًا عنها.

نظر إليه الرسول ببرود.

— أنتم تموتون الآن من دون أن تطلب زافرين ذلك.

اندفع القائد نحوه، لكن نيرفا مدت ذراعها وأوقفته قبل أن يصل إليه.

قالت وهي لا ترفع عينيها عن الرسول:

— دعه يكمل.

فتح فاريك الرقعة فوق الخريطة.

— تعرضون الطعام.

— قوافل تكفي جيش رهفان شهرين، تدخل من الطريق الشرقي القديم. لن تمر قرب حرس قاسران، ولن تحمل رايات زافرين.

— والطريق الشرقي مغلق منذ سنوات.
— مغلق أمام من لا يعرف بوابته.
مرر فاريك إصبعه فوق خط الجبال المرسوم في الخريطة.
— وتعرضون اعترافًا سياسيًا بالأراضي التي نحتفظ بها بعد الحرب.
— إذا بقيت في أيديكم عند توقيع الصلح، ستدعم زافرين حق رهفان فيها.
رفع الملك عينيه.
— وفي المقابل يسقط سايرن، ثم يبقى طريق المناجم مفتوحًا لقوافلكم عشر سنوات.
— هذا هو الاتفاق.
ضحك أحد القادة ضحكة قصيرة خالية من المرح.
— تطلبون ثمنًا لشيء لم تمنحونا إياه بعد.
قال الرسول:
— نمنحكم ما تحتاجونه كي تبقوا في هذه الحرب، ثم نمنحكم الطريق الذي يجعل بقاءكم انتصارًا. أما الثمن فلن تدفعوه إلا إذا نجحتم.
قال فاريك:
— قتل سايرن ليس خطة.
— صحيح.
مد الرسول يده نحو الخريطة، لكنه توقف حين تحرك حارسان خلفه. انتظر حتى أشار فاريك إليهما بالتراجع، ثم وضع إصبعه فوق خط متعرج جنوب الحصن.
— هنا مجرى نهر قديم جف منذ أعوام. ينتهي بين جدارين من الصخر عند ممر المناجم المهجور.
قال أحد القادة:
— ذلك الطريق لا يقود إلى شيء.
— وهذا ما يجعله مناسبًا.
سحب الرسول إصبعه حتى بلغ علامة صغيرة قرب الممر.
— تعلن رهفان انسحابها من حصنين صغيرين، وتطلب تبادل الأسرى قبل الرحيل. يصل الخبر إلى قاسران بأن بعض أسراها سيُنقلون عبر المجرى الجاف قبل الفجر.
قال فاريك:
— وسيظن سايرن أنها فرصة لإنقاذ رجاله وضرب مؤخرة جيشي.
— لن يظن. سيُدفع إلى اليقين.
نظر الملك إليه طويلًا.

— بأي قوة تريدون إغلاق الممر؟
— رجال رهفان فوق المرتفعات، ورماة في الشقوق، وحجارة جاهزة لإغلاق طريق العودة.
أرض الممر فقيرة بالحديد، وكل ما كان في مناجمها نُقل منذ زمن. هناك لن يجد قائد قاسران ما وجده في الوادي.
قال أحد القادة:
— وسيجد سيوفنا ورماحنا.
أجابه الرسول:
— إن دخل بعدد قليل، نعم. وإن دخل بجيشه كله، فقد فشلت الخطة قبل أن تبدأ.
سأل فاريك:
— ما الذي سيجبره على الدخول بعدد قليل؟
— رجاله.
رفع الرسول نظره إلى الملك.
— سايرن لا يترك جنديًا من قاسران إذا اعتقد أنه يستطيع الوصول إليه. اجعلوه يظن أن السرعة وحدها ستنقذ الأسرى، وأن تحريك الجيش سيكشف العملية ويدفعكم إلى قتلهم.
تحركت نيرفا من مكانها، وارتطم مقبض سيفها بحافة الطاولة.
— وإذا أردتم أن تمطروه بالسهام وهو محاصر بين الصخور، فابحثوا عن قائد غيري.
التفت إليها فاريك.
قالت:
— سايرن لي. هزمته أو يهزمني، لكنني لن أقف فوق مرتفع أراقب الرجال يقتلونه من بعيد.
قال الرسول:
— لم يطلب منك أحد أن تقفي بعيدًا.
— إذن غيّر خطتك.
— الخطة توصله إلى الممر. وما يحدث داخله تقرره رهفان.
اقتربت نيرفا حتى لم يبق بينها وبين الرسول سوى طرف الطاولة.
— ما يحدث داخله أقرره أنا.
لم يتراجع الرجل، لكنه نقل عينيه إلى فاريك.
فتح الملك كفه فوق الخريطة.
— لن يُقتل سايرن بسهم طائش. يدخل الممر، تُغلق عليه طرق العودة، ونتولى نيرفا مواجهته. إن سقط في النزال انتهى الأمر. وإن حاول رجاله كسر الحصار، تحرك القوات فوق المرتفعات.

قال أحد القادة:
— هذا يمنحه فرصة للخروج.
أجابه فاريك:
— ويمنح نيرفا سبباً للمشاركة بدل أن تهدم الخطة من داخلها.
لم تعترض نيرفا.
قال الرسول:
— يقبل مرسلي هذا الشرط ما دام سايرن لا يغادر الممر حيًا.
ضاقت عينا فاريك.
— مرسلك؟
— ملك زافرين لا يضع اسمه فوق كل قرار تتخذه مملكته.
طوى فاريك الرسالة مرة أخرى.
— وتريد مني أن أثق بختم لا يحمل وعدًا صريحًا من ملكك.
أخرج الرسول من داخل عباءته قطعة دائرية من المعدن، ووضعها فوق الرقعة.
حُفر على وجهها طائر ذهبي باسط الجناحين، وعلى ظهرها تاج تحيط به سبع ريش سوداء.
تغيرت نظرة فاريك.
قال أحد القادة بصوت منخفض:
— الختم الملكي الخاص.
قال الرسول:
— يبقى عندك حتى تصل أول قافلة. إذا لم تدخل المؤن من الطريق الشرقي خلال ستة أيام، اكسر الختم وأرسل نصفه إلى دمهار. ستعرف قاسران عندها من مد يده إلى هذه الحرب.
أمسك فاريك القطعة ورفعها نحو ضوء المشاعل. فحص حافتها، ثم أعادها إلى الطاولة.
— وإذا وصلت القافلة؟
— تبدأون الانسحاب الكاذب.
سألته نيرفا:
— ومتى يصل الخبر إلى سايرن؟
— عندما يصبح كل شيء جاهزًا.
— لم أسألك متى. سألتك كيف.
نظر الرسول إليها لحظة، ثم قال:
— سيصل إليه من جهة يثق بها.

قال فاريك:
— من؟
— كلما قل عدد من يعرفون، طال عمر الخطة.
اشتدت قبضة نيرفا فوق مقبض سيفها، لكن فاريك رفع يده.
— سيبقى رسول زافرين في الحصن حتى تصل المؤن.
للمرة الأولى ظهر شيء قريب من الابتسام فوق فم الرجل.
— توقعت ذلك.
قال فاريك لقائد الحرس:
— خذه إلى البرج الشمالي. لا يغادر غرفته، ولا يقابله أحد من رجاله. أما الرجلان عند البوابة، فضعهما في الجناح السفلي.
انحنى الرسول انحناءة قصيرة.
— ستصل القافلة في اليوم السادس قبل الغروب.
— إن لم تصل، فلن تخرج من البرج.
— وإن وصلت، قد لا ترغب في إخراجي حتى تنتهي الحرب.
قاد الحرس الرسول خارج القاعة.
بقي فاريك واقفًا فوق الخريطة، يقلب الختم بين أصابعه.
قال أحد القادة:
— يمكن أن تكون خدعة من قاسران.
— لو أرادت قاسران خداعنا، لما منحتنا طريقًا لإطعام جيشنا.
قالت نيرفا:
— زافرين لا تنقذ أحدًا مجانًا.
— ولا نحن طلبنا النجاة مجانًا.
أعاد فاريك الختم فوق الرسالة.
— أرسلوا رجلين إلى الطريق الشرقي. لا يحملان ألوان رهفان، ولا يعرف أحد إلى أين ذهبا.
وأوقفوا كل الرسائل الخارجة من الحصن حتى تصل القافلة.
قال قائد الحرس:
— حتى رسائل الضباط؟
— خصوصًا رسائل الضباط.
انصرف القادة لتنفيذ الأوامر، وبقيت نيرفا قرب الخريطة.

قال لها فاريك:
— أنت تعرفين أن الأمر قد لا ينتهي بنزال.
— كل نزال ينتهي بطريقة ما.
— وإن تدخل رجاله؟
رفعت نيرفا بصرها إليه.
— عندها يتدخل رجالي.
استدارت وغادرت القاعة، وظل الملك وحده أمام العلامة الصغيرة التي تشير إلى المجرى الجاف.
في البرج الشمالي، دخل رسول زافرين غرفته تحت حراسة أربعة رجال.
لم يكن فيها سوى فراش ضيق وطاولة ونافذة تطل على الإسطبلات. فتش الحراس عباءته وحذاءه وحزامه، ثم أخذوا أنبوب الرسالة وتركوه وحده.
انتظر حتى ابتعد وقع أقدامهم خلف الباب.
وقف عند النافذة، ونظر إلى الساحة أسفل البرج.
كان خدم الإسطبل ينقلون الماء والتبن، والجنود يبدلون حراسة البوابة. أخرج الرسول من بين خيوط كمّه قرصًا معدنيًا أصغر من الظفر. لم يحمل ختمًا أو كتابة، بل شقًا واحدًا في وسطه.
تركه يسقط من النافذة.
اصطدم القرص بحجر، ثم استقر قرب كومة من التبن.
مر خادم يحمل دلوين ولم يلتفت إليه. تبعه آخر يقود حصانًا مصابًا. وبعد وقت قصير، جاء صبي الإسطبل يكنس الأرض. دفع القرص مع الغبار، ثم انحنى كأنه يصلح حبل حذائه واختفى المعدن داخل كفه.
لم ينظر الصبي إلى النافذة.
عاد الرسول إلى فراشه وجلس.
وقبل منتصف الليل، خرج فارس منفرد من باب صغير خلف الإسطبلات. ارتدى عباءة رهفانية قديمة، وقاد حصانه ببطء حتى تجاوز الحرس، ثم اندفع شرقًا حالما ابتلعه الظلام.
لم يحمل رسالة مختومة، ولم يعرف الحارس الذي فتح له الباب أن الكلمات مخيطة داخل بطانة سرجه.
وعند الفجر، عاد فاريك إلى البرج.
فتح الحراس باب الغرفة، فوجد الرسول واقفًا عند النافذة كأنه لم ينم.
دخل الملك وحده، وأغلق الباب خلفه.
قال:

— أرسلت رجالي إلى الطريق الشرقي.
— سيرون القافلة في موعدها.
— هذا لا يجيب عن السؤال الذي بقي منذ الليلة الماضية.
استدار الرسول نحوه.
قال فاريك:
— خطتك تفترض أن سايرن سيصدق خبر الأسرى، وسيترك حصنه، ويدخل الممر قبل أن ينتظر جيشه. قائد مثله لا يعيش طويلًا إن اتبع كل خبر يصل إليه.
— لن يتبع الخبر وحده.
— وماذا سيتبع؟
لم يجب الرسول.
اقترب فاريك خطوة.
— قلت إن المعلومة ستأتيه من جهة يثق بها. لكن الثقة لا تكفي دائمًا. ماذا لو رأى الفخ؟
نظر الرسول عبر النافذة نحو الجبال التي بدأ ضوء الصباح يكشف قممها.
— سيأتي.
— كيف تعرف؟
— لأن الرجل الذي سيقوده إلى الممر هو آخر رجل يمكن أن يشك فيه.
في مساء اليوم السادس، ظهرت أولى العربات عند المدخل الشرقي للحصن.
لم تحمل رايات، ولم تُشعل مشاعل رغم اقتراب الظلام. تقدمت في صف طويل بين الصخور، تقودها خيول غُطيت علامات أصحابها بقطع من الجلد الأسود.
وقف فاريك فوق السور يراقب دخولها.
كانت العربات محملة بأكياس القمح والشعير والملح، وبراميل الزيت واللحم المجفف. تكفي المؤن لإبقاء جيش رهفان في الحرب أسابيع أخرى.
اقترب منه أحد القادة.
— فتشنا العربات والرجال. لا أسلحة مخبأة، ولا جنود بين المؤن.
قال فاريك:
— أدخلوها إلى المخازن السفلية، ولا توزعوا شيئًا منها الليلة.
نظر القائد إليه مستغربًا.
— جنودنا لم يأكلوا جيدًا منذ أيام.
— وسيصبرون ليلة أخرى. أريد عيون قاسران أن ترى رجالًا جائعين وجيشًا يستعد للهرب.

في الساحة الداخلية، كان رسول زافرين يقف بين حارسين. رفع بصره نحو الملك، فأخرج فاريك الختم الملكي الخاص من عباءته وأمسكه بين أصابعه.

قال:

— أوفت زافرين بالجزء الأول.

أجابه الرسول:

— الآن يأتي دور رهفان.

نزل فاريك عن السور ودخل القاعة العسكرية. كانت نيرفا تنتظره أمام الخريطة، مرتدية درعها الأسود، وقد وضعت سيفها فوق الطاولة.

قالت:

— هل وصلت المؤن؟

— وصلت.

— إذن سيبدأ الانسحاب عند الفجر؟

— من الحصنين الجنوبيين أولًا. نترك فيهما ما يكفي لإقناع سايرن بأننا خرجنا على عجل.

سأل أحد القادة:

— وماذا عن الأسرى؟

قال رسول زافرين:

— يُنقل بعضهم إلى الممر قبل طلوع الليل. يحتاج سايرن إلى أن يجد دليلًا على أن الخبر حقيقي.

ضربت نيرفا طرف الطاولة بأصابعها.

— قلت إنني لن أشارك في قتل الأسرى.

— ولن يُقتلوا قبل وصوله.

رفعت عينيها إليه.

— وبعد وصوله؟

أجاب فاريك:

— إذا سقط سايرن، فلن تعود للأسرى قيمة. يمكن إطلاقهم.

لم يعجبها الجواب، لكنها لم تعترض.

أشار الملك إلى المجرى الجاف المرسوم فوق الخريطة.

— نضع الرماة هنا وهنا. تُغلق الصخور طريق العودة بعد دخول آخر فارس. لا أحد يطلق سهمًا على سايرن ما دمت تقاتلينه.

قال أحد القادة:

— وإذا حاول الفرسان الوصول إليك؟
— اقتلوهم.
سأل فاريك:
— هل أنت مستعدة؟
قبضت نيرفا على سيفها.
— كنت مستعدة منذ انسحبت من أمامه.
غادر القادة القاعة، وبقي رسول زافرين واقفًا قرب الباب.
قال فاريك:
— ما زلت لم تخبرني باسم الرجل الذي سيقوده إلى الممر.
— ستعرفه عندما يحين الوقت.
— أنت داخل حصني، وجنودي هم الذين سيقاتلون. لا تختبر صبري.
لم يتغير وجه الرسول.
— لو عرفته الآن، لتغيرت نظرتك إليه عندما تراه. قد يلاحظ سايرن ذلك، فتخسر الخطة قبل أن تبدأ.
اقترب فاريك منه.
— وإذا لم يظهر؟
— سيظهر.
— نثق به كثيرًا.
— لا أثق به. أثق بالكراهية التي أبقته حيًا كل هذه السنوات.
وفي الجزيرة، وضع أوران خريطة قديمة أمام نائل.
كانت قطعة صغيرة من الجلد، مرسومًا فوقها جبلان يتوسطهما فراغ أبيض. لم يظهر طريق أو نهر أو قرية بين الجبلين.
قال أوران:
— اعبر إلى الجهة الأخرى.
نظر نائل إلى الخريطة، ثم إلى الشيخ.
— أعبر أين؟ لا يوجد طريق.
— لو كان الطريق مرسومًا لما احتجت إليك.
وضع نائل أصابعه فوق الجلد وأغلق عينيه.
انتظر أن يشعر بالاهتزاز الذي أحسه في تدريباته السابقة، لكن الخريطة بقيت ساكنة.

حرك يده بين الجبلين، فرأى خطًا خافتًا يظهر للحظة ثم يختفي.
قال:
— هناك ممر.
— هل أنت متأكد؟
— رأيته.
— رؤية الطريق لا تعني أنه يقود إلى المكان الذي تريده.
عاد الخط إلى الظهور. كان ضيقًا ومتعرجًا، يمتد بين الجبلين حتى يصل إلى الجهة الأخرى.
ابتسم نائل.
— وصل.
رفع أوران طرف الخريطة، فانسكب الرمل المخفي تحتها. تمدد فوق الجلد، وغطى الخط حتى اختفى تمامًا.
قال نائل:
— لقد أفسدت الخريطة.
— بل أريتك ما يحدث عندما نثق بطريق لأنه ظهر أمامك في اللحظة التي احتجت إليه فيها.
رفع نائل الخريطة ونفض الرمل عنها.
— وكيف أعرف الطريق الصحيح؟
نظر أوران إليه طويلًا.
— لا تسأل الطريق إلى أين يقودك فقط. اسأل أيضًا من الذي فتحه أمامك.
وبعيدًا عن الجزيرة، كانت رايات رهفان تنسحب من الحصن الجنوبي الأول.
رآها كشافة قاسران عند الفجر.
خرج الجنود في صفوف غير منتظمة، يحمل بعضهم جرحاهم، بينما جُرت خلفهم عربات فارغة. ارتفع الدخان من داخل الحصن، وسقطت إحدى راياتهم فوق الطريق ولم يعد أحد لاستعادتها.
وصل الخبر إلى سايرن قبل منتصف النهار.
كان واقفًا في ساحة حصن المناجم، يراقب الحدادين وهم يصلحون الدروع والأسلحة. لم تختفِ آثار التعب من وجهه، وظل كتفه مربوطًا تحت درعه بقطعة قماش عريضة.
قال قائد الكشافة:
— انسحبوا من الحصن الأول، وبدأوا إخلاء الثاني.
سأله سايرن:

— كم بقي من رجالهم؟
— لم نقترب بما يكفي لعدهم، لكن الطريق كان مزدحمًا. يبدو أنهم يتحركون نحو الحدود.
كان نائبه واقفًا إلى جانبه.
قال:
— قد يكون نقص المؤن أجبرهم على الانسحاب.
نظر سايرن إلى الشمال.
— فاريك لا ينسحب بهذه السهولة.
— وربما لم يعد يملك خيارًا.
دخل ضابط آخر إلى الساحة مسرعًا.
— سيدي، عثرت دورية الجسر على رجل من جنودنا.
التفت سايرن إليه.
— أين؟
— قرب الحصن الذي أخلته رهفان. كان مصابًا، لكنه ما زال حيًا.
أُدخل الجندي محمولًا فوق درع. كانت ثيابه ممزقة، ويداه تحملان آثار القيود. وُضع أمام سايرن، فحاول النهوض.
قال سايرن:
— ابقَ مكانك.
رفع الجندي رأسه بصعوبة.
— الأسرى... سينقلونهم الليلة.
انحنى النائب نحوه.
— أي أسرى؟
— رجالنا الذين أُخذوا عند الهضبة... ومعهم جنود من حرس الممر الغربي.
سأله سايرن:
— كيف هربت؟
— عندما غادروا الحصن، وضعونا في عربات. انقلبت إحدى العربات عند المنحدر، فهربت بين الصخور.
— إلى أين يأخذونهم؟
تردد الجندي، ثم قال:
— سمعت الحراس يتحدثون عن مجرى النهر الجاف... وعن ممر المناجم القديم.

نظر سايرن إلى نائبه.
كان الممر بعيدًا عن طريق انسحاب رهفان، ولا يؤدي إلى حصن أو مدينة.
قال النائب:
— لا سبب لنقل الأسرى عبر ذلك الطريق.
أجاب الجندي:
— سيقتلونهم هناك. قال أحد الحراس إنهم لا يريدون إبطاء الانسحاب.
اقترب المعالجون وحملوا الجندي إلى الداخل.
بقي سايرن صامتًا.
قال أحد القادة:
— أرسل قوة كبيرة. إذا كان الخبر صحيحًا ننقذ رجالنا، وإذا كان كمينًا نسحقه.
هز سايرن رأسه.
— تحريك قوة كبيرة سيجعلهم يعرفون أننا وصلنا إليهم. وإن كانوا يستعدون للهرب، فسيقتلون الأسرى ويتابعون انسحابهم.
قال النائب:
— نرسل الكشافة أولًا.
— لن يعودوا قبل الليل.
وضع سايرن يده فوق الخريطة الصغيرة التي حملها قائد الدورية.
— لا يعجبني هذا الطريق.
قال النائب:
— ولا يعجبني توقيت ظهور الجندي.
قبل أن يجيبه سايرن، دخل أحد أفراد حرس الممرات يحمل قطعة قماش مطوية.
— وصلت هذه من وحدتنا القريبة من الحصن الثاني.
فتح سايرن القطعة.
كان داخلها شريط جلدي صغير يحمل علامة يعرفها قادة قاسران. استُخدمت تلك العلامة لتأكيد الأخبار التي يرسلها الكشافة عندما لا يستطيعون العودة بأنفسهم.
قرأ الكلمات المكتوبة فوق الجلد.
«نحو أربعين أسيرًا. يتحركون بعد الغروب. الحراسة قليلة. الجيش الرئيسي يواصل الانسحاب شمالًا.»
تفحص النائب العلامة، ثم قال:

— الختم صحيح.
قال أحد القادة:
— قد تكون فرصتنا الوحيدة.
ظل سايرن ينظر إلى الرسالة.
ثم طواها.
— سأذهب مع ثلاثين فارسًا.
قال القائد:
— ثلاثون فقط؟
— ثلاثون يستطيعون الوصول قبل منتصف الليل. أما الجيش فسيحتاج إلى ساعات، وستراه عيون رهفان منذ خروجه من الحصن.
التفت سايرن إلى نائبه.
— تبقى هنا. إذا لم نعد قبل الفجر، تُغلق الأبواب وتمنع أي قوة من الخروج بحثًا عنا.
حدق النائب فيه.
— لن أبقى.
— هذا أمر.
— وهذا خطأ.
ساد الصمت حولهما.
اقترب النائب حتى أصبح أمام سايرن مباشرة.
— قاتلت إلى جانبك منذ خرجنا من دمهار. عبرنا الوادي، واستعدنا الحصون، ووقفنا أمام ذلك الوحش معًا. لن أتركك تدخل طريقًا تشك فيه بينما أبقى خلف جدار.
— الجيش يحتاج إلى قائد إذا كان هذا كمينًا.
— والفرسان الذين سيذهبون معك يحتاجون إلى رجل يقودهم إذا بدأت أنت قتال نيرفا.
قال سايرن:
— لا نعرف إن كانت نيرفا هناك.
— إذا كان كمينًا، فستكون هناك.
تبادلا النظرات لحظات.
ثم قال النائب:
— اختر أفضل ثلاثين فارسًا، ودعني أذهب معك. إذا حدث شيء، أعيد من يبقى منهم إلى الحصن.

قال أحد القادة:
— أستطيع مرافقة سايرن بدلًا منك.
التفت النائب إليه.
— تحتاج الكتائب إليك هنا.
ثم أعاد بصره إلى سايرن.
— رافقتك في المعارك التي عرفنا نهايتها. لن أتركك في أول طريق لا نعرف ما ينتظرك فيه.
ظهرت ابتسامة قصيرة فوق وجه سايرن.
— لن تغير رأيك؟
— تعلم أنني لا أفعل.
مد سايرن ساعده، فأمسك النائب به.
— إذن اختر الرجال.
قبل الغروب، كان اثنان وثلاثون فارسًا يغادرون حصن المناجم.
اختار النائب أفضل من بقي من حرس سايرن: رجالًا قاتلوا معه سنوات، وعرفوا إشاراته دون أن يسمعوا أوامره. لم يحملوا رايات، وغطوا دروعهم بعباءات داكنة حتى لا يلمع الحديد تحت ضوء القمر.
قاد سايرن المجموعة، وسار نائبه إلى جواره.
عندما ابتعدوا عن الحصن، قال النائب:
— كتفك لا يزال يؤلمك.
— سيؤلمني أكثر إذا عدنا من دون الأسرى.
— إن رأيت شيئًا غير طبيعي، نعود.
نظر إليه سايرن.
— منذ متى تقنعني بالعودة من معركة؟
— منذ أصبحت أنا الرجل العاقل بيننا.
ضحك سايرن للمرة الأولى منذ أيام.
— إذن انتهت قاسران.
وصلا إلى المجرى الجاف بعد منتصف الليل.
امتدت أمامهم أرض منخفضة يحيط بها جداران من الصخر. كان الممر ضيقًا بما يكفي لإجبار الفرسان على السير في صفين، وانتشرت فوق أرضه حجارة بيضاء وبقايا أخشاب تركها عمال المناجم قبل سنوات.

رفع سايرن قبضته، فتوقفت الخيول.
لم يسمعوا شيئًا سوى الريح.
قال أحد الفرسان:
— لا أثر للعربات.
نزل النائب عن حصانه وفحص الأرض.
مرر يده فوق التراب، ثم رفعها.
— عبرت من هنا خيول كثيرة قبل ساعات.
أشار سايرن إلى أربعة فرسان.
— تقدموا حتى المنعطف، ولا تبتعدوا عن أنظارنا.
تحرك الرجال ببطء.
وبعد لحظات، ظهر أحدهم من خلف الصخور ولوح بيده.
— وجدناهم!
دخلت المجموعة إلى عمق الممر.
خلف المنعطف، وجدوا الأسرى مقيدين قرب جدار صخري. كان بعضهم مصابًا، وجلس آخرون فوق الأرض وقد غُطيت رؤوسهم بأكياس من القماش.
ترجل سايرن وتقدم إليهم.
قال أحد الأسرى:
— سيدي... إنها خدعة.
سمع سايرن صوت الصخور قبل أن يكمل الرجل جملته.
اهتز الممر.
انهارت كتلة هائلة من أعلى الجدار خلف الفرسان، وارتطمت بالأرض حتى ارتفع الغبار وأغلق طريق العودة.
صهلت الخيول وتراجعت.
وفي اللحظة نفسها، اشتعلت المشاعل فوق المرتفعات.
ظهر عشرات الرماة على جانبي الممر.
صرخ النائب:
— الدروع!
تجمع فرسان قاسران حول سايرن والأسرى، ورفعوا دروعهم قبل أن تنهمر السهام.
اصطدمت النصال بالحديد والصخور. سقط حصان، ثم سقط فارس أصابه سهم في عنقه.

أمسك النائب بدرع أحد القتلى ووقف أمام سايرن، فتلقّى سهمين فوقه.
قال سايرن:
— قلت لك إنه كمين.
أجاب النائب وهو يدفع السهام بسيفه:
— ويمكنك لومي بعد أن نخرج منه.
اندفع جنود رهفان من خلف المنعطف الآخر.
أمر سايرن نصف رجاله بحماية الأسرى، ثم هجم بالباقين.
اصطدمت السيوف داخل الممر الضيق.
قاتل النائب إلى جوار سايرن. صد رمحًا كان متجهًا إلى جنبه، وضرب صاحبه في وجهه، ثم أمسك فارسًا آخر من درعه وأسقطه تحت أقدام الخيول.
صرخ في رجال قاسران:
— اثبتوا! لا تسمحوا لهم بتقسيم الصف!
تقدم سايرن بين الجنود. كان الحديد قليلًا داخل الصخور، ولم تستجب الأرض له كما استجابت في الوادي. شعر بشيء بعيد تحت التراب، لكنه كان أضعف من أن يحوله إلى سلاح.
اعتمد على سيفه.
ضرب جنديًا من رهفان، ثم دار ليتجنب فأسًا نزلت نحو كتفه المصاب. اخترق الألم ذراعه، لكنه أمسك بصاحب الفأس ودفعه نحو الجدار.
وصل النائب إليه في اللحظة نفسها وقتل الرجل.
قال:
— كتفك؟
— ما زالت في مكانها.
تراجع جنود رهفان فجأة.
توقفت السهام.
وانفتح صف الجنود عند نهاية الممر.
دخلت نيرفا.
كانت ترتدي درعها الأسود، وقد انسدل فوق كتفيها جلد الذئب. حملت سيفها الطويل بيد واحدة، ومشت بين الرجال حتى وقفت أمام سايرن.
نظرت إلى القتلى، ثم إلى الصخور التي أغلقت الطريق.
قال سايرن:

— احتجتِ إلى جيش وممر مغلق هذه المرة.
أجابته:
— احتجتُ فقط إلى مكان لا يصل فيه أمر الملك بالانسحاب.
تقدم النائب خطوة، فرفعت نيرفا سيفها نحوه.
— ابقَ بعيدًا. لم آتِ من أجلك.
قال سايرن لنائبه:
— حرر الأسرى. وابحث عن طريق للخروج.
— لن أتركك معها.
— هذا أمر.
تردد النائب، ثم أومأ.
— لا تتأخر.
ابتعد نحو الأسرى، بينما انتشر فرسان قاسران بين الصخور لحمايتهم.
قالت نيرفا بصوت مرتفع:
— لا يطلق أحد سهمًا. من يتدخل بيني وبينه أقتله بنفسي.
أنزل رماة رهفان أقواسهم.
تحرك سايرن نحو منتصف الممر.
قالت نيرفا:
— أخبرتك أنك لن تفلت في المرة القادمة.
رفع سيفه.
— وأنا انتظرت حتى تعودي لتقوليها.
اندفعت نحوه.
اصطدم سيفاهما، وانتشر الصوت بين الجدران كأنه ضربة فوق جرس هائل.
هاجمت نيرفا بسرعة. وجهت ضربة نحو عنقه، ثم غيرت مسارها نحو كتفه المصاب. صد سايرن الضربة، لكن الألم جعله يتراجع خطوة.
رأت ذلك.
ابتسمت، ثم هاجمت الكتف نفسه.
تفادى سيفها، وضربها بمقبض سيفه في جانب وجهها. تراجعت، ومسحت الدم عن شفتها.
— ما زلت قويًا.
— وأنت ما زلت تتحدثين كثيرًا.

اشتد القتال.
تحركا فوق الأرض الصخرية، وتبادلا الضربات بين جثث الجنود والأسلحة المكسورة. كانت نيرفا أسرع، لكن سايرن كان أثقل قوة. كلما اصطدم سيفاهما، اهتز ذراعاها واضطرت إلى تغيير وقفتها.
حاولت الدوران حوله، فسبقها وأصاب جانب درعها. انكسرت إحدى صفائحه وسقطت فوق الأرض.
هوت بسيفها نحو ساقه، فقفز إلى الخلف، ثم دفعها بكتفه.
سقطت فوق ركبة واحدة.
رفع سايرن سيفه، لكنها تدحرجت بعيدًا قبل أن يضرب النصل الأرض.
نهضت وهي تلهث.
قالت:
— ظننت أن جرحك سيجعلك أبطأ.
— جعلك تعتمدين عليه أكثر مما يجب.
هاجمها.
تراجعت نيرفا تحت ضرباته. صدت الأولى والثانية، وانحنت تحت الثالثة. وعندما حاولت الابتعاد، أمسك سايرن بطرف جلد الذئب المعلق فوق كتفها وجذبها نحوه.
اصطدم رأسها بصدره.
أفلت سيفها من يدها وسقط بعيدًا.
رفع سايرن نصله نحو عنقها.
تحرك جنود رهفان، فصرخت نيرفا:
— لا أحد يتدخل!
توقفوا.
وقفت أمام سايرن دون سلاح، والدم ينزل من جبينها.
قالت:
— افعلها.
نظر سايرن إليها.
— موتك لن يفتح الطريق.
— لكنه سينهي ما بدأناه.
قبل أن يجيب، سمع وقع خطوات مسرعة خلفه.

جاءه صوت نائبه:
— سايرن!
التفت سايرن قليلًا.
كان النائب يقترب، وسيفه مغطى بالدم.
قال:
— وجدت طريقًا بين الصخور. يمكننا إخراج الأسرى، لكن جنودًا يقتربون من الجهة الأخرى.
أخفض سايرن سيفه عن عنق نيرفا.
— خذ الرجال واخرجوا. سألحق بكم.
اقترب النائب أكثر.
— لن نخرج من دونك.
قال سايرن دون أن ينظر إليه:
— أخرجهم. هذا أمر.
توقفت نيرفا عن التنفس للحظة.
تغير شيء في عيني النائب.
لم تره من قبل، ولم يفهمه سايرن إلا عندما شعر بحد السيف يدخل جسده من الخلف.
تجمد سايرن.
خرج طرف النصل من أسفل صدره.
سقط سيفه من يده، وارتطم بالصخر.
ساد الصمت داخل الممر.
حتى جنود رهفان ظلوا في أماكنهم.
نظرت نيرفا إلى النائب غير مصدقة.
قالت:
— ماذا فعلت؟
كان النائب واقفًا خلف سايرن، ممسكًا بمقبض السيف بكلتا يديه.
حاول سايرن الالتفات إليه، لكن ساقيه لم تعودا تحملانه.
قال بصوت متقطع:
— أنت...
سحب النائب السيف من جسده.



سقط سايرن فوق ركبتيه.

اندفع أحد فرسان قاسران نحوه، فأصابته سهام رهفان قبل أن يصل. عاد القتال عند طرف الممر، وهاجم الجنود الفرسان المتبقين.

أما نيرفا، فلم تتحرك.

ظلت تنظر إلى الرجل الذي طعن خصمها.

رفع سايرن رأسه بصعوبة.

كان الدم ينتشر فوق درعه وتحت ركبتيه.

قال:

— لماذا؟

وقف النائب أمامه.

لم يعد في وجهه شيء من الرجل الذي قاتل إلى جانبه قبل لحظات.

أدخل يده تحت درعه وأخرج العلامة التي حملها سنوات بصفته نائب قائد جيش قاسران.

نظر إليها لحظة، ثم رماها أمام سايرن.

قال:

— لأن هذا الاسم لم يكن اسمي.

حدق سايرن فيه، كأنه لم يفهم كلماته.

انحنى الرجل نحوه.

— أنا إيردان آل فالدار.

تغير وجه سايرن.

توقف كل شيء حوله للحظة: أصوات السيوف، وصراخ الرجال، ووقع الأقدام فوق الصخور.

قال بصوت خافت:

— آل فالدار ماتوا.

— هذا ما كتبه أبوك في سجلاته.

رفع إيردان سيفه الملطخ بالدم.

— لكنه لم يجد الطفل الذي أخرجته أمه من البيت قبل أن يحرق جنوده الأبواب.

قال سايرن:

— عائلتك خانت قاسران.

اشتدت ملامح إيردان.

— عائلتي خدمت قاسران قبل أن تحمل أسرتك تاجها. نحن من حمينا الممرات الشمالية، ونحن من أوقف الجيوش عند أبوابها. وعندما احتاج أبوك إلى عدو يثبت به سلطته، سمّانا خونة وأبادنا.

حاول سايرن الوصول إلى سيفه، لكن يده سقطت فوق الأرض.

قال:

— كنت أخي.

ارتجفت عينا إيردان لحظة، ثم اختفى كل أثر للتردد.

— وأبوك قتل إخوتي.

اقترب أكثر.

— عشت في قصوركم باسم ليس اسمي. ارتديت دروعكم، وحملت رايتكم، وقاتلت إلى جانبك حتى وثقت بي أكثر مما تثق بنفسك. كل خطوة خطوتها في جيش قاسران كانت تقودني إلى هذه اللحظة.

نظر سايرن إلى الفرسان الذين اختارهم إيردان بنفسه.

كان معظمهم قد سقط، بينما حاصر جنود رهفان من بقي منهم قرب الأسرى.

قال سايرن:

— أرسلتهم إلى الموت.
— أرسلت خيرة رجال أبيك إلى المكان الذي أرسل فيه خيرة رجال عائلتي.
قبض سايرن أصابعه فوق التراب.
اهتزت قطعة حديد مكسورة قربه، ثم ارتفعت قليلًا عن الأرض.
لاحظ إيردان حركتها.
داس فوق يد سايرن، وغرس سيفه مرة أخرى في جنبه.
سقطت قطعة الحديد.
قال إيردان:
— لا حديد هنا يكفي لإنقاذك.
صرخت نيرفا:
— ابتعد عنه!
التفت إليها.
كانت قد استعادت سيفها، ووجهته نحو صدره.
قالت:
— من أنت؟ ولمن تعمل؟
— أخبرتك من أكون.
— سألتك لمن تعمل.
— لا أعمل لفاريك، ولا لزافرين، ولا لك.
أشار بسيفه إلى سايرن.
— انتظرت هذه اللحظة قبل أن يعرف أي واحد منكم أن هذه الحرب ستبدأ.
اقتربت نيرفا منه.
— كان خصمي.
— كان قاتل عائلتي.
— والدُه قتل عائلتك، لا هو.
نظر إيردان إليها ببرود.
— الأب يزرع، والابن يحصد.
رفعت نيرفا سيفها، لكن قائدًا من رهفان اندفع نحوها.
— وصل أمر الملك بحماية الرجل الذي يكشف نفسه داخل الممر.
التفتت إليه بغضب.

— هل كان فاريك يعرف؟
— لم يعرف اسمه. لكنه أمرنا بألا نقتله.
نظرت نيرفا نحو سايرن.
كان ما يزال فوق ركبتيه، ورأسه منحنيًا نحو الأرض. امتد الدم تحت جسده حتى بلغ سيفه الساقط.
اقتربت منه.
رفع عينيه إليها للمرة الأخيرة.
لم يكن فيهما خوف، بل غضب ثقيل لم يعد جسده قادرًا على حمله.
قالت نيرفا بصوت لم يسمعه سواهما:
— لم أردها هكذا.
حاول أن يقول شيئًا، لكن الدم خرج من فمه.
ترنح، ثم سقط فوق جانبه.
بقيت نيرفا واقفة أمامه، وسيفها في يدها.
خلفها، انتهت مقاومة فرسان قاسران. سقط آخرهم قرب الأسرى، وامتلأ الممر بأجساد الرجال الذين اختيروا لأنهم الأفضل في جيشهم.
اقترب إيردان من سايرن، وانحنى وانتزع شارة الثور الحديدي من درعه.
وقف وهو يحملها بين أصابعه.
قال قائد رهفان:
— ماذا نفعل بجثته؟
أجاب إيردان:
— اتركوه هنا.
قالت نيرفا:
— سيبحث جيشه عنه.
— دعيهم يبحثون. سيجدون سيفه ودمه وجثث أفضل فرسانه. وما لن يجدوه، ستخبرهم به أنت.
استدارت نحوه.
— لن أكون رسول خيانتك.
— لست بحاجة إلى ذلك. عند شروق الشمس، سيعرف كل جندي في قاسران أن قائده دخل هذا الممر ولم يخرج.
مرت نيرفا بجانبه دون أن تنظر إليه.

أمرت جنودها بإطلاق الأسرى، ثم غادرت الممر وهي تمسح الدم عن سيفها.
خرج إيردان بعدها حاملًا شارة الثور الحديدي.
وبقي سايرن حيث سقط، بين جثث فرسانه والأسلحة المكسورة، بينما انسحبت آخر مشاعل رهفان من الممر.
وعندما أشرقت الشمس فوق الصخور، حمل الرجال العائدون من الكمين خبرًا واحدًا إلى الحصون والجيوش:
مات سايرن.
وصل الأسرى إلى حصن المناجم عند الظهيرة.
كانوا يسيرون ببطء، بعضهم يتكئ على بعض، وثيابهم تحمل غبار الممر الجاف. فتح الحراس البوابة حين رأوا وجوه رفاقهم، لكنهم لم يجدوا بين العائدين سايرن ولا فرسانه.
نزل قائد الحصن إلى الساحة قبل أن يدخل آخر أسير.
— أين القائد؟
لم يجبه أحد.
تقدم رجل كانت القيود قد جرحت معصميه. نظر إلى راية الثور الحديدي المرفوعة فوق السور، ثم قال:
— دخلنا الممر ليلًا. جاء لينقذنا.
— أعرف. أين هو الآن؟
ابتلع الرجل ريقه.
— نائبه طعنه من الخلف.
تراجع أحد الجنود خطوة، كأن الكلمات دفعته.
قال قائد الحصن:
— ماذا تقول؟
— رأيته يسقط. رأيناهم يقتلون الفرسان واحدًا بعد الآخر.
أحاط بهم الرجال. سألوهم عن الطريق، وعن عدد جنود رهفان، وعن نيرفا. كرر الأسير ما حدث، وكلما بلغ لحظة الطعنة انخفض صوته. لم يستطع تحديد الكلمات التي تبادلها الرجلان وسط القتال، لكنه كان متأكدًا ممن أمسك بالسيف.
مع حلول المساء، عرف كل من في الحصن أن سايرن مات، وأن الرجل الذي خرج إلى جواره هو من طعنه.
أمر أحد القادة بإرسال الفرسان إلى الممر لاستعادة جثمانه.
اعترض آخر:

— هذا ما يريدونه. سيقتلون من نرسله كما قتلوا من سبقهم.
— أتريد تركه بين الصخور؟
— أريد ألا نترك بقية الجيش هناك أيضًا.
ارتفعت الأصوات داخل القاعة. طالب ضباط بالهجوم على الحصن الشرقي، وأراد آخرون التراجع إلى دمهار. لم تكن المشكلة في قلة الرجال؛ بل في أن كل كتيبة انتظرت أمرًا من قائد لم يعد موجودًا، وكل قائد خشي أن يتحمل وحده مسؤولية الأمر التالي.
في الفجر، أنزل الحراس راية الثور الحديدي إلى نصف ارتفاعها.
وعلى المرتفعات المقابلة، رأى كشافة رهفان ذلك.
لم ينتظر فاريك يومًا آخر.
خرجت قواته من الحصن الشرقي وقد حملت ما وصلها من مؤن زافرين. اصطدمت بمواقع قاسران التي كانت تتوقع انسحابها، فوجدتها قليلة الحراسة. سقط البرج الأول قبل الظهر، ثم انقطع الطريق بينه وبين حصن المناجم.
في اليوم الثاني، فُتح ممر الشمال أمام جيش رهفان.
لم تكن جميع البوابات تُحطم بالقوة. بعض الحاميات انسحبت بعدما انقطعت عنها الأوامر، وبعضها صمد حتى نفد ماؤه، وأخرى استيقظ رجالها فوجدوا العدو خلفها، قادمًا من طرق لم يعرفوا أنها تصل إلى حصونهم.
كان إيردان يسير مع قادة رهفان حين احتاجوا إلى معرفة الطريق الذي تسلكه عربات الإمداد، أو الموضع الذي لا يمكن للأبراج أن ترى منه المنحدر. عرف الجنود الذين ظلوا يدافعون، وعرف كذلك الحصون التي لن تحتمل حصارًا طويلًا.
في مساء اليوم الثالث، وقف فاريك أمام خريطة قاسران وقد كثرت فوقها علامات جيشه.
قال أحد قادته:
— لو عرفنا هذه الطرق منذ بداية الحرب، لوصلنا إلى دمهار قبل الشتاء.
كان إيردان واقفًا عند النافذة. لم يلتفت.
— سايرن كان يعرف كيف يغلقها.
نظر فاريك إليه.
— والآن؟
— لم يعد هناك من يعرف متى أفتحها.
لم يطمئن الملك إلى الجواب. كان الرجل نافعًا، لكن شارة الثور الحديدي التي حملها من الممر ظلت تذكره بما فعله ليصل إليه.
قال:

— أعطنا الطريق إلى الجسر الغربي.
أشار إيردان إلى موضع فوق الخريطة.
— إذا وصلتم إليه قبل أن تجمع الملكة قواتها، لن تستطيع نقل جيش من شرق المملكة إلى غربها.
قال فاريك:
— وعندما نصل؟
— تذكر وعدك بشأن آل فالدار.
دخلت نيرفا القاعة في تلك اللحظة. سمعت الاسم، فتوقفت عند الباب.
قال فاريك:
— سنناقش مطالبك بعد أن تنتهي الحرب.
أجابه إيردان:
— هذا ما يقوله الملوك عادةً حين يظنون أن الحرب ستنتهي لصالحهم.
تحرك أحد الحراس، لكن فاريك أوقفه بإشارة.
أما نيرفا، فاقتربت من الطاولة ونظرت إلى علامات رهفان التي غطت الشرق.
قالت لإيردان:
— كل حصن يسقط بهذه المعرفة يحمل أثر طعنتك.
— الحصون لا تهتم بكيفية سقوطها.
— الرجال الذين يموتون فيها يهتمون.
واجهها.
— رفضتِ أن يطلق الرماة سهمًا على سايرن، ثم وقفتِ تشاهدينه يسقط.
اشتدت قبضتها على حافة الطاولة.
— لم أعرف ما ستفعله.
— وأنا لم أطلب منك أن تعرفي.
مدت يدها إلى سيفها، لكن فاريك وضع كفه فوق الخريطة بينهما.
— اختلفا بعد أن نثبت أقدامنا في الأرض التي أخذناها.
نظرت نيرفا إلى الملك.
— الأرض التي أخذناها لن تجعلني أسمي ما حدث في الممر انتصارًا.
ثم خرجت.
ظل فاريك يتابع العلامات فوق الخريطة. امتدت قواته على مسافة لم يجرؤ على تخيلها قبل أسبوع، لكنه عرف أن كل خطوة تقربه من دمهار تقرب جيشه أيضًا من حرب أطول.

وفي دمهار، دخل الرسول قاعة العرش وعلى عباءته غبار الطريق.
كان المجلس منعقدًا حين وصل. أفسح له الحراس المجال، فتقدم حتى وقف أمام الملكة ميرافا.
لم يرفع عينيه إليها.
قالت:
— تكلم.
— سقط حصن المناجم.
تحركت الأيدي فوق الطاولة.
— والجيش؟ سألت.
— انسحب من بقي منه نحو الجسر الغربي. انقطعت الصلة بثلاث فرق شرق النهر.
توقفت ميرافا لحظة، ثم قالت:
— وأخي؟
لم يجب الرسول.
لم تحتج إلى جواب ثانٍ، لكنها انتظرته رغم ذلك.
— يقول من عادوا من الأسرى إن نائبه طعنه في ممر المناجم. لم يعد أحد من فرسانه.
أدار أحد أعضاء المجلس وجهه بعيدًا. أما ميرافا فبقيت تنظر إلى الرسول.
— هل رأيت جثمانه؟
— لا، يا مولاتي.
قال مستشار يقف قربها:
— إذن لا نستطيع الجزم—
رفعت الملكة يدها فصمت.
سألت الرسول:
— ما الذي رأته الحاميات؟
— رأوا الراية منكسّة، ثم جاءهم جيش رهفان. بعضهم لم يعلم بما حدث إلا بعد أن بدأت المعركة.
سارت ميرافا إلى الخريطة الكبيرة المعلقة خلف المجلس.
كانت الرسل قد سبقوا الرجل بأخبار متفرقة. علامة عند الحصن الشرقي، وأخرى عند معبر النهر، وثالثة عند المدن القريبة من طريق المناجم. أخذت قطعة الفحم الموضوعة قرب الخريطة ووصلت العلامات بخط واحد.

جاوز الخط وسط قاسران.

قال المستشار:

— إذا ثبت جيش رهفان عند الجسر، ستكون أكثر من نصف أرض المملكة تحت احتلاله.

نظرت ميرافا إلى الخط الذي رسمته.

— لقد تجاوزنا «إذا». أخبرني أي الحصون ما زال يقاتل.

بدأ الرجال يسمّون المواقع الباقية.

أمرت بإخلاء القرى الواقعة على طريق تقدم رهفان، ونقل مخازن الحبوب إلى ما وراء الجسر، وجمع القوات التي تراجعت دون أن تفقد قادتها. لم تسمح بتعليق رايات الحداد على أبواب العاصمة.

قال أحد أعضاء المجلس:

— الناس سمعوا الخبر. سيظنون أننا نخفي عنهم موت قائد الجيش.

أجابت:

— لا تخفوه. قولوا ما نعرفه: دخل سايرن الممر ولم يعد. وقولوا إن الجسر لن يُترك للعدو.

وحين خرج المجلس، بقيت وحدها قرب الخريطة.

وضعت إصبعها فوق حصن المناجم، المكان الذي أرسلت إليه أخاها آخر مرة وهو يقود جيشًا. لم تبكِ في القاعة. لكن يدها ظلت فوق العلامة زمنًا طويلًا، إلى أن انطفأ آخر ضوء دخل من النافذة.

في اليوم السادس بعد الكمين، ارتفعت رايات رهفان فوق معظم الحصون الشرقية ومدن السهول الشمالية. قطعت دورياته طرقًا كانت تصل بين أطراف قاسران، وأصبح المسافر يحتاج إلى إذن من جنود رهفان ليعبر أرضًا كان أهلها يعبرونها بلا سؤال.

أكثر من نصف أرض قاسران وقع تحت احتلال رهفان.

ومع ذلك، لم يهدأ الممر الجاف.

كانت الريح تمر بين صخوره وتحرك أطراف العباءات التي تُركت مع القتلى. أُخذت الأسلحة النافعة، وسُحبت بعض الجثث من وسط الطريق، لكن رجالًا ظلوا حيث سقطوا. لم يدخل جنود قاسران إليه، ولم يرغب جنود رهفان في البقاء فيه بعد انتهاء القتال.



عند فجر اليوم التالي للكمين، كان قروي من قرية صغيرة خلف التلال قد دخل الممر بحثًا عن ابنه.

حمل حبلًا وقارورة ماء، وتوقف عند كل جسد يقترب من عمر الفتى. وجد ابنه قرب الجدار الشمالي. عرفه من قطعة خيط أحمر كانت أمه قد ربطتها حول معصمه قبل خروجه إلى الحرب.

جلس عنده طويلًا.

وعندما نهض ليبحث عن حجر يحدد به الموضع كي يعود إليه، سمع صوتًا خافتًا تحت كومة من الدروع المكسورة.

ظنها ريحًا محبوسة بين الصخور.

ثم سمعها مرة ثانية.

أزاح درعًا، ثم جسد رجل سقط فوقه، فوجد مصابًا تغطي الدماء والتراب وجهه. كان درعه منزوع الشارة، وسيفه غير موجود. لمس القروي عنقه، وأبقى أصابعه هناك حتى أحس بضربة ضعيفة.

نظر إلى ابنه، ثم إلى الغريب.

قال بصوت أجش:
— لا أستطيع حملكما معًا.
لم يجبه أحد.
خرج من الممر وعاد بعربة صغيرة كان قد تركها خلف التلال. لف جسد ابنه بعباءته ووضعه في مقدمة العربة، ثم حمل الجريح إلى جواره وغطاهما بالقش. لم يعرف إن كان المصاب سيبقى حيًا حتى يبلغ القرية.
دفن ابنه عند المساء.
ولم يخبر أحدًا بالرجل الذي أخفاه في مخزن بيته.
رأت ابنته الجروح حين خلعت عنه ما بقي من الدرع.
— هذا الرجل لن يعيش حتى الصباح، قالت.
— قالوا الشيء نفسه عن جارنا حين سقط من الجرف.
— جارنا لم يُطعن مرتين.
غلت الماء ونظفت الجروح بما تملك. خيطت الجرح الذي استطاعت الوصول إليه، وربطت غيره بضمادات نظيفة. حين ارتفعت حرارة الغريب في الليل، جلست قربه تبدل القماش المبلل على جبينه.
لم يفتح عينيه.
في اليوم الثاني، مرت دورية من رهفان بالقرية. بحثت عن جنود قاسران الفارين، وسألت إن كان أحد قد دخل الممر لأخذ السلاح من القتلى.
قال القروي إنه ذهب ليأتي بابنه.
نظر قائد الدورية إلى التراب الجديد فوق القبر خلف البيت، ولم يسأله شيئًا آخر.
انتظر الرجل حتى ابتعد وقع الخيل، ثم فتح باب المخزن. كان الجريح في مكانه، وصدره يرتفع بصعوبة تحت الغطاء.
في اليوم الثالث، حاولت الابنة إعطاءه الماء قطرة بعد أخرى. ابتلع قليلًا، ثم عاد إلى سكونه.
وفي اليوم الرابع، وصلت إلى القرية أخبار سقوط الجسر الغربي. قالت امرأة جاءت تطلب الدقيق إن رهفان سيطرت على أكثر من نصف قاسران، وإن العاصمة تستعد لحصار طويل.
سألت الابنة أباها تلك الليلة:
— من تظنه يكون؟
كان القروي يصلح باب المخزن المخلوع.
— أحد الذين تُركوا في الممر.
— جنود رهفان وجنود قاسران كانوا هناك معًا.

— عندما يصحو نسأله.
نظرت إلى الرجل الممدد قرب الجدار.
— وإن لم يصحُ؟
توقف الأب عن العمل.
— ندفنه باسم لا نعرفه. فعلنا ما نستطيع.
في اليوم الخامس، انخفضت حرارته قليلًا، ثم عادت أشد في المساء. ظلت الابنة تبلل شفتيه بالماء، بينما كان أبوها يفتح الباب بين حين وآخر ليتأكد من أن الدوريات لم تعد.
في اليوم السادس، تحدث الغريب وهو فاقد الوعي. كانت الكلمات متكسرة، لا يُفهم منها اسم ولا مكان. اقتربت الابنة لتسمعه، لكنه سكت قبل أن ينهي جملته.
قالت لأبيها:
— أظنه كان ينادي أحدًا.
نظر الرجل إلى الضمادات التي غطت صدر المصاب وجنبه.
— إذا بقي حيًا، فليخبرنا بنفسه.
حلّت الليلة السابعة.
جلست الابنة في المخزن تستبدل ضمادًا، والريح تضرب ألواح الباب. ظنت أن الرجل تحرك، فرفعت المصباح نحوه.
كانت عيناه مفتوحتين.
تراجعت خطوة.
— أبي!
دخل القروي مسرعًا. ركع قرب الغريب ووضع يده على كتفه كي لا يحاول النهوض.
— لا تتحرك. جروحك لم تلتئم.
نظر المصاب إليهما كما لو أنه لا يعرف أين هو. حاول أن يرفع ذراعه، فلم يستطع.
سأله القروي:
— هل تسمعني؟
أومأ إيماءة ضعيفة.
— وجدتك في الممر. أنت في بيتي الآن.
تحركت عينا الرجل نحو الباب، ثم إلى النافذة الصغيرة.
قال بصوت بالكاد خرج:
— كم... مضى؟

— سبعة أيام منذ وجدتك.
أغلق عينيه لحظة. وعندما فتحهما، بدا أنه يبحث عن شيء ضاع منه في الممر.
سأله القروي:
— من أنت؟
نظر الغريب إلى وجهه، ثم إلى ابنته التي تحمل المصباح.
حاول الكلام مرة، فلم يخرج صوت. شرب قطرة من الماء قربتها منه، ثم قال:
— اسمي... سايرن.
ثبتت يد الابنة حول المصباح.
حدق القروي فيه.
— سايرن؟ قائد جيش قاسران؟
أومأ الرجل بصعوبة.
قال القروي:
— يقولون إنك مت. رهفان احتلت أكثر من نصف المملكة، والناس في دمهار ينعونك.
حاول سايرن النهوض، فاشتد الألم في جنبه وأعاده إلى الفراش. أمسك القروي بكتفه.
— لن تصل إلى أي مكان الليلة. أخبرني أولًا: من فعل هذا بك؟
لم يجب سايرن فورًا.
نظر إلى الضماد فوق صدره، ثم أطبق أصابعه على طرف الغطاء.
وعندما نطق، خرج الاسم واضحًا رغم ضعف صوته:
— إيردان... آل فالدار.

نهاية الجزء الأول

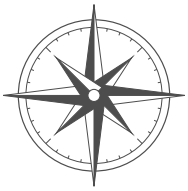

بلاد التيجان السبعَة

ظلال الخرائط

ليست كل أرضٍ غائبة عن الخرائط خاليةَ من الحياة.

تحيط ببحر السكون سبع ممالك، لكلّ منها تاجها وتاريخها الذي لا يقَبل الشك. لكن وراء الحدود المرسومة والأساطير الموروثة، أسئلةَ تعلّم الناس ألا يطرحوها.

في قرية هادئة، يكبر نائل قريبًا من خرائط رجل عجوز، بعيدًا عن حروب الممالك. غير أنَ ما يبدو حبرًا على ورق سيقوده إلى طريق لا يعرف نهايته، وإلى ماضٍ يثقَل صمت من حوله.

وفي الشمال، تَتحرك الجيوش. وبين رهفان وقاسرانَ، تُختبر شجاعة الرجال وولاءائهم، بينما تصنع القصور قراراتٍ يدفع ثمنها الواققون فِي ساحات القتال.

بين مغامرة تبدأ وحرب تَتَسع، تنفتح أولى أبواب بلاد التيجان السبعة؛ حيثِ لا يكفي أنَ تعرف الطريق... بل أنَ تعرفِ مَن رسمه.



رضا الحكيم الشعيري